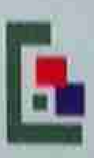
عبد الإله بلقزيز

رائحة المكان

نص



منتدى المعارف
alMaaref Forum

رائحة المكان

نص

عبد الإله بلقزيز

رائحة المكان

نص



منتدى المعارف
alMaaref Forum

الفهرسة أثناء النشر - إعداد منتدى المعارف

بلقزيز، عبد الإله
رائحة المكان: نص/ عبد الإله بلقزيز.
١٩١ ص.
١. نصوص أدبية وشعرية. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٠

منتدى المعارف

بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت
ص.ب: ٥٢٨٥ - ١١٣ حمرا - بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ - لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)

المحتويـــات

استهـلال

إلى محمود درويش

ما دَلَّني عليَّ

سوى ألمي،

وبضعُ شعَيْراتِ شيبٍ

تُهَيِّئني لأقولَ بقايايَ

وأختصرَ الطريقَ الطويلَ

على قدميّ.

ما دَلَّني عليَّ

سوى قلمي،

وبضْعُ مفرداتٍ أدمنْتُها

في الكتابةِ، ورَصَفْتُها

عند مفترقِ الطريقِ

المُقْفَلِ إليّ.
وما دلَّني عليَّ اسْمِي
حين أَذِنْتُ له بأن يكون
اسمي،
وعنواني وخصمِي،
ونديمي في ليل السؤالِ
البَهِيمِ المُبَعْثَرِ
في كلامي.
ما دلَّني أحدٌ عليَّ سواكَ
يا ابنَ حوريَّةٍ تَحِنُّ
إلى خبزها وقهوتها،
ومن دمعتها إن متَّ تَئِنُّ،
كما الذكرى من صدى ألمِ.
وما دلَّني عليك غير قصيدةٍ
لم تكتُبْها في الهزيع الأخير
من حَتْفِك
كي تنظِّم فوضى الخلافِ فيك
بين شبهة الوجود ويقينيةالعدمِ.

ـ «فإن الكلامَ مصايدُ القلوب والسّحرُ الحلال»

ابن قتيبة

ـ «وكلامُ الناسِ في طبقات كما أن الناسَ أنفسَهم في طبقات»

الجاحظ

«أحسن الكلام ما . . . قامت صورتُهُ بين نَظْمٍ كأنه نثرٌ، ونثْرٍ كأنه نظْم»

أبو حيّان التوحيدي

باب البيان

ـ ١ ـ

ما كان أَبْيَنَ من بيانها. تلك كانتِ العربُ: في جزيرتها حيث تُقيم، وفي أَقاصٍ من الدنيا حين تَشُدُّ رِحْلَها وتغتربُ. قوافلُها قوافيها، ولسعةُ الشعر فيها لغةٌ تَفُوحُ لها رائحةُ المدى وينتشر عرْفُها في البعيد، فلا هي من قديمٍ معتَّقٍ في جِرارِ الكلام ولا هي من بقايا مُنَمْنَمَات القصيد. والبيانُ هويّة العربيّ منذ قذفتْ به السماءُ في الصحراءْ، ومنذ تَعَلَّم كيف يَعُدُّ النجومَ فوق ويُسمِّيَ من تحتها الأشياءْ. البيانُ شهوتُه ونَزْوَتُهُ ونَخْوَتُهُ، والبيان مِحنتُه ودمعته وغَصَّتُه. يقطع الفيافي كي يحفظ بيتًا من الشِّعر، ويجوعُ ويمْلق ويتقلب بين التشرّد والغَمّ، وقد يقسو على جوَار القبيلة بالذّمّ أو يقتل ويَغْنَمْ؛ لكنه أمام جملتين مطرَّزتَيْن بِسَجْعٍ ينحني ويبكي، أو من سكرةٍ بالإيقاع يَأْثَمْ. تلك جِبِلَّتُه وسيرتُه ورحلتُه ولوعتُه ومتاعُهُ الأَقْدَمْ. والبيانُ لهُ كتابٌ يُهَذِّبُهُ ويرشدُهُ إلى الدنيا ويعلّمُهُ كيف يَأْنَس بما تَعَلَّم. ما كان أَبْيَنَ من لسان العرب لولا أن فيه اليوم ما استعجم.

البيانُ ما أبَانَ البيْن في الأشياء. البيانُ ما لا بَيِّن إلّا بِبيِّنَاتِه.

والبيانُ ما أذْهَلْ، ما أزاحَ الحجابَ وفَكَّ المُقْفَل. البيانُ ما أجملْ، وأجملُ البيان ما أَوْجَزَ وأَوْفَى، ما ألْمَح قليلُهُ ومن الزائدِ أعْفَى. البيانُ ما أطلَّ على النفس من بعيدٍ وأرسل إليها كتاب الإعجاب، البيانُ ما اقْتَحَمَ خلْوة العشاق في الخِبَاء وفَتَّح الأبواب. والبيان بابُ الأبواب الذي لا حُرَّاسَ عليه: هو وحدهُ يَحْرُسُ قلعتَهُ من الدُّسَّاسِ وجواسيسِ اللغةِ ويُطَمْئِنُ على اللسان شَعْبَهْ. البيان امرأةٌ لا تخشى الرجولةَ في ليلتها وللناصحات المحَذِّرات يُحِطْنَهَا لا تَأبَهْ. البيانُ ملكُ الملوكِ المتوَّجُ على عرشٍ ظَاعِنٍ في القَفْر. البيانُ رحيقُ جمالٍ ساحرٍ تَزَيَّا بِشَارَةِ النصر.

ـ ٢ ـ

النَّصْرُ مفتاحُ الشِّعْر والنثر. مَن ينتصرْ، يَكْتُب وحدهُ، فليس للهزيمةِ لسانٌ يَلْهَج، والخائبونَ في الحروب يُغَنُّون أويَبْكون أو يَصْمتون. لابدَّ للشِّعْر من فروسيَّةٍ تُلْهِمُه وتُطْلِقُ السحريَّ فيه شَهْدًا يَتَقَطَّر. ولابُدَّ للنثر من أعداء يُسَاوِمُهُم على غدهم فَيَنْصَحُهُم أو يراوِدُهُم أكثر. ولكن، لَا بدَّ لِلِّسان من أن تكْبُر في ألفاظه الحكمةُ كي يهزِمَهُم. الحربُ للشاعرِ والحِدَاُد للمغنّي، ونَصْرُ القبيلةِ على رأس رُمْح لسانِها محمولُ، والكلامُ المعسولُ مِزْوَدَةٌ لِنَصْلِ حروبها والتمنّي. كَمْ مِنْ نَصْرٍ أضاعَهُ بيتان من قصيدةٍ وأرداياهُ مَحْسُورَا، وكم مِنْ سَجْعٍ خُرَافيّ بَنَى على صهوةِ الحصان عرشًا مهجورًا، وماذا سيبقى للأهل من السلام على كلام لا يَزِنُ المباني ولا يَنْثُرُ المعانيَ وردًا وشَهْدًا ونُورًا؟ فَلْيَكْفِ البيانَ أنه السَّيِّدُ في مكانِ العربيّ المطلَق يقول له: أنتَ أنا وأنا

أنتْ، وما بيننا الأُرْجُوَانُ ومواكبُ الزمانِ على جَسدٍ كُنَّاهُ سويًّا، وكان لنا خيمةً منصوبةً على تُخُوم حقلٍ من الزَّنْبَق. يكفي البيانَ ما أخذ من الوقت الذهبيِّ كي يُحَاكِيَ الأزرقْ ويَصْقلَ في آخر الصحراء وجدانًا بدويًّا.

ـ ٣ ـ

للبيانِ فاكهةٌ من رخام، صحوةُ جسدٍ عذَّبَهُ النداءُ الحيويُّ وأطفأتْ جذْوتَهُ غيمةٌ شارِدَهْ. للِّسان مَملكةٌ حرَّةٌ يَعْبَث فيها ويرسي شريعتَهُ أو يتلو على الرعية ألواحَهُ من نافذةْ. واللسانُ امرأةٌ يُبَلِّلُهَا الندى في الطريق إلى نفسها ويراودها في غرفتها الحنين إلى نزوةٍ واحدهْ. اللسانُ وجبةٌ سريعةٌ لمعنًى ضائعٍ بين المطلق والمستحيل وسكْرةِ خمرةٍ فاسدهْ. واللسانُ جمرةُ روحٍ تأخذُها أغنيات الرُّعاةِ بعيدًا وتعيدها على عجلٍ لتمضي إلى أعلى صاعدهْ. اللسانُ صليبٌ يُعَلِّقُ الفراغُ عليه صورتَهُ وينحتُ فيه الأقدمون نقوشًا بائدهْ؛ شمَّاعةٌ يترك العشاق عليها ما يدُلّ على شهوةٍ عَبَرَتْ بين تأوُّهيْن سريعيْن وأخمدتْ شمعتها في المساء الحزين عاصفةٌ راعِدَهْ. اللسانُ ما كان أمس وما سيكون غدًا وما قد لا يكون يومًا: مدوَّنةٌ يقرأ فيها العابرون أخبارَ أُممٍ بائدة.

البيانُ لِلِّسانِ كالشيء في الميزان: به يتقدَّر. وميزانُ الشيءِ حُكمُهُ، ولا قيمة للكلام إن لم يتدثَّر بحريرٍ للنفس يزُفُّه. فَلِلْقَلْبِ عطشٌ عن إروائِه ليس يعتذرُ؛ ولا أوَّلُ الصباح يعتذرُ عن حِشْمته، ولا في فنجان قهوته عصافيرُ الروح تنتحرُ. للقلب مطالبُه كأيةِ نقابةٍ في النضال تبدأ، وفاكهةُ اللسان فاتحةٌ تَطيبُ

ولا شيء بعدها يهدأ. فلا عُذْر للبيان، إذن، إنْ لم يتدفَّق لِتَصْنَعَ سيُولُهُ خِصبَ الكلام، فللمعنى ظَمَأٌ للتعدُّدِ أو للتجدّد أو للعَوْدِ ثانيةً من تيه الرحلةِ إلى الذي يَعْقِلُهُ. للمعنى مَرْكَبُهُ، وشراعُهُ، والدّقلُ والمجذافُ والريحُ والزّادُ ورحلتُه. لكن المعنى عن الذي فيه لا يتستَّر، يتجَمَّل أكثر - وقد يتعطَّر - كي يرى في مرآةِ البيان صورتَهُ.

- ٤ -

الصورةُ ما في لحظةِ التجلّي خُلِق. ما النَّفسُ في نفسها حملتْهُ، وما الوجدانُ بهِ بعد مخاضٍ رُزِق. وللصورة أن تكون كما شاءَ لها لهبُ الخيال: لها أن تعيد تنظيم فوضى الدلالة في انتفاضة الأشياء؛ أن تَرُدَّ البدايةَ إلى النهايةِ، وأن تَهَبَ الوجودَ الممكنَ للمُحَال. الصورةُ ما صَنَعَ القلبُ لنفسه في لحظةِ صمْته وما قال العاشقُ لعشيقتِهِ حين شَعَّ الحنينُ إلى الوصال. والصورةُ ما نابَ عن الكلمات في غيبتها أو كَبْوتها، وأطْلَقَ في البياض موجَ الرحيلِ إلى البعيد على صَهْوة الشهوات. الصورةُ سورةٌ ترتِّلُها القادماتُ من أغاني الريفِ تَحْمِلْن القِرَاب صُبْحًا أو لِقِطَافِ مسائهِنّ تُهَيِّئْنَ السِّلَال. الصورةُ نظرةٌ تُلقيها امرأةٌ على شاعرٍ في شارعٍ يزدحم بصوت كعْبِها العالْ وهي تمضي إلى هدفٍ تعرفُه أو تأخذُهَا إليه مِشْيَةٌ في المدى تختال. الصورة ما فَعَلَ الجمالُ في قارئهِ وما حرَّكَ الخيالُ من جَمْر التنبُّه وما أيقظ في النفس السؤال. والصورةُ للبيان كالاسم للإنسان: تدُلّ عليه وعن غيره تَفْصِل، والصورةُ ما يَجُبُّ البداهةَ في الأشياء ويُذْهِل.

- ٥ -

للذهول حكمةٌ ورعشةٌ يعرفُها الأنبياء، فهو قرينُ رؤيةِ ما لا يُرَى. هو الوجعُ الشديدُ يرفع روحًا عن المألوف ويُمِضّ لحظة الاكتشاف. هو صدى الذي يأتي من بعيد ليأخُذَكْ. هو اعترافُ الذات برهبة الميلاد. هو ما لم تَنْتَظِرْهُ قبل أن يَفْجَأَكْ، والذهولُ ما كان إلى اللانهائيِّ مَسْلَكَكْ. لا يعرف الذهولَ من لا يقْوَى على وطأتِهِ، فهو الشدّةُ، والصَّدمةُ، والدهشةُ، وهو الولادةُ من مخاضٍ لا ينتهي. الذهول ما دار في أفلاك النفس لحظة الاستغراق، وهو الشِّقاق بينها وخارِجِها: كأنه طريق رحلتها إلى النهاية تُوَقِّعُهُ على نغمٍ يتفجَّع من وتَرٍ يتوجَّع بين أنامل طفلة سَحَرَتْهَا لمسةُ قيتار. الذهول صُبَّارٌ يَلْسَعُ الريحَ حين تلامِسُهُ فيتّسع المدى أمام الجُلَّنار. الذهول ما استدار في مدار حلمٍ أشعلتهُ كوابيسُ ليلٍ ينتحر النهارُ فيه ويَنْحَرُهُ النهار. الذهول مهنة الشعراء والعشاق من زمنٍ قديمٍ وتيهُ قلبٍ هائمٍ على عدمٍ في القِفَار. لكن الشعراء تشرّدهم ريحُ القصيدة في البعيد فَيَنْأَوْنَ من ذهولٍ عن معنًى لا يولَدُ من لفظٍ مستعار.

- ٦ -

الاستعارةُ ملحُ الكلام: يُقَدِّدُه، ويُلِذُّهُ، ويُمَدِّدُهُ في الزمان كإكسير حياة. الاستعارةُ نياشينُ على صدور قُرَوِيَّاتٍ يَحْمِلْنَ حطب المساء البارد، ويروِّضْنَ بالمواويل شبقَ الماعز أو يردِّدْنَ نحيب الروح في الجهاتْ. الاستعارةُ ما بِهِ أوَّلُ الحُبِّ ابتدأْ وأَدْمَنَهُ المتصوفةُ والناقمون، وما عليه اختلف الرُّواةْ. الاستعارةُ

حُجَّة الأذكياءِ والأغبياءِ والمتسوِّلةِ وتجَّارِ التُّحَف والأعراض والمخدراتْ، شهيةُ النَّثرِ إلى نثرِهِ وبُحَّةُ الناي في مساءات الرُّعاة. الاستعارةُ وجبةُ اللّسانِ من الجمالِ، مفردةٌ ترصِّعُ جملةً أو صورةٌ تُحَاكي ما في الروحِ مِن شبقٍ ومن نسقٍ فوضويٍّ يُشَيِّدُهُ الخيال. والاستعارةُ مهنةُ الخطباء والغرباء، ولسانُ مَن لا لسانَ له حين يدخُل المعنى الصريحُ في نفقْ، وهي ما صَدَقْ حين حروفيةُ الألفاظ تدُسُّ في الدلالةِ مِرْيَةً وتنفُث الرعونةَ في رَهَقْ. الاستعارَةُ نسخةٌ من الكلام تُقْتَرَضُ للزينةِ كما الحسناءُ تقترض الحِلْيَ في العُرْس لِتَحْلِيَةِ ليلتها؛ وعلى الشاعر أن يُعِيدَ إلى الطبيعة ما أعارتْهُ كي يَنْعَمَ بشهوتها في حُجْرتها. ولَهُ أن يتجوَّز في وَصْفها بما ليس فيها، وأن يَتَنَرْجَسَ بما ليس فيه كي تكونَ القسمةُ مُنْصِفَة. لكنَّ الاستعارةَ أقْرَبُ حين تُطيل الإقامةَ في الكلامِ وتفرضُ على النصِّ الشَّقِيِّ شريعتَها وتَهَبُ الخطيبَ المُتَلَعْثِمَ بيانَه الأجوف. وهي ما أضْجَرْ حين يمْكُثُ فيها حنينٌ خرافيٌّ إلى الشقشقهْ أو حين تأخذ المعنى ـ على حين غرَّةٍ ـ إلى حَبْل المشنقهْ. فلا تَسْتَعِر إلا على قدر الطلبْ، ولا تَغِلْ في النشدان إلا بما تَسُدُّ به الأَوَدْ، واطلب لنصِّك من الجمال ما يكفيه ويرفع عنه حاجةً إلى المَدَدْ، وتذكَّر أن ما قد يكون في بعض فَوْهك من نشازٍ إنما قد يَسَّاقَطُ من ثقيلِ حملك من مجاز.

ـ ٧ ـ

يجوزُ لِلّسان ما يُقِرُّهُ البيان: تَدْويرُ الزوايا، تجسيمُ الروحِ، تأبيدُ الأزلْ، وصفُ الذي لن يأتي، تأنيثُ القَمَرْ. يجوز الذي لم

يَزَل يعذّب القلب ويُفْني البشرْ. يجوزُ العويلُ في حلفة عرسٍ وأنْسٍ ويجوزُ التقاطُ الصُّوَرْ: من تحتٍ ومِنْ عَلٍ ومِنْ مَرْكَعٍ ومنْبرْ. يجوز الذي لا يَهُون كما لا يَجُوز المعروفُ في مَعْرِضٍ مُنْكَر. يجوز المستحيلُ إذا أمْكن، ويجوز الذي لا يكون: صهيلُ الحمامِ، هديلُ القطط، مُواءُ الثعبان، عواء الغَزَالة، نُباح السّنونو، والتطيُّر من أوراق الشجر. يجوز الذي لا يجوزُ: أن تكونَ مثلما لا تكون ولا يريدُ القدر. يجوز التحديقُ في اللانهائيِّ وإبصارُ ما لا تُدْرِكُهُ العيونُ ولا يَدُلُّ عليه أَثَرْ. يجوزُ الضَّجرْ من يوميٍّ سخيفٍ يأخذُك إلى اللامعنى ويمنع مقلتيْن فيك من النظر. يجوز السَّهَرْ في واضحةِ النهار والقيلولةُ في آخر الليل، ويجوزُ انتظارُ خريفٍ أعقبَ ربيعًا فُجَائيًّا وانتحَرْ. يجوز النظر في مرآةٍ تُرِيكَ صورةَ الماضي البعيدِ يَخْتَال بين ناظريْكَ على مَرْمَى حجر. تجوز الصُّور في معرض إسْدالةِ جفْنٍ على إيقاع أقدام راقصات الغجر. ويجوز الظَّفَرْ بِبُغْيَةٍ لا تُنالُ وبإمرأةٍ فرَّت ملامحُها من الخيالْ. يجوز السؤالُ عمّا لا يجوز: جنسُ الملائكة وأحفادُ إبليس، وعن قبيلة خرجتْ من الحجاز إلى حتفها الأمويّ باحثةً عن مجدٍ يضيئ المُلْك فيها وبالغُنْم النفيسِ يأتيها. يجوز التدليسُ في مقام الصِّدقِ والقيامُ على الحقيقة بالرماح إن عزَّ الرأيُ الرَّئيُّ وامتنع الحبيسُ عن الإفصاح. يجوزُ الإلماح عند التلعثُم والتكلُّمُ بإفراطٍ إن فاض ماءُ اللغة في الأشداق. يجوز النفاق إذا طَفَحَ الزَّيْفُ وجمحَ الهجاء للمَدْح. يجوز الصفح عن قاتلٍ يعتذر لقتلاهُ ويصرخ: خذوني إلى مصيري بما لم أفعلْ. يجوز الأسهلْ إن تَعَذَّرَ الصعبُ والشبيهُ على شبيههِ أَوْحَى وما دَلّ.

- ٨ -

شبيهُ الشيء لا يكونُه: أَرُومتان وماهيتان لا تتماهيان. لكن الأشياء تأخذ زينتَها في مرآةِ الأشباه، وبالأشباه يُزَفّ المعنى إلى الرُّوع. أن يُشْبِهَ الشيءُ شبيهَهُ، ففي الشَّبَه شُبْهَةٌ تدثِّرها البلاغةُ كما تُخْفِي المساحيقُ التجاعيد. وليس على الشاعر مِنْ حَرَجٍ إذا شبَّه وأخرج الصورةَ من قيدِ معنًى على الأفهام الْتَبَسَ. فللفلاسفةِ أن يبحثوا بلا مَلَلٍ عمَّا في الكلامِ من خَلَلٍ، ولهُ أن يروِّضَ المرأةَ والمستحيل على حمْلَ المعنى المضاف في صورةٍ مُخْتَلَسَهْ. والتشبيهُ كالتنبيهِ إشارةٌ في رداء عِبارهْ، تمرينٌ على تحرير اللسان من التحجُّرِ، زواجٌ حلالٌ بين صورتيْن تتبادلانِ المباهاة، ووسيلةٌ أخرى لاختصار وحدة الوجود أو لريّ معنًى في النفس أرهقَهُ التصحُّر. والمشبِّهاتُ مقبِّلاتٌ على طبَقِ الكلام، شهيَّةُ حديثِ خلوةٍ بين عاشقيْن، لمسةُ الروح في جسدٍ اخْتَنَقَتْ نوافذُهُ واستهواهُ الحنينُ إلى الفُتُوَّهْ، والتشبيه بيانُ النُّبوَّةْ.

- ٩ -

ما كانتِ النُّبُوَّةُ إلّا ببيانٍ، وما عريكةُ العربِ لَانَتْ إلّا به، وإنَّ مِن البيان لسِحْرًا. ولولا البيانْ، ما آنَسَتِ الراحلةُ بمكان، ولا شِيدَ في الصحراء عمران ولا أطاحتْ بجيش كسرى سِنان، ولا من أيام الفاتحين كان الذي كان. لولا البيان، ما تكاثَر نَسْلُنا ولا جَمْعُنَا ترتَّق ولا فيْضُنا زاد ولا كان عنوان. لولا البيان، ما صَمَد اللسان ولا أهِلَّةُ التاريخ هلَّت في الزمان. البيان قلعةٌ لمنع الذاكرة من التسوُّس، مِلْحُ الكتابةِ ورياضة الحضارة وإنشاد

الأرجوان. والبيان ما يَبْقَى بعد أن تَفْرَنْقِع الذكرى عن أشيائها وينسدل النسيان. البيانُ أحجارٌ كريمةٌ ترصِّعُ إسوارةَ الكلام، لكنّه مرهِقٌ لِلّسان حين يلازمُهُ كظِلٍّ غبيٍّ وحين يمنع المنشور من حقّ الخروج عن القاعدهْ. شُرطيُّ السَّجِيَّةِ هُوَ حين يُمْلي شريعتَهُ ويَحْرُسُ النظام. جاسوسٌ على المعنى الفوضويِّ وعلى نصٍّ عدميٍّ يبحث عن لغةٍ تحرِّرُهُ من عادةِ الوقوف على أبوابٍ عَافَها. البيانُ سجَّانٌ بغيضٌ يتلو على القلبِ أقانيمَهُ ويروّضُ شطحه على المألوف. وأَلَذُّ البيان السَّجْعُ، والسجع أشدُّ فتكًا بِالمَعَانْ.

- ١٠ -

لا سَجْع بعد سجْع الكهان، ولعلّهم لذلك مَا صَدَقُوا ولا أفلحوا من بهتان. شَقْشَقُوا وزَخْرَفُوا وأفرطوا في الزينةِ حتى ضاع الميزان. لكنهم أعدُّوا للكلامِ ما يليق به ويرفعُه إلى أعلى. لا بهتانَ يُخْفِيه البيان وتَسْتُرُهُ مساحيقٌ أو يبدِّد رائحته بَخُورُ الرُّهبان. كن صادقًا حتى تنقاد لَكَ المعاني والكلام يُطَأطئُ رأسَهُ وتَعْلو في عنفوان. كذا كان الأنبياءُ والشعراءُ والفطاحل والحُدَاةُ يَذرعون التاريخ ويمسحون عن القوافل وحشة الصحراء. اقرأْ كي يسكنَك البيان، فـ «الرحمن علم القرآن، خَلَقَ الإنسان علّمه البيان، الشمسُ والقمر بحسبان». واقرأ في الزمان دليله إلى معنىً في البعيد يَرْحَل، وترسَّلْ حين يعتذر المنظومُ عن الرِّفقة، فقد لا يوجَدُ في الشِّعْر ما يوجَدُ في النثرِ.

والنثرُ شعرٌ تشظّى أو تَرَسَّلَ وأقام له في بيداء الكلامِ خيمةً ظَلِيلَةْ. النثرُ أطلالُ نَظْمٍ خَرَّبَهُ النّرجسيُّ فيه وأخرجَهُ من غنائيةٍ

طويلَه. والنثرُ شهوةُ العربيِّ حين يعجم أمام قافيةٍ تفِرُّ منه في لحظةٍ جميلَهْ. النثرُ انفجارُ معنًى تُسْرِجُهُ البداهةُ وتُغْلِقُهُ البلاغةُ ويُفَتِّشُ الحراسُ فيه عن هويةٍ ضائعهْ. النثرُ امرأةٌ جائعهْ لإحساسٍ فوضويٍّ حين يداهمُها الحنينُ إلى جسمها وتُلْهِبُها الأنفاس. النثرُ تمرُّدٌ منظَّمٌ بين يديْ سادِنٍ مِن حرير تُرَوِّضُ وحشَهُ الداخليَّ ريشةُ أديبٍ شَيَّبَتْهُ الأوزانْ، والنثرُ مَا فراشُ العاشقيْن به ازْدَانْ. خطيئةُ القوافي هُوَ في معلَّقاتٍ لم يكتبها أحدٌ في الماضي ولوحةٌ سورياليةٌ ما شَذَّبتْها يَدُ فنان. النثرُ ما كان أمسُ وما سيكون غدًا بعد أن نَرْحَل فرادى ويُشَيِّعُنَا النسيان.

باب الكلام

ـ ١١ ـ

يكفيك أن تَكْتُبَ قصيدةً حتى تُنقِذ لحظةً إنسانيةً حارَّة من الضياعِ في زحمةِ اليوميّ. إنْ لم تُسْعِفْكَ القصيدةُ فَتَرَسَّلْ؛ ما هَمَّ إنْ أعْيَتْكَ حيلةُ الشعْرِ وضَؤُلَ بين أصابعكَ وزنُ اللغةِ المختالةِ في موكب الصُّوَرِ. على المعنى العميقِ ألّا يضيعَ منك لمجرَّدِ أنَّكَ لم تُعِدَّ له زِفافًا لغويًّا يليقُ به. فلرُبَّمَا لا يُدَاهِمُكَ ثانيةً، ولَرُبَّما يأتيكَ ـ إن أتاكَ ـ بوهجٍ أقلّ. دوِّنْهُ حين يفْجؤُكَ كيفما اتفق. اسْجُنْهُ في عبارةٍ ودَعْ ترويضَه للآتي: لِلَحْظةٍ تكونُ فيها اللغةُ طليقةَ اليوميِّ وقيوده، فتسمو بها والمعنى بها يسمو فوق معدَّلِ مألوفِكَ من الكلام.

ـ ١٢ ـ

ما الكلامُ إلّا أنتَ وقد أَفْلَتَتْ أناكَ من عِقالِكْ. يكونُ الكلامُ ما تكُونُ، وتكونُ الكلامَ حين يكونُ. لا تُصَدِّقْ أن بينكما ما يقيمُ للفصام فلسفةً وعرشًا وإنْ يَكُنِ الكلامُ وراءَ ستار وجْهِكَ حريمًا وجيشًا. لستَ وحدكَ تَضْرِب الأصفاد على الألفاظ؛ تلك عادةٌ أتاها أجدادُكُ مُذْ آمنوا بآلهةِ المعاني وما صدَّقوا بما بين أيديهم

من بيِّنَاتِ المباني. خُذْ منهم حظًّا من الشكّ في جدوى أن تكون المُفْرَدَةُ امرأةً أخرى تمنحك الجَسَد، ولا تَحْمِل عنهم ما شَاَط من القوافي في الفيافي وما كَسَدْ. لكَ أن تختار إذن ـ إنْ شئتَ وحدك ـ بين أن تتكلّمْ أو أن تتألَّمْ.

ـ ١٣ ـ

أن تتألَّمْ، أن لا تكونَ كما تشاءُ أن تكونْ. الأنبياءُ وحدهم تألَّمُوا فكانوا أنبياء. أنت لستَ منهم ولستَ من أرومتهم ولا أنتَ ستَحْمِلُ عبئَ السماء. ولقد كَذِبَ الذين قالوا إن الألمَ يصنع قصيدةً أو يَرْفَعُ نفْساً إلى المطلق. ما كان الألمُ طاقةً إلّا مَتَى فارقَ الحَميمُ الجَسَدْ، وأنتَ لستَ صوفيًّا يأتيه من اللانهائيّ المَدَدْ؛ لا ولا أنْتَ شاعرٌ يُغْنيه منفى الكلامِ عن البَلَدْ. أنت لا أحدْ في هباءٍ لا يَزُولُ، وأنتَ لستَ في الدنيا أكثر ممّا تقولُ. الألمُ عذابُ بَدَنٍ جوَّعَهُ الحرمانُ من المعنى فألْقَى به في جَمْر العذاب. محنةُ نَفْس تضيق بها الرِّحَابُ فَتَنْزَوِي في زقاق القلقِ المُمِضّ. الألمُ أن تَخُطَّ رسالةً للحبيبة من وراء القضبان فلا تعرف ـ على اليقين ـ إن كانت ستقرأها. الألم أن لا تجدَ المكانَ الذي تُصَلّي فيه الرُّوحُ أو تتحرَّر منك ومن لُهَاثِكَ وراءَ نداءِ الحِنْطَة. الألمُ أن يَأخُذكَ المَنْفَى إلى بعيدٍ فينأى عنك الوطن. الألمُ أن تكونَ أنت الوطنَ بلا عَلَمٍ ولا نشيد. الألمُ أن لا تغنِّي حين تغنّي وأن تنتهي أغنياتُك إلى أقفاصٍ من حديد. الألمُ أن تُخْطِئَ موعدَ فنجان قهوتك اليوميِّ بين سطرين، وأن تَهَبَ الليلَ بعضَ اليوم المُؤجّل إلى لَيْلِك. الألمُ أن تفقد حاسَّةَ التمييز بين

الممكن والمستحيل، بين الذي تستطيع وما لا تستطيع من أمرك.

ـ ١٤ ـ

أنت لا تستطيع أن تكون كما أنت تشاءُ نفْسُك وإنْ ثَقُلَت فيكَ موازينُ الإرادةِ، فَلِلإرادةِ حجْمٌ لا يَزِيدُ عن مُمْكِنها ولا يفيض عن حَيِّزٍ تقدِّرُهُ النواميس. فَلَيْسَ لك أن تَهَبَ القصيدةَ الحياة إنْ لمْ تُحَوِّلِ الحياةَ إلى قصيدةٍ. وأنتَ لا تَسْطِع أن تمشيَ وحْدَكَ في الفَلَاةِ إن لم تَكُنِ الفلاةُ غيرَكَ الذي يمشي مَعَك. وليس لَكَ أن تُعَاقِرَ السماءَ وحدك إن لم تناجيك وتُخْرِجْكَ من وحشتِك المُوحِشَه. لا ولستَ تَسْطِعُ الإضرابَ عن الكلامِ أمام إغراء المعنى ولو أصابَ اللغةَ خُرسٌ لفظيّ. ثم إنك لا تَسْطِعُ أن تَشَاء ما تَحْسَبُه في حكم المشاع، فبيْن الذي تريدُ والذي لا تريدُ ما لا يُسْتَطَاع: فَلَا العالمُ طوعُ بنانكْ، ولا الخيالاتُ عجينُ إمكانِكْ، ولا الممكناتُ وصيفاتٌ تَضَعْنَ إكليلَ التمكين على ما تشاء. كُنْ قليلَ البُغْيَةِ حتى تَظْفَر بما دون المستحيل. كُنْ كثيرَ التَّعَفُّف كي يأتيك المستحيل.

ـ ١٥ ـ

ما المستحيلُ إلا غزلُ الممكنِ لِلّانهائي، قمرٌ طَروُبٌ تتحَرَّشُ به النظرات من الشرفةِ، جمرةُ المعاني المتَّقدةِ تحت رماد المَجَاز، كعبةُ المُطْلَقِ المنصوبةُ في النسبيِّ، زفافُ الرّوحِ المشرَّدِ لِلّامرئيِّ، لهفةُ عاشقٍ عابرٍ لِلّامحدود. المستحيلُ ما لا يستحيل على الخيال، والمستحيلُ ما لا يفيض عن الحدود. ما

كان المستحيلُ مستحيلاً إلّا في لغةٍ تَعْقِل المعنى أو تُلقي به في غياهب النظام حيث الكلماتُ والأشياءُ محروسةٌ ممّا يَخرق النواميس ويُعْلِي في العالمِ والمعاني شريعَةَ الفوضى. وما كان المستحيلُ يستحيلُ إنْ أَعَدْنا تنظيمَ الطبيعةِ والكلام: كأنْ نقولَ إن الممكنَ مطلقٌ والمطلقُ ممكنٌ والوجودَ لحظَةٌ مسروقةٌ في جَدَل المَعْنَيَيْن؛ أو كَأنْ نقول إن العقلَ سلطةٌ تافهةٌ في نظام لغةٍ هي مَنْ يسيطر على المعنى، وأنه سادنٌ لا يَحْرُسُ حقيقةً ولا يُنْجِبُها وإنّما يَحْرُسُ من طواحين البلاغةِ عرشَ اللغة. ولقد يكونُ المستحيلُ ممكنًا إنْ أمكنَ تحرير الممكنات من زنازين الرأس واللسان وحرَّاس الحقيقة المسلَّحين بكل أنواع اليقين.

ـ ١٦ ـ

أشدُّ أنواع اليقين بُؤسًا أن تتعالَم. أَشَدُّ أنواع اليقين بأساً أن تَتَحالَم. لا يكون اليقينُ يقينًا إلّا بعد وجبةِ شكٍّ مُوجعةٍ وحمَّام سؤالٍ من جحيم. غير أن اليقين ليس جنَّة تَخْلُدُ لها النفس بعد حساب الشكّ الحميم؛ فاليقين ما ظل الشكُّ يحرسُهُ من اليقين، ما ظَلَّ يطهِّرُهُ من اطمئنانٍ أبْلَهٍ راثَ فيه رَوْثًا وانحطَّ به وابتُذِلَ. لا تَقُل، إذن، إنّ اليقين ما يأتي بعد الشكّ، بل قُل إن اليقينَ ما يأتي مع الشكّ.

ـ ١٧ ـ

لولا الشكُّ ما كانتِ الحقيقة. لولا الشكُّ لَانْتصرتِ الحقيقة. ولولاهُ ما كان للأشياء مِلْحٌ وللوجود مراتبُ. الشكُّ مِصْطَبَةُ

الحياةِ وشاهدةُ الكينونهْ، دربٌ عليك أن تَقْطَعَهُ وحدكْ حين تحرَّرَ من المُطْلَقِ نفسك، غربٌ تتبيَّن به شرقًا قديمًا يُصِيبُك، أو شرقٌ تذوقُ بهِ طَعْم الأبديةِ اللذيذ. الشكُّ ما يزيد عن حدِّ المألوف في الرأس وما عند حافَّةِ الوضوح يستزيد. الشكُّ ما يُعفيكَ من اللسان الطليق حين تتكاثر فيك النهاياتُ البليدة، والشكُّ ما يُعيدُكَ إلى أوَّلِ الأسماءِ والأشياء ويَمْنَحُك البدايه. إنْ فَقَدْتَ حاسَّةَ الشّك، أَضَعْتَ للأشياءِ البُوصَلهْ وأخذكَ الغموضُ إلى حتْفِ الرُّوحِ وتَقَطَّعتْ بكَ السُّبُلُ إلى المسألهْ. إن فَترتْ فيك طاقَةُ الشّك، عليك بنفسك فحصًا وعلاجًا عَسَى نفسك لا تَهُون. ليسَ الشكُّ هَدْمًا عدميًّا، فوضويًّا، موتُورَ المنطلقات والمفردات يكون؛ إنما الشكُّ ما في جِذْرِ حكيمٍ يبني وإلى الخَلْف يخطو كي يلقيَ بعضَ نظرةٍ على صرْحٍ مؤقَّتٍ. لَكَ أن تقول حينَها في غيرِ قَوْلٍ معهود: أنا أشُكُّ، إذن أنا موجود.

ـ ١٨ ـ

الوجودُ لحظةٌ مخْتَلَسَةٌ في ملكوتِ العدم. ومْضَةٌ تَشِعُّ ثم تمضي سريعًا كي يستعيدَ اللَّا وجودُ وجودَه. لكنَّ الوجودَ غيرُ ما يوجَدُ من الكائناتِ والعناصرِ والظاهرات على مقتضى كينونةٍ مجرَّدَةٍ وموضوعية كما على الأرض توجَدُ الطحالبُ، أو كما الأنفاسُ من العضويِّ في الكون تَنْبَعِثْ، فَبَيْن الوجودِ والحياةِ أكثرُ من مائزٍ يَفْصِل كما الفوارقُ والفواصلُ بين العدمِ والموت تقُوُم وتَعْزِلْ. الوجودُ أن تكون الكينونةُ والحريةُ سواءً، أن يخرُجَ الكائنِ من عالم الضرورةِ إلى مملكةٍ له وحدَه: بيدَيْه يَبْنيها،

ومن جنونه يَحْميها وبها يَصْنَع في العالم مجْدَه. الوجودُ أن تقترن الأقانيمُ الثلاثة وتتشابك: الإرادةُ والحرّية والفكر.

ـ ١٩ ـ

ليسَ لكَ أن تريدَ إنْ لم تكُن حرًّا، فالإرادةُ سمةُ الأحرار ومعْدِنُهُمْ، ومَنْ تَسْتَعْبِدْهُ الطبيعةُ والعلاقاتُ والجسدُ يكونُ في نفسه لا أحد. لن تكون حرًّا إن عَدِمتْ منك الإرادةُ ورمتْك الصدفةُ إلى مجهولٍ مُعْتِمٍ، فالحريةُ أن تختار، والمشيئةُ وحدها تأخذك من عدمٍ إلى مَغْنَم. وعليك أن تدفع الكلفةَ من حياتك كي تظفر بما تبتغي، وعليك أن تبدأ كلّ يومٍ من حيث انتهيتَ لكي لا تنتهي. تلك سبيلك إليك وإلى عَصْفة الريح التي تشتهي. كم من مشانق على هذي الطريق نُصِبَتْ كي تَشْنُقَ رغبةً عَجْلى، وكمْ من مقاصل سيقَت في نَزْوتها فكرةٌ ثَكْلَى ورمَتْ في عجين طحينها مَن أرادوا حين أرادوا. ولأن إرادة الواحد من الأنام تَخْصِم من إرادةِ مَنْ يحتكرُ الإرادة من حيث هو الواحدُ الأَوْحَدُ في الأرض ـ وتلك حصّتُها من توزيع القوة بين مغلوبٍ وغَالِبِهِ، بين مسلوبٍ وسَالِبِهِ ـ كان عليها بالتَّبِعَةِ أن تكونَ فِدائيَّةْ: أن ترفَعَ فِعْلَ الحريَّه إلى مَقَامِ مَنْ ينتهك حُرْمَ المطلق السلطويّ ويُزيحُ قَيْده. بيد أنك لا تريد لأنك حرٌّ فحسب، ولا تَحْتازُ حرّيتَكَ لأنك تريدُ فحسب، وإنما هُمَا معًا من أفعالِ فكرٍ هو من وجودكَ في مقام الماهيةْ. لا فرق، إذن، بين أن تقول: أنا أفكّر، إذن أنا موجود، وبين أن تقول: أنا أشُكّ، إذن أنا موجود؛ فليس مِن مُبَايَنَةٍ بين طبيعتيْن تشتبهان: إذْ هُمَا وجْهَان مختلفان/

متآلفان لمعنًى واحدٍ لا يتعدَّد في الجوهر: الوجود.

ـ ٢٠ ـ

... والوجودُ لحظَةٌ مُخْتَلَسة في ملكوتِ العدم: قُلْتُ. لكن العدم موجودٌ: أَأَدْرَكْتُهُ أم ما أَدْرَكْتُ. فَهُوَ وإنْ عَلا على الشَّيْئِيَّةِ والتَّعَيّن الماديّ، نَاظَرَ الموجودَ في وُجودِهِ كما يُنَاظِرُ الفراغُ الامتلاءَ في التَّحَيُّز والمكانِيَّهْ. العدمُ كالفراغِ والموتِ والبَيَاضِ الأبديّ: حَيِّزَاتٌ، وأمكنةٌ، وأزمنةٌ، وكينونات: لا وجودَ يكونُ، ولا امتلاء ولا حياة ولا شيء بغيرها يتحدَّد. تمامًا هي كالنقيضِ يحدِّدُ نقيضَهُ ويُعْلِن قيامَه وُيَدُلُّ عليه. تلك، إذن، ماهيتُهُ. تلكَ جدليةُ الأشياء.

ـ ٢١ ـ

الأشياءُ مسرحُ الكلماتِ الرَّحْبُ، إغراؤُها الذي لا يُحَدّ، وشَغَفٌ أثيرٌ لا ينتهي. تستدْرج الأشياءُ الكلماتِ إلى كَوْنِها، تمتحن فيها جَلَدَ الاكتشاف وتفتح أمامَ مَلَكَتِهَا أبوابَ مملكتها كي تقيس فيها ما تَمْلِك أن تقول، كي تَفْحَصَ في مرآتِها درجة الوضوح في البَوْح بما يَجُولُ. تُسَمّي الكلماتُ أشياءَها كي تستولي عليها، كي تَعْثُرَ على لغةٍ مشتَرَكَهْ. وكلّما تَعَيَّن الشيءُ في ملكوتِ اللسان خَرَجَ من غموضِ الميلاد إلى صورة مُدْرَكَهْ. لكن الأشياء لا تَسْقُط بِيُسْرٍ في حبائل الألفاظ ولا تقدِّم نفسَها لِمَنْ يسمّيها. لعلّها تَقْرِضُ الكلماتِ شعورًا بأنها أَطْبَقَتْ على ماهياتِ الأشياءِ بالتسميةِ والتعيين، ثم ما تلبث أن تستعيد استغلاقَها على

عالـم الكلمات فتمدِّدُ في اللغةِ شعورًا بالقُصور. تلك لعبةٌ ما انتهَتْ في التاريخ ولا خرجَتْ من مغامرةِ الفكر الإنساني. هي، إذن، أيضا، قطعًا، فصْلٌ من فصول صراع الفكر والمعنى.

ـ ٢٢ ـ

لا شيء أشدُّ استعصاءً على المعنى من المعنى. إنه اللغز الذي طارد الكلمات وأرهق العقلَ وبعثَ الروح في السؤال الإنساني. إنْ تَكُنْ تُدرِكُ الشيءَ أو تَحْسَبُكَ تُدْرِكُهُ فَلَسْتَ على مشارف المعنى؛ وإن كنتَ تَسْتَبْدِهُ هَتْكَ المستورِ والمُغْلَقِ في العالمِ بضربةِ رأيٍ، فلستَ عن الرأي أَغْنَى. وإن كنتَ تَحْسَبُ قَلْبَكَ يُجْمِل ما تفَصَّل وتُسْنِدُهُ مَقُولاتُ العَقل ومختبراتُ التجاربِ والحدوسُ، فأنت بِمَبْعَدٍ عن المعنى ومَعْزِل. وإنْ يَكُ في جُعْبتكَ بعضُ دليلٍ على أن المعنى لا يَثْوي في الأشياء قَدْرَ ما يتسلَّل إلى تضاعيف الكلمات، فَأَحْجِمْ عن المزيدِ من طلبِ المزيد. لا سبيل لديكَ إلى المعنى إلَّا أن تُغْمِدَهُ في السؤالِ أكثر فأكثر.

ـ ٢٣ ـ

السؤال شَرَفُ المعرفة، مهنةُ الخارجين عن النظام، مَطِيَّةُ الوجدان إلى الأعلى وشهيَّةُ اللسانْ. لا يقين يَصْنَعُهُ السؤالُ سوى يقينه؛ لا باب يفتحه السؤالُ سوى اللانهائي. فَادْخُل في السؤال كي لا ينتهي فيك الذي ينتهي، وادْخُل في السؤال إلى ما لا ينتهي، ورَابِطْ بين مُفْردتيْنِ منه تُعلِّقانِ الأشياءَ على صليبِ

الاستفهام. عبثًا تحاولُ الحقيقةَ والمستحيلَ فَتَخُوضُ حربَ الدفاع عن الغامض السِّحْريّ؛ عبثًا تُضمِّدُ جُرْح خَيْبَتِك الصَّخْريَّ وتُطْلق عينيْك في بَحْرِ الدَّامسِ الليليّ عَسَى صوتًا يُلْقِي النبأ في رُوعِك فينشَرِحُ الذي أُقْفِلَ في رأسك. عبثًا تحرِّرُ من حكمةِ التردُّدِ قَدَميْك فتمشي في ما يُشْبِهُ الخُيَلَاء. عبثًا تُقَطِّع بنِصَالِ الوقت أوصَال يومِك على مذبحِ صباحِ غدٍ يُبَدِّدُهُ المساء. عبثًا تُقَاتِل وحدك من أجل صوتك فتضيع منك ألواحُ الأنبياء. عبثًا يحاصرك العبثُ الكبير وأنتَ عن السؤال ذاهلٌ في سؤال.

ـ ٢٤ ـ

والسؤال حِرْفةُ المتسوّلين على أبواب الحقيقَةْ: من بَحْرِها لا يأخذون إلّا بمقدار ما يسألون. كالعبْد المِلْحَاح يُحِبُّهُ اللهُ هُمْ، هكذا كانوا: متصّوفةً وفلاسفةً وشعراءَ ودجّالين. والسؤالُ ذاكرةُ الريح تَعْصِف أو تَعْوي أو تُسَوِّي، زوبعةُ جنُونٍ مفتون في قُبْلَةٍ أو قصيدَةْ، شظيَّةٌ فوضويَّةٌ تُحْرِقُ أو تُدَوِّي، وامرأةٌ يَحْملها البرقُ إلى خاطرةٍ شريدَةْ. السؤالُ ما ضاعَ منّي في زحمة ظَنِّي، والسؤال ما فَقَدْتُهُ في نَخْبِ كأسٍ وغَنِمْتُهُ في حروب العقيدَةْ. كَمْ نَخْشَى السؤال الذي لا جواب لهُ، كمْ نَهْوَى السؤال الذي نُصَاحِبُه. والسؤالُ مصيرُ الذين يَصْعدون إلى حَتِفِهم ظافرينْ: يضحكون من الماضي ومن وشْمِ الزمانِ على جسد الرّيح. والسؤالُ أعرابيٌّ يرهِقُه الترحال ولا يُرضيهِ أن يستريح. يَمْنَحُنَا فُسْحَتَيْن: قُبْلَةٌ أو محنةٌ؛ يَهْزِمُنا مرتَيْن: حين يذبَحُنَا وحين نَخْنُقُهُ. هل علمتَ، إذن، أن السؤالَ شرٌّ لابُدَّ منهُ.

ـ ٢٥ ـ

ما لابُدَّ منهُ لابُدَّ منهُ: لابدَّ من الاعتذار للسماءِ عن غُلُوِّ الخطيئةِ في النفس وعن شغب الكبرياء. لابدَّ من الْتِمَاسِ صَفْح الطبيعةِ عمّا اقترفَتْ يدايَ من القسوةِ في جسدٍ ليس لي وحدي. ولابدَّ من الاعتذار للوردةِ عن النشوة وللخمرةِ عن الصحوةِ، وللفَلَاة عن التّيهِ في البعيد. لا بدَّ ممَّا ليس منه بُدٌّ: مِنْ أن نَهَبَ القصيدةَ بعضَ الوقتِ كي تُسْرِجَ الروحَ للرحيلِ ونَحْرُسَ المعنى من قُطَّاع الطريق. ولابدَّ من أن نَحْميَ عاداتنا في الليل كلّما هبَّتْ رياحُ الصبابة وأَوْقَدَت في الفراغ مِلْحَ الجُنون. لابدَّ من إنصاف الهوامشِ والصُّراخ في مملكةِ المُتُون. لا بدَّ من مديحِ الصعاليك وتنفيس ضَائقة الظنون. لابدَّ من أن يكون ما ينبغي أن يكون: من فرحٍ لا يَهيمُ كالبهيمة ولا تَسْتَرِطْهُ السِّنُون. ولا بّد ممَّا ليس منه بُدٌّ: من الرغبةِ، والحَسْرَةِ، والشهوةِ، والقسوة، والثورة، والنِّداء، والرِّثَاء، والهَبَاء، والكلامِ، والصمت، والتذكر، والنسيان، والبداوةِ، والحضارةِ، والعويلِ، والصهيل، والحُبّ، والبغض، والغيرةِ، والحيرةِ. ولا بدَّ من الزراعةِ كي تَضَعَ الأرضُ أحمالَها. لا بدَّ من السياسةِ كي تَضَعَ الحربُ أوزارَها. ولا بدَّ من الشجاعةِ كي يخرُج من جوف خوفِكَ الاعتراف.

ـ ٢٦ ـ

أن تعترف، معناهُ أن تَضَعَ عنك حمْلك؛ أن تَعْقِدَ صلحًا مع الذاكرة وتَفْرَنْقِعَ عن عادةِقَفَصك. أن تعترف، أن تقفَ أمام مِرْآةِ نفسك عاريًا إلّا من جسمك، أن تصيرَ أبًا أو مطراناً أو خُورِيّاً

كي تُسِرَّ لكَ بسرِّكْ. سيلاحقُك البوليس - بوليس الايديولوجيا وعادات الأهلِ - إلى وكْرِكْ وأنت هناك وحْدَك، وحدك هناك من دون سائر أهلِكْ، وحيدًا أحدًا لا رفيق ولا رقيب ولا مِنْ مثنًّى لمُفْرَدِكْ: سَيُدَاهِمُ الحسيبُ خطيئةَ البَوْح فيك كي يخنقها، ما هَمَّ إن طَارَدَك، تماسَكْ قليلاً حتى يَخْبُوَ نداءُ الترددُّدِ المشتعِل، وانْتَعِلْ خَطْوَك ولا تنتظر ما قد يأتي بغتةً من غير حسبان. وانْطَلِقْ، إلى البعيدِ انطلِقْ، حاملاً على كتفيْكَ ألواحَ سرِّكْ. سيقول لكَ الأجدادُ تَمَهَّل؛ سيقولُ لك الشُّرَطيُّ توقَّفْ؛ سينبِّهُك صوتُ الواعظ في الراديو إلى إثمِ الإعلان؛ سيضطرم داخلُك بحرائق الكتمان؛ ستنهال عليك صواعقُ النسيان؛ ستُحاصرك جيوشٌ من خوفٍ وخذلان؛ ستنسى الذي سيكون والذي كان؛ ستلعن يومَكَ وأمْسَك وجرأةً تتحدَّى يأسَكْ. ولكن، لا تُصْغ في النهاية إلى أحد؛ كُن أنتَ نفسَك وانطلِق، انْطَلِق إلى نفسك...

الاعترافُ طقسُ التحرُّر، نداءُ الشجاعةِ والوداعةِ والمصير، جمرةُ المشتاق إلى السَّلامِ الأبديّ ورحيقُ الضمير. الاعترافُ امرأةٌ تقولُ لك: هَيْتَ لكْ، ونافذةٌ تُطِل منها على سِرٍّ ليس لَكْ. الاعتراف نصٌّ يكتبُهُ الأقوياء ويَتْلُونَهُ في الناس. الاعترافُ أسرى يختلسون المفاتيح من الحرّاس. الاعتراف تغريدةٌ في الزِّحام، والاعترافُ ما يبقى لك بعد أن ينتهي في الرأس هذا الحُطام.

باب الصّدى

ـ ٢٧ ـ

لا تُزَاحِمْ أحدًا على ما ليسَ لكْ؛ كذلكَ قالتْ جدَّتي وأسْرَجَتْ جفوني للمنام. أَلْتَذُّ بِشَغَفِيَ الطفوليِّ بالتنافُسِ: مَن يُسَابِقُني من أقراني لِأَسْبِقَهُ؟ مَنْ يُبَاريني في خَزْن الحَكَايا والأمثال لأغْلبَهُ؟ مَنْ يُعَاركُني في باحة الحارةِ لِأَصْرَعَهُ؟ مَن يكذّبني أمام الناس لِأفْضَحَهُ؟ مَنْ يُجَاريني في إطلاقِ الخيال لِأُسْمِعَهُ؟ وكَبرْتُ لا بُرْءَ لي من داءِ المُزاحَمَهْ، وضاعتْ مع الزمن لَاءَاتُ الجدَّةِ الحازمهْ. وكنتُ إذا حفظْتُ سورةً حمَيْتُها بالتنافُسِ في الذاكرهْ. وكلّما ذُكِرَ جبرانُ والمتنبّي هرعتُ إلى المناظرهْ. وحينما أصابني مرضٌ يُسَمُّونَهُ السياسَهْ وأطلقتُ اللحيةَ الألمانيهْ، لعنتُ المزاحمةَ والاحتكار والرأسماليهْ وتذكرتُ وصايا الجَدَّةِ سرًّا وعلانيَّهْ. وها أنذا أعودُ إلى شَغْبي القديمِ لكي أقول هذه المرَّهْ: أيُّها الطفل الذي ما زلتَ تسْكنُني، لا تُزَاحِمْ.

لا تُزاحِمْ؛ ففي الزِّحام ينعدمُ الكلام. دَعْ سواكَ هناكْ: مُرَابطًا على حدود الحظِّ يبحث عن حِصّتِه من فكرتهِ. يكفيك من الحظِّ أنك ما زلت حيًّا، وأن بين يديْك مملكةَ الحِبْرِ تَبْنِيها

حجرًا حجرًا وتُعْلِيها قلعةً لِتَصُون من العيونِ حريمَ المعاني. دَعْ ما حفظتَ من الأغاني عنِ امرأةٍ أَضَعْتَهَا في الحروفِ وضاعتْ منكَ في دهاليز الذاكرهْ. دَعْ عنْكَ لعبةَ النسيان وامْسِكْ رأسَكَ بين يديْكَ، واطْبِقْ جَفنيْك وارْحَل قليلاً في الماضي كي تَعُودَ إليكَ أَشياءُ الطفولهْ. دَعْ عنْكَ البطولهْ، فَحَبَّةُ اسْبِرِينْ تكفيكَ ويكفيكَ بين اليديْن مصباحٌ يَحْرُسُ من إغراءٍ يَقْظَتَكَ الكَسُولَهْ.

ـ ٢٨ ـ

لِلَّيْلِ راحةُ المكانِ الأبديّ؛ صورةُ عذراء تُهدِي بَكَارَتَهَا لِعَاشِقٍ أخرسٍ وتَنُوبُ عنهُ في مديحِ مَفَاتِنِها. الليلُ مهجَعُ الكلامِ الاصطناعيِّ ومَوْقِدُ الروح المُشِعُّ في ملكوت الأبديَّةِ. لِلْبَرِيَّةِ يومُها الطويلُ وليَ الليلُ امرأةً أَرْنُو إليها وأعُدُّ بالأصابع أنفاسَ لَوْعَتِها. والليلُ شهوةُ البعيدِ للبعيد، مَعْبَدٌ يَلُفُّهُ الصمتُ ويَسْكُنُه الصاعدونَ إلى أعلى في سُلَّمِ القصيد. الليلُ مئذنةٌ تَعْلُوها الروحُ كي تُعْلِنَ منها توبتَها، والليلُ إغراءٌ لا ينتهي لنداءِ الخَطيئةِ. ما الليلُ في ميزانِ قصيدتي إلّا ما أريدُ من الزمان وما أُعِيد. ما الليلُ إلَّا ما حَسِبْتَهُ ليلاً وإنْ هو كان نهارًا. ما الليلُ إلّا النهارُ وقد فارق نهارَهُ. الليلُ جوارُهُ وجارُهُ وصوتُ صَمْتِهِ العَذْبُ يرتِّلُ آياتِ سِرِّهِ الإلهيّ في أمان. الليل لحظة متعالية عن الزمان، ومكانٌ من الوقت ينتصب فيه عرشان: واحدٌ للمطلقِ، والثاني يعتليه إنسان.

إنْ سَكَنْتَ إلى نفسِكَ لحظةً واشْتَدَّ بكَ الوجْدُ إلى الوجْدِ، فذاكَ الليلُ. إنْ داهَمَتْكَ قصيدةٌ وبارحْتَ الذي أنتَ إليه

منصرفٌ، فذاكَ الليلُ. إنْ خَلَوْتَ إلى أَمْسِكَ تسألُهُ عَمَّا كَسَبْتَ مِن يومِكَ، فذاكَ الليلُ. إنْ أَفْلَتَ من عِقَالِكَ الجَسَد وأَمْلَى عليكَ أَلْوَاحَ شريعَتِهِ، فذاكَ الليل. والليلُ ذاكَ الذي إنْ تَسْأَمْهُ مرَّة، يضيعُ منك مرّاتٍ وتَفْقِدُهُ.

يَطِيبُ البَوْحُ في الَّلَيْل بما تَبَطَّن، لكنَّ الكلامَ ينتهِك المَقَام، يَخْدِش حُرْمَةَ إلهةِ الصمت في معبدها المسكونِ برائحةِ الرهبة. عليكَ أن تَبُوحَ بغيرِ حروفٍ كي يَلِينَ الليلُ ويَسْكُنَ المعبدُ إلى سَجِيَّتِهِ. وعليكَ أن لا تَمْنَع المعنى من الخروج من القَفَصَ لِئَلّا يتسلَّل الليلُ إلى خَارِجِهِ ويَتْرُكَكَ وحْدَكَ غارقًا في الظلام. هل تذوَّقتَ الضوئيَّ في الليلِ: ما يَجْعَلُ الليلَ يَكْسِرُ عَتْمَتَهُ؟ كَمْ من نبيٍّ، يا صديقي، من هنا مرَّتْ نُبُوءَتُهُ؛ وكَمْ من شاعرٍ ـ في الغُصُون ـ نَضجتْ قصيدتُه؛ كَمْ من سجينٍ نَاجَى الحبيبَةَ وانهارتْ زنزانَتُهُ؛ وكَمْ وكمْ وكَمْ... في الليلِ، في هذا الليلِ: يأوي إلى نفسه في نفسي ويُرْخي على صدري ظفائِرَهُ كي أنام.

ـ ٢٩ ـ

لا أنامُ قبل الفَجْر، تلك عَادةٌ موروثةٌ مِن غابر الأزمان، مُذْ وُلِدْتُ على مائدةِ إفْطارٍ مسائيٍّ في يومٍ ربيعيٍّ من الأشهُر الحُرُمِ وصوتُ المُؤذِّنِ يحملني إلى الدنيا ويَزُفُّ إلى والديَّ «بُشْرَاي». مَنْ يولَدُ في آخرِ النهارِ على مائدة إفطارٍ ينامُ فجرًا في آخِرِ الليل. هكذا فسَّرْتُ لُغْزَ عينيْن لي لا تُطْبِقانِ وشَغَفًا بانفرادٍ وصَمْتٍ لا ينتهيان، لأرفعَ عنّي ثقْلَ الشعورِ بالغَرَابهْ. وما كنتُ

حَسِبْتُ ليْلي كالسحابهْ تُظَلِّلُنِي من شمسِ نهارٍ طالعٍ في فُضول،
فالشمسُ هوايتي الثانيةُ بعد ليْلي وإن تفاضَلَتِ الفُصُول.

لا أنام قبل الفَجْر لئلَّا يَضيعَ مني النهار. كلما أعدَدْتَ له في الليل طابَ أكثر. النهارُ امرأةٌ تَضيق بك إنْ أطَلْتَ المكوثَ ويُشْبِعُها القليلُ منك إن أَعْدَدْتَ نفسك. وأجْمَلُ النهار ما قَلَّ ودَلّ، ما أطَلَّ سريعًا وفَلّ. والدولةُ صاحبةُ النهار، عدوُّ الليل الذي لا يَرْحمُ نومَكَ العميقَ في باكر الصباح. أفْرُكْ جفنيْك بقوةٍ كي تَطْرُدَ الكسل وأَعِدَّ عُدَّتَكَ للرحيل إلى المدرسة. وفي الطريق تَلَذَّذْ بما رأيتَ في المنامة لكي تروّضَ الوقتَ الطويل على السرعةِ، وأعِدْ على مسْمَعِك ما غَنِمْتَ من الشعر على صَوْلَةِ ليْلك؛ فلقد يَضِيقُ بك المعلِّمُ اليوم ويكون عليك رشْوَتَهُ ببيتيْن للمتنبي. والدولةُ عدوُّ الليل، بوليسُهُ الذي يستعجل يومَكْ. ماذا لو تأخَّرَتْ ساعةً، إلى التاسعةِ فقط فيحلو مديحُها. لكن الدولةَ تصحو باكرًا وأنت تغفو متأخرًا، فبينكما جفاء، وبينكما ثاراتٌ لا تنتهي في النهار: كرٌّ وفرٌّ من اليمين إلى اليسار. هل صدفةً أغراك اليسار حين أُخِذْتَ به وخَسِرْتَ الشعر؟ هل صدَّقتَ نفسَك حين هجَرْتَ المَعَرِّي ونَقِمْتَ على أبي تمَّام وهَزِئْتَ بجبران وأَضْرَبْتَ عن صوت أمّ كلثوم؟ لذيذًا كان اليسارُ، كالليل كان، كصوتِ فيروز في عميقِ النفس، كالغاردينيا تتعرَّى تحت الشمس، كصوت الماء على صخرةٍ ينساب. لكن حلم اليسار قصيرٌ وأنتَ تعشق الليلَ الأطول، والدولةُ عدوُّ الليل، فماذا إذن تفعل؟ تقول: فَلْنتفاهَمْ، ولْنَتَبَادَلِ التنازُل: للدولةِ نهارُها وليَ الليلُ وحدي؛ مملكةٌ أصُول فيها وأهذي.

ـ ٣٠ ـ

وحدي تعلّمتُ أن أخونَ طقوسي؛ أن أَخْدَعَ جدّتي في المساءِ فتصدّق حاجتي وتَفْتَحُ لها صرّةَ النقود. وحدي تعلّمْتُ الصّعودْ إلى شرفةِ أحلامي. . . وأوهامي: أبْني مُدُنًا وأهْدِمُها؛ أُحْيِي الموتَى وأسألُهُم؛ أُبَارِزُ الجِنَّ وأَصْرَعُهُم؛ أَتَخَيَّل حريقًا في المدرسهْ؛ أهفو لِعُطْلَةٍ لا تنتهي ولإخوةٍ لا يُكَذِّبونني. وحدي صَنَعْتُ ما صنعتُ: عادةَ التطفّل على كلامِ الآخرين، شهوةَ السَّطْو على انتباه أهلي، ولهفةَ انتهاك سكونِ النائمين. وحدي صنعتُ خوفي وتوَّجْتُهُ ملكًا على جَفْنَيَّ، ووحدي حطَّمتُ صكوكَ براءَتي واندفَعْتُ إلى تقمُّص دور الضّحيَّهْ. ووحدي، كنتُ، لا أبالي بما سوف تقولُ أمّي إنِ اكتشفتْ بين دفاتري صورًا خَفِيَّهْ.

وحدي تعلَّمتُ ألَّا أكون وحديَ في المكان. كُلُّ مَنْ حولي وجوهٌ أعرفُها وأسْمَعُهَا وتسألني وأنا وحْديَ المُجيب. وحدي مَن يُوَزِّع الحقائِقَ والحقائبَ والأدوار والأختام، ووحدي الذي لا يُرَدُّ له كلام. وحين أضِيقُ ذرعًا باللعبة، أرتّبُ غيرَها، أقيم لها القواعدَ والشخوصَ والخيام. كلُّ ما حولي موجودٌ لي، وحدي أمْلِكُهُ، وحدي أُمْسِكُهُ، ووحدي أُبَدِّدُهُ إنْ شِئْتُ في الختام.

حين الْتَقَيْتُ المتنبي أوَلَ مرَّةٍ في المدينةِ العتيقة، في زقاقٍ ضيّقٍ، على رصيفٍ بين الجامع والعطّار، صَحَبْتُهُ، ومن حينِها لم نفترق، وتَلألَأَ مجلسي في اللَّيل. كفَّتْ أنَايَ عن الاحتكار: بِتُّ أسمعُ أكثر، أخْشَعُ أكثر، بِتُّ أَمْهر في تذوُّقِ عَسَلِ الكلام. خَزَّنْتُ ما أعرفُهُ وما لا أعرفُهُ ليوم أعرفه، وما ضاع من المتاع

سوى القليلُ. وحين يبارزني شقيٌّ أو يراهنني على الفقدانِ يُداخِلُني الصهيلُ فأرْكُضُ، إلى آخرِ النصّ أركض، كي لا يَسَّاقَط مني الدليلُ. ووحدي مع المتنبي لا أطيل انتظاري كي يعودَ الزمن الجميلُ.

ـ ٣١ ـ

الزمنُ الجميلُ ما تراه جميلاً، لا الذي كَانْ. الزمنُ الجميلُ ما تَصْنَعُهُ أنت لا ما يُعَمّدُهُ الزمان. الزمنُ الجميلُ فكرةٌ، أو وردةٌ، أو أغنيةٌ، أو امرأةٌ، لا تَضِيقُ بها الذكرى ولا يغشاها نسيان. كُنْ جميلَ الروح ترى الجمال. كُنْ وديعَ القَلْبِ يأتيك في آنِكَ أو في غدِكَ، فلا تَهِيمُ به ولا ينازِعُك المكان. كن ما يشاء لكَ البَهِيُّ يا قريني وما تسألْ، لكن الزمن الجميل يَنْأى عنك بعيدًا ويَرْحَل. عبثًا تُعِيدُه؛ عبثًا تُريدُهُ؛ عبثًا تَظُن أنك سيِّدُهُ. لكنَّه يُهِينُكَ ويرحَل، ويتْرُك على باب ذكراك جملةً قصيرهْ: من هنا مَرَّ يومًا وكانْ.

ـ ٣٢ ـ

كانْ، كان يَعْشق الخرافهْ. بها يبدأُ أوَّل لَيْلِه، ويُنْهي آخرَ فصول مَجْدِهِ. على نومِهِ البطيءِ تتلوها الجَدَّةُ، وعليه كي يحفظها أن يسلّمها مفاتيح انتباهِهِ. كان لا يُطْبِقُ في آخرِ الليلِ عينيْهِ إلّا وقد استَظْهَر الحكاية كلَّها أو حَفَرَ التضاريسَ في نفْسِه. لا بداية لعشقهِ الخرافيّ ولا نهايَهْ، ولا شيء له من السَّرْدِ غيرَ السَّرْد غايَهْ. لكنه كان ضعيفًا أمام الحكايَهْ حين يصيبُه منها ما

يصيبه من الإذايَه. كم عذّبتْهُ رحلة «احْماد وْنَميرْ» إلى الأعلى، كَمْ أَبْكَتْهُ رحلةُ نقطةِ دمِهِ المسفوكِ في السماءِ لعَيْنَيْ أمٍّ ظامئتين للنور والإبْصار. كم كان قلْبُه الصغيرُ يَحْتَار في ما عليه أن يَخْتَار بين المَلْهَاةِ والمأساة. وكَمْ كانْ: لا يدري لماذا نموتُ سريعاً ويطوينا الزّمان. لماذا لا يكون الذي نريدُ، ولماذا نريدُ الذي لا يكون. كان إذا هَمَّ بالسؤالِ، خَشِيَ الإجابهْ، وأضْمَرَ القَلَقَ الذي يزجّ برأسه في كآبَهْ. وكان كلما أدركَهُ الصباحُ على وَهنٍ استرخى وأطلقَ الخمولَ في دِمِهِ كي يَعْبث بالوقت. تلكَ عَادَتُهُ حين لا يُبْصِرُهُ أحدْ أو يَحِينُ في نفسِهِ موْعِدُ الأحدْ. كان حين يتكلَّمُ يُطْلِقُ يديْهِ للريح. لا ضَرْبةٌ على الكفَّيْن تَكفي، ولا بِوَخْزَةِ عيْنِ الجَدَّةِ يَفْهَم. كان يتكلّم، بيديْهِ يتكلّم، وبِهِمَا يشاغِبُ الأهْلَ و«يَأْثَم». جرَّب يوماً أن يقولَ شيئاً ويداهُ مدسوستان في الجَيْبَيْن: لم يخرُجْ مِن فِيه ما يدُلُ على الكلام سوى حشْرجتَيْن. وكان إذا أرادَ الجلوسَ يَقْعَى فيُنْهَرْ، فلا يدري لماذا لا يكونُ طليقاً، ولماذا تتكاثر عليه الممنوعاتُ ويُقْهَر. كان إذا غَضِبَ عضَّ لِسَانَهُ وأَدْمَاه وأَحْرَقَ الدنيا بعينيْنِ متوثبتيْنِ لطلبِ القيامهْ. كان لا يُؤْثِرُ السلامهْ حين يسطو على حقِّهِ أحدْ، وكان يَخْسَرُ حروبَهُ في الحارهْ ولا يَفْقِدُ الجَلَدْ. كان بسيطاً كوَجْهِ أمِّهِ وعنيداً كَغَيْبِ نفْسِه. وكان يحْفظ القرآن والشعر والمقامات ويستَظهر الأغانْ. وكان يُقْرِئُ جدَّتَهُ بعض السُّوَرِ القِصَار، ويساوِمُهَا على كتمان ما تَقْتَرِفُهُ يداهُ من عبثٍ بنظام البيت. الكونُ جدَّتُهُ والأمان، والشمس والفرحُ والمطرُ والسَّحَاب. وحين تَغِيبُ عنه برهةً، يَكْبُر في طفولتِهِ معنى الغيابْ.

ـ ٣٣ ـ

تَغيب الشمس، لكنَّ المساء حول مدفئةٍ من الطينِ أجْمَل.
يغيب الأصدقاءُ في عطلة الصيف، لكن ذكراهم في الليل أجْمل.
يتعَذر الجوابُ عن السؤال، لكن التأمُّل في عقدتهِ العويصة أجمل.
وتغيب الجدَّةُ قليلاً، لكن شيئاً في الدنيا ليس مثلَ حضورِها أجْملْ.

ـ ٣٤ ـ

أجْمَلُ شيءٍ أن لا تسألَ الجيرانَ كثيراً عن خُمِّ الدجاج على سطحِ الدار، وعن سِرِّ زرقَةِ عينَيْ أصغر بناتِ العائلهْ؛ فقد تُحاصِرُكَ عيونُ الأهلِ غداً في مجلسِ قهوةِ المساءِ وتنهالُ عليكَ الأسئلهْ. أجملُ شيءٍ أن لا تَتْرُكَ بَصَمَاتِ هروبكَ حين تُسِرُّ أخْتُكَ بأمْرِكَ وتدعَى إلى تحقيقِ الخالةِ في النَّازِلهْ. أجْملُ شيءٍ أن تَنْسَى الذينَ خذلوكَ كيْ لا يبْقَى الحقْدُ في نَفْسِك الصغيرةِ يبني هَيْكَلَهْ. أجملُ شيءٍ أن تَشْعُر بالسلامِ الداخليّ، فلا أحدٌ يَنْهَاك عمَّا تريدْ، ولا أحدٌ يأمُرُكَ بما تأباه، ولا مِنْ شيءٍ يَحْملُكَ على التأفُّف من يوم جديدْ. أجملُ شيءٍ ألَّا تكونَ وحْدَك حين تكونُ وحْدَك، فقد تُدَاِهُم لَيْلَكَ الجِنِّيَّةُ وإلى مملكتها تأخذُكْ. وقد تُنْجِبُ منك طِفْلَتَيْن أو قبيلةً فتكونُ أنتَ الأبَ الطينيَّ لكائنيْن مِنْ نارٍ وتكُون الضّحيَّهْ. ثم ماذا لو خَطَفَكَ أهلُهَا إلى هناك: هل سترى جدَّتَكَ مرّةً أخرى؟ ثم بأيِّ قلبٍ وعينيْن ستراها؟ وهل سيُسْمَحُ لكَ بتلاوةِ القرآن والتَّفسُّح في العَشِيَّهْ؟ أجملُ شيءٍ أن تحفظ التمائِم والتعاويذ كي تحميَ مملكتكَ الصَّغيرةَ من الغيلان وتمنح جدَّتَكَ فسحةَ الشعورِ بالسلامِ مع عالمٍ يَسْكُنُها وحدها.

وحدَها الأشياءُ الجميلةُ تأخُذُكْ: صوتُ فيروزَ، وشِعْرُ المتنبي، رنينُ جبران السحريّ، صرامةُ العقّاد، رشاقَةُ طه حسين، عوالمُ جرجي زيدان، شجرةُ الرُّمّان، رائحةُ الترابِ المعفَّرِ بحبّات المطر الشحيح، زهرةُ الياسمين على مدخل حديقةِ المدرسَهْ، صوتُ القيثارهْ، عِطْرُ الجَارهْ، وهديلُ حمامةٍ يَهُزُّ صباحَكَ الكسولَ ويُوقِظُكْ. وحدها الجدَّةُ في هذا العالمِ تَفْهَمُكْ، تحميك من الكلامِ الطائشِ ومن عيونٍ في البيت تَرْصُدُكْ. وحدها المرآةُ تَفْضَحُكْ حين تكتشف الطفولةَ تَفِرُّ منك والبراءةَ تَبْرَحُكْ. وحدهُ الخوفُ من الآتي يُرعِبُكْ حين تتذكر موتَ جارٍ جارٍ يَقْرُبُكْ. وحدَهُ الموتُ يجذبكْ للسؤال عن معناهُ الذي لستَ تَدْريهِ ويُتْعِبُكْ. وحدَهُ فضولُ المساء يُغْريك بمعرفة ما تقولُ الجَارةُ عن جارتها وهي تحتسي بُخَار البنّ في الفنجانْ؛ وتُرْهِفُ سَمْعَكَ كي تعرف أكثر. تتلصَّص من كلامها على أسماء من تراهُنَّ في الصباح ذاهباتٍ إلى المدرسهْ. تقدِّرُ أن كُبْرَاهُنَّ فلانة، وأن الصغرى يليق بها الاسمُ الثّانْ. تَرْسُم في المخيّلة مِشْيَةَ الوسطى وتَضْحك في سرِّكْ: هل تحت قدميْها حجَرٌ مُسَنَّنٌ كي ترفع عن الأرض خطوتَها سريعًا؟ ماذا لو أبطأَتْ قليلًا: كنتُ سألتُها إن قرأتْ جَبْرَانًا أو تَلَوْتُ على مشيَتِهَا بيتيْن ممّا يُعْجِبُني ويرقِّصُ النسوان؟ وتضحك في سرِّك حين لا تجد في نفْسِك ما تُجيب به بعد غدٍ في قاعة الامتحان.

- ٣٦ -

أَتْعَسُ الامتحانِ امتحانُ الحسابْ. لستُ بقَّالاً - تقولُ في نفسك - كي أكون نجيبًا في الجَمْعِ والطَّرْحِ والضرب. يكفيني العذْبُ من شِعْر الجاهليينَ، وما تبقَّى لفيروزَ وجبران ولبعض تاريخ فلسطين والعبّاسيين. بماذا ينفعُك الحسابُ يوم الحساب تَسْأَلُ، وتُقَلِّبُ السؤال على وجوهٍ أو تتأمَّلُ. لمْ تُخْلَق لهذي المهنةِ كيْ تَضْرِبَ الأعدادَ في بعضها، وتمدَّ الخُطوطَ وترسُمَ ممكناتِ أشكالها. لا يُولَدُ المرءُ كي يُنْفِقَ وقتَهُ في الهباء ويَصْنَعَ من فراغٍ ما يشاء. كُنْ شاعرًا ودَعِ الشطارةَ جانبًا، واشْحَذ حافظَتَكَ جيّدًا وانْشُرْهَا مثل خيوط العنكبوتِ عَلَّ صيْدًا مِنْ جميلِ الكلامِ يسْقُط فيها غدًا. ذاكرتُك صنَّارتُكَ، بندقيةُ صيْدك، شُرْفَتُك التي منها على الدنيا تُطِلّ، حافظةُ نقودك التي منها تُنْفِق وبها تشتري حُبَّ المُدَرِّسهْ. ذاكرتُك عنوانُك، لسانُك الذي يتكلّم فيك وعنْك ويَحْمِلُك؛ فبماذا ينفَعُك الحسابُ، إذن، والهندسهْ؟ وفي الامتحان تتمطَّى أو تتثاءب أو تضحكُ في سرِّكَ وتسألُ: ماذا يقول المَعَرّي في المسألهْ؟ لو أنفق الجاحظ وقْتَهُ في التجارة، لكان ذلك المَهْزَلهْ.

- ٣٧ -

أن يحسبوكَ صغيرًا ويراقبوا وحْدتك الموحشة فتلك المهزلهْ. أن يبحثوا في ثيابك عن رسالةٍ منسيَّةٍ أو أثَر امرأةٍ، فتلك المهزلَهْ. أن يمنعوكَ من معاقرةِ الكتاب ليلاً والابتلاء بالأخبار، فتلك المهزلهْ. أن يسألوكَ، أو ينصحوك، أو

يجرحوك، أو يُنْصِفُوك، أو يَطيب لهم لَوْكُ اسمكَ في المساءات والسؤال عن سرِّكَ المدفونِ في رأسكَ، فتلك المهزلهْ. والمهزلةُ عيناك في الصباح بعد إضرابكَ الليليّ، وفمٌ يفْغَرُ ويقذف للهواءِ حُمَمَ الكسل. المهزلةُ رأسُكَ الصغيرُ وما حَمَلْ من أخبار الغابرين والغزاةِ والمِقْصَلَهْ. والمهزلةُ أن تَحْلُمَ بمدرِّستكَ الحسناء تَعْجِن رغيفك بيديْها وتُهْديك شعرتيْن من ظفيرتها ومن عينيْها دمعتيْن، وأن تَشْتُمَ شوقي لأنك صدَّقتَ العقَّاد وصدَّقتَ أن «شِعْرَكَ» سوف يجتاح البلاد. المهزلةُ أنك فارٌّ أبدًا من درس الحساب ولاجئٌ إلى المعلَّقات تنطح معناها الصَّخريَّ بقرنيْك الصغيريْن. فأيةُ مهزلةٍ، إذن، أكثر من ألَّا تدري أنك لستَ تدركُ ما تُدرِكُ أكثر؟!

ـ ٣٨ ـ

لستَ تُدْرِكُ أنك تعيش في الماضي رغم تسريحة شَعْرِكَ الحديثهْ، وأنّ صوت جدَّتِكَ يقيم فيك أو يناديكَ، وربَّما يبني عُشَّهُ تحتَ حاجِبَيْكَ. وماذا لديْكَ، بعد التحية والسَّلام، غير أن تعترف بما يَسَّاقَطُ عليك من حُطَام؟ كلّ ما بَنَيْتَهُ حوْلَكَ يتصدَّعْ، والسؤالُ في رأسك يَصْرُخ في الختام. تَطْرُدُ الشيطانَ بالقرآن، تُطيل التأمُّل في ما تبطَّن فيك، تسأل جبران عن معنى الإنسان في زمن الباحثين عن الربح من وراءِ فَرْوَةِ الفقراءْ. يقولُ لكَ زميلُ المدرسة: أنتَ رومانسيٌّ وغبيّ، لن ينفعك جبران والعقَّاد ولا فيروزُ والمتنبّي، ولن يكفيك نجيب محفوظ لكي تفهم الحكايَهْ؛ لابدَّ لك مِن بدايَهْ تُعيدكَ إلى معنى الصراعْ. وأنتَ

كنت من كلامِهِ الحَجَريّ كالخائف الملتاع. ما أدْرَكْتَ أن سؤالاً صغيرًا يصيرُ شرخًا فيكبُر ويتَّسِعُ عرشُهُ في نفسك؛ وما صدَّقْتَ أنَّ مُلْتَحِيًا ألمانيًّا يَصيرُ لَكَ شَيْخًا فَتَلْزَمُ طريقَتَهُ وتَنْذُرُ لَيْلَكْ. ما فَهِمْتَ لماذا انْهارَ صمودُكَ سريعًا وقد تَعوَّدْتَ أن تُسْرِجَ للتَحَدِّيَ خَيْلَك. فماذا أنتَ قائِلٌ ـ إذن ـ لِجدَّةٍ تَرَى حُصُونًا في مملكتها تَنْهار، ولِخَالَةٍ لا تُعْفِيكَ من السؤالِ عمَّا إذا كنتَ قد عَرَفْتَ الطريقَ إلى الأشرار.

ليس في بيْتِك مكانٌ للسياسةْ، فهي في عُرْفِ أَهْلِك أَلْعَنُ ما لَعَنَ اللهُ في الدنيا مُذْ خَلَقَ آدمَ ولَعَنَ الشيطان. فَمَا خَرَجَ جدُّك آدمُ من الجنة إلا بالسياسة: يَقُلْنَ لكَ بإيمان. فما شأنُكَ ـ إذن ـ والخطيئة وأنتَ صغيرٌ ولَمَّا تَنْبُتْ لكَ شَعْرَةٌ في الشَّارِبْ؟ وتسأل نفسك: هل مكاني هنا بين أمٍّ وخالَةٍ وجدة لا يَعْرِفْنَ من العلم غيرَ «فقه» جَدَّ قَضى، أم عليَّ أن أُتْقِنَ التَّقِيَّةَ وأردِّدَ بينهُنَّ من «نفائس» «المعارف» ما قد مضى؟

ـ ٣٩ ـ

ما قد مضَى، مَضَى؛ مَضَتِ البراءةُ في حُبّ القدماءِ والوفاءِ لِسِفْرِ حنينِكَ إلى أوَّل الدَّهشَةِ. مَضَتْ مواكبُ الذين في المساءاتِ صَحِبْتَهُم ورَتَّلْتَ أسماءَهُم على الجَدَّةِ. مَضَى الفَرَحُ المُجلَّلُ بالزغاريدِ وأنتَ تَعْلُو في دفاتِرِ الأهْلِ ظافرًا بِما غَنِمْتَ من المديح عن «الشهادة» حين طويتَ طوركَ الأوَّلَ من الثانويةِ، وقلتَ في نفسِك: هَا قد ودَّعتُ الطفولةَ والصِّبَا وشَدَدْتُ رحْلي إلى المراهقةِ. مَضَتْ لذَّةُ الكَسَلِ في عروقِكَ وأنت تنهض من

ليلكَ جائعًا للعودةِ. مَضَتِ الشهوةُ، والنشوةُ، والجمرةُ، والحسرةُ، ولسعةُ الريحِ في المساءِ الشَّتَويّ. مضى ما قد كنتَ تَحْسَبُهُ لكَ وحدكْ: شعر المعلّقات والمتنبيّ. ومضى السؤالُ فيك إلى نهايته كي يُلقي بك على قارعةِ السؤال ويَمضي.

ما قد مضَى، مَضَى. وها أنت الآنَ في حضرةِ الغامضِ ترنو إلى أفقٍ قد يبتعد عنك وقد يَدْنو، وليس لديكَ في عراءِ الروح غير مِعْوَلٍ وإزْميل. وعليكَ أن تَهدم ما تَبقَّى حتى لا يُعَاوِدَكَ الحنين إلى الأطلال. وفي سديمِ الصَّخْر عليك أن تَحْفُرَ أسماءَ أجدادِك أو أن تَشْتُمَهُمْ، وأن تصنع ما تشاءُ من الأشكال. فأنت الآنَ طليقٌ من الأمْس وضَيْفٌ على الآتي، فاصنعْ بليلك ما تريدُ، ولا تَنْسَ ما عليكَ غدًا من الأثقال.

ـ ٤٠ ـ

يكفيكَ أن تتذكَّرَ كي تتعلَّمَ النسيانْ. لا يُولَدُ المرءُ مرَّتيْن حتى يَعْلَم عن الدنيا ما لَمْ يَعْلَم. للمرءِ مِنَّا قَدْرٌ من الفُرَص لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصْ. كذا قالتِ السماء في صحائِفِها وردَّدَ اللسانْ. خُذْ مِنْ رصيدكَ ما كانَ لكَ اليوم كي تقف على قدميْن وتغالِبَ الوطأةَ، ولا تَسْحَبْهُ كلَّهُ فيقِلُّ منكَ فائِضُك ويضيعُ منك الزمان. واطرَحْ من كتاب حزنِكَ ما تشاء منهُ وخُذْهُ بعيدًا إلى حَتْفِهِ، ولكن اترُكْ منهُ بقيَّةً تكفي لِيَكْبُرَ فيك المعنى وينبلجَ الإنسانْ. للمرءِ مِنَّا قَدْرٌ من الحُبِّ يَزيدُ ولا يَنْقُص. كذلك علَّمَتْنَا الأيامْ، وكذلك كانتْ شريعةُ الحُبِّ في البريَّة تُقَام. يَا لَهَفَ المرءِ على ضائعٍ ليس يرتجع؛ يأخُذُهُ البعيدُ إلى البعيدِ فَيَنْأَى والصَّدَى يتردَّدُ

في النفس، وفي النفس يَعْلو مَقَامًا أو في مكانِها يتَّسعُ. لو نستطيعُ أن نَلْهُوَ بالزمان مثلما لَهَوْنَا لَفَعَلْنَا، ولَرَفَعْنَا شارَةَ النَّصْرِ على التاريخ وانْتَظَرْنا تاريخاً آخرَ نَهْزِمُهُ أو نُلَقِّنُهُ دَرْسَ الطفولة فينا. لَوْ يُمْهِلْنَا الزمانُ قليلاً حتى نشبع من عاداتنا لصدَّقْناهُ وخلَّدْنا أسماءَ هُ في صحائِفِنَا، ورَفَعْنا ذِكْرَهُ في هزيعِ البقاء الأخير. لكنَّ الزمان يَلْهُو بأهله كما نَلْهُو بحبَّات المسبَحَهْ، والقلبُ كَسِيرٌ أو جديرٌ بتحيةِ الروح في كرنفالِ المشرحهْ. والحياة؟ مَا أنتِ إلَّا امرأة تَخُونُ حبيبَها وتُبَدِّلُ العشَّاقَ كما نبدِّلُ ثيابَنَا الداخلية، هل نَسيتِ مَن أنتِ؟ مَنْ الخطيئةِ الأولى نَشَأْتِ، وبالخطيئةِ تَنْتَهِين، وما بين الخَطِيئتَيْنِ تُمَدِّدينَ إقامَتَكِ المخْمَليّهْ. فَلْتَنْتَصِرِي على ضَحَاياكِ، ولْتَعُدّي قَتْلَاهُمْ واحدًا واحدًا، فَلَنْ يَبْقَى في الأرضِ بَعْدَكِ مِن ضحيَّةْ. . . ، لن يَبْقى بعد رحيلِكِ مِنْ وصيَّهْ.

باب الشِّعْر

ـ ٤١ ـ

الشِّعْرُ ما قالَتِ العربُ في الصحراءِ بين شَظَفِ القَفْرِ وسَبَائِكِ المَبَاني، جَدَائلُ روحٍ تُعَذِّبُها قوافِلُ المعاني وهيَ تَلْهَثُ وراءَ ألفاظٍ تَفِرُّ مِنْ هَوْدَجِها المحروسِ في الليلْ. الشِّعْرُ ما وقَّعَتْهُ حوافِرُ الخَيْلْ وأطْلَقَتْهُ الريحُ إلى المَدَى غناءَ الروح الأبديّ. والشِّعْرُ للصحراءْ كالماءِ للظِّبَاءْ، كوردةٍ عليها أن تتَعرَّى حتى تَشْعُر الشمسُ بأنها أجملْ. الشعرُ كتابٌ يَقْرَأُ فيه البدويُّ ألواحَ تِرْحالِهِ ويتأمَّلْ. وأشْهَى الشِّعْر ما تَقَادَمْ، ما حفظَتْهُ الذاكرةُ من النسيان كما تَحْفظ الخابياتُ المُخَلَّل. والشِّعْر أشْهَى من مُعتَّقِ الشَّهْبَاء يرقُدُ سادرًا في المكانِ المُظَلَّل تزورُهُ بين آنٍ وآنْ حتى تطمئن إلى أن الزمانْ ما زال حيًّا وأن حظَّه في البقاءِ أطولْ. والشِّعْرُ طريقةٌ أسْهَل لتنظيم الفوضى في الرأسِ والأصابعِ وترويضِ المعنى على المستحيل الأوَّلْ. والشِّعْرُ أشْهَى وأبْهَى إن كنتَ تَعْرِفُ حقّاً كيفَ تَعْشَقُ المرأةَ على النّحْو الأمْثَلْ.

كُنْ شاعرًا حتى تكونْ، أوِ انْصَرِف عن نفسك كما الأشياءُ عن بعضها تنصرفُ أو تَدُولْ. الشاعرُ يقولُ ما يَقُولْ لأن الأبديةَ

تَسْكُنُه وطَيْفُها عنْ قصيدتِهِ لا يزولْ. الأبديةُ مَهْجِسُهُ ومَهْبِطُ وَحْيِه ومَرْبِطُ خَيْلٍ تَجْمَحُ في رأسه وتَصُولْ. فَلْيَقُلْ ما يَقُولُ حتى يَخْلُد النهارُ إلى نفسه ويُمَدِّد الليل ثرثرتَهُ في شعبهِ ويَنْبَلِج الدفقُ المُحاصَرُ بالرَّماديّ. والشاعِرُ أحاديٌّ في العواطفِ وسخِيٌّ في الصُّوَرْ، شَهْمٌ عند الضرورة أو دَعِيٌّ، وأحيانًا صبيٌّ قليلُ الحياء إنْ أصيبَ بالضَّجَر. والشاعرُ حِرْفَتُهُ الصمتُ حين الطَّنينُ على جثمان المعنى يَحُوم، وكثيرُ الكلام في نفسه إذا مسَّهُ الحنينُ إلى نفسه، ومُفْرِطٌ في التفاهة حين يُعْيِيهُ البحثُ عن أوَّل الوجودْ. للشاعر حدودٌ في مَلَكُوتِ العالم: يَخْلُق ما عنه الآلهةُ تَعِفُّ وما يَسْهُو عنهُ العابرون. لا مجْدَ للشاعر إلّا ما يَتْرُكُهُ الآخرون خلْفَهُم من عاداتٍ غيرِ مألوفة: كَأَنْ يَقِفُوا ـ مثلا ـ على الفارق بين الشَّفَق والغَسَق، بين الوردةِ والمرأةِ، وبين إصْبَعَيْن في يدٍ تختصمان. الشاعرُ كالأقحوان يَذبُل سريعًا ويُنْسَى حين لا يجد الهواء النقيّ، حين يبدّد نرجسيَّتَهُ في الكلام العَدَميّ. ما كان شاعرًا إلّا الذي كانْ يُرَابِط على باب كهف المَعَاني عساها تخْرُج كي تتشمَّس في العراء فيلقي عليها شباكَ اللغة. ما كان شاعرًا إلّا مَنْ خانَ الكَلامَ وشَقَّ للعبارةِ ما أقْفَلَهُ المألوفُ أوسَهَا عنه القُدامَى.

ـ ٤٢ ـ

الشِّعْرُ مذهبُ أهلي ونِحْلَتُهُم: كذا عَلِمْتُ من كتبي وتعلمتُ منهم. لا يكون العربيُّ عربيًّا إنْ لم يَقْرِض أو إن لم يَفْرِض على الكلام شِرْعَةَ القريحةْ. وحدها القوافي بطاقةُ الهُوِيَّةِ إن أراد في القبيلة نَسَباً مُزيَّفاً أو صريحًا. وللعربيِّ في الأرض بيتان: واحدٌ

يسكُن إليه والآخرُ في ذاكرته يُقيم. قد يَهْجُرُ الأوَّلَ وينْأى عنه في المكان، لكنه يَحْمِل الثاني معه في الهَاجِرَهْ. يحفظه كَسِرٍّ إلهيٍّ مقدَّسٍ كي يَدُلَّ عليه في وحشة الصحراء وحين يُحَاصِرُهُ نداءُ الذاكرهْ.

الشعرُ دولةُ العرب الأولى في الزمان: مُلْكُها وعرشُها وجيشُها وصَوْلَتُها والصَّوْلَجانْ. في سِجلّهِ دَوَّنَتْ قبائِلَها وأماكنها وعقائدَها والأنسابَ والأيامْ. ما يَشْهَدُ به الشّعْرُ كَخَتْمِ الدولةِ يُجيزُ ويُمْضي. وما لا يصرِّحُ به (هُوَ) في حُكْم المعدومِ المَقْضيّ. ما رَفَعَ الرواةُ والمؤرّخون إبْهَامًا إلّا بِهِ، وما امْتَشَقَ النَّسَّابونَ من سلاح بَيَانٍ غير نِصَالِهِ. حتى لَكَأنَّ مَنْ لم يستظهر ديوانَهُ كَمَنْ يَرْمي بمصيرهِ بين شدْقيْ مجهولٍ في أزمنةٍ يرتفع فيها المقامُ بما يُقال.

الشِّعْرُ مهنةُ الكَسَّابينَ والشَّحَّاذينَ والفقراءِ والصالحينْ. مِنْ طَبَقِهِ المشاع تأكُلُ الخلائقُ مِن غيرِ اسْتئذان، فَهُوَ للأهْلِ جميعًا وإنِ اختلفوا على الميراث، كالماء والكلإ والنارِ هو مشاعةٌ تَأبَى أن يتملّكها أحدْ. وما مِنْ أحدٍ يسطو على ديوان العربْ وإنْ دَانَتْ له رؤوسُ الناسِ أجمعينْ. على أعرافِهِ نَسَجَ الذينَ اعتنقُوُه وأَعْتَقُوهُ وعتَّقُوُه في خوابي اللسانِ، وحَكَّمُوهُ وتوزَّعوه وقلَّدوهُ أسماءَ لَهُمْ دُوِّنَتْ في الديوانِ. على شريعتهِ يكتبون ويُّحَبِّرُون وعلى مذهبِ ملوكِهِ يَقْفُو الذينَ يأتونْ. كالنَّهْرِ هو يتدفَّقْ ويُبَدِّلُ مِنْ حوله المعالمَ والأشياءَ ولا يتبدَّلْ. كَمْ مِنْ شَاعِرٍ في وادِيهِ اسْتَحَمَّ واستقى مِن مائِهِ للقريحةِ والراحِلَهْ؛ كَمْ مِنْ قريةٍ مَرَّ منها وأحْيَا خيالها المَوَاتْ؛ كَمْ مِنْ نساءٍ أغراهُنَّ بالخروج عن طاعةِ الطُّغَاةْ؛ كمْ مِنْ

عصْرٍ أَرَّقَهُ سِحْرُ العبارةِ فيه وكَمْ مِن جيشٍ أغراهُ الفُضُولُ الغبيُّ بِقَتْلِهِ في الفلاة. لكنَّ الشِّعْرَ لَم يُقْتَلْ ولم يترجَّل، وَهْوُ باقٍ على عرشهِ مَلِكًا تَدِينُ لَهُ الملوكُ وتَفْتَحُ لموكبه أبوابَ ممالكها وتَسْأَل عمَّا إذا جَازَ لها أن تَخْتَلِسَ من نفيسِ جواهرهِ ما به تتجمَّل.

الشِّعْرُ مذهبُ أهلي ونِحْلَتُهُم، وعادتُهم في الانتجاعِ والرحيلِ وشهوتُهم، وطريقتُهم في الكلام والخصامِ وسيرتُهم، خيْمتُهم وقُوتُهُمْ وماؤُهُمْ وما يبقى لهم بعد أن تتناقصَ الآثار ويندثر دليلُهم. الشعرُ ما ورثْتُ عنهم من متاعِ الدنيا والسَّلَفْ، ما أَقْرَأُ فيه الوصايا والأخبار؛ ما تفيء إليه الروح حين يتلعثم اللسان وتخونُهُ العبارةْ، والشعرُ إمارةْ تَحْرُسُها الجفون. الشعر ملهاتي ومأساتي ومعصيتي التي تسعفني حين أجْحَدُ العقلَ والبرهان ويصيبُني مسٌّ من جنون.

ـ ٤٣ ـ

إنْ كُنْتَ صعلوكًا

وحَطَّ على صدركَ حنينٌ

إلى الصُّراخ،

وَجَدْتَ في عُرْوَةَ الأربْ.

وإنْ شُفيتَ

وحاصركَ السؤالُ المُرُّ

عن الوجود،

أشْعل فيك المَعَرّي الحطبْ.

وإنْ شئتَ الميزانَ في الأحكامِ

والدقَّةَ في الكلامِ،

فالمتنبِّي ميزانُ العربْ.

أمَّا إنْ خشيتَ المجازَ

واختلاط القوافي عليك،

فلا شأنَ لك بالأدبْ.

ـ ٤٤ ـ

مَن يكتبُ شعرًا في الصباحِ يُفْسِدُ يومَهُ ويَفْسُدُ شعْرُهُ أكثرْ. ما كانَ للشعْرِ أن يأتيَ أبْكَرْ قبل أن يَنْضُج فيه أَمْسُهُ ويرتفعَ عن حَدْسِهِ الخُمول. لحكيمِ ألمانيا أن يخُصَّ الفَلسفة بالمساء: تأتي غروبًا بعد أن تَيْنَعَ أغْصَانُها. تلك حرفتُهم في بلاد الجرمان وحرفةُ أجدادهم في اليونان؛ أمّا أنا، فحرفةُ أجداديَ الشعرُ وترتيل البيان. مهنةٌ نُتْقِنُها ونتوارثُها، ونقيم لها الشعائر ونَرْفَعُ الأذانْ. الشعرُ غِنَاؤُنا الرَّعويّ ونحن نَمْضي وراء الأَيَائِلِ والقافلةْ بحثًا في الصحراء التي لا تنتهي عن واحةٍ الروح والجَسْد. الشعرُ حيوانُنَا المنويُّ يُخْصِبُ بلا حسابٍ، وعليه أن ينموَ ببطءٍ وأن يتخمَّر أكثر كي ينتصر الفعلُ على القوةِ ويَنْبَلِجَ الأَبَدْ. لا بأسَ من أن نقرأ شعرًا في الظهيرةِ قبْل خمولِ الطعام في الأمعاء، لكنَّ عَسَلَ الكلامِ مهنةٌ ليليَّةٌ لِمَنْ جرَّبَ في الظلامِ معنى الكلام.

لابدّ مِنْ جوعٍ للسكونِ كي تَهَبَ القصيدةُ نفسَها لكْ. مثل المرأةِ هي: تَدُوسُ على رغبةٍ لا تُنَظِّم لها طقوسَ الوصالِ. القصيدةُ فصْلٌ من قتالِ المعنى مع ما يؤجِّجُهُ وما يُشعِلِ في النفس حروبَ السؤالِ. والقصيدةُ مهلةُ الروح الممنوحة للجسد حتى يَتُوب عن عادةِ الإقامةِ في دهاليز الآخرين ويعود إلى الأنا الموحِشِ في صهيل الخَيَالِ. القصيدةُ سحابَةٌ تَعْبُر في النَّفس، قد تُمْطِر وقد لا تُمْطِر، وعليكَ أن تَعْرِف كيف تجعل السحابةَ غمامةً وتَبْعَثُ في كثافتِها الرغبةَ في التحوُّل وفي التحلُّلِ كي تَسْقيَ المعنى الظامئ إلى ما يجعلُه معنًى. تَمَهَّلْ وأنتَ تقرأ القصيدةَ: ضَعْ جسدَها المُبَلَّل تحت عينيْك؛ تَمَلَّ قليلاً في تقاسيمِهِ؛ امْسَحْهُ بنظرة الباحثِ فيه عمّا لا تراهُ العين ولا تتحَسَّسُهُ اليد. شُمَّ القصيدةَ كما تشُمُّ كأسَ نبيذك. افتحْ جهاز الإصغاء كي تلتقط أصواتَ أنفاسها الداخلية. تَذَوَّقْ طَعْمَها ببطئ ولا تُسْرِف. راودْها على الذي تُخْفي وتُغْلِق، ولا تَيْأَس إنْ أَبَت وتَمَنَّعَتْ، فالقصائدُ نِسْوةٌ يطْمِرْنَ ما يُضْمِرْنَ من أسرار ويُوهِمْنَك بأنَّك وَحْدَك تُشارِكهُنَّ الخلْوَةَ خلفَ السِّتار. ولا تَكْتُبْ شعرًا قبلَ حمَّامِ ماءٍ دافئٍ وإغماضةِ عينٍ في الظلام، فالقصيدة لا تستسلم بين يديك قبل أن تُورِدَ خَيْلَها وتُلقي على اللغةِ تحيةَ السلامْ.

ـ ٤٥ ـ

نَهْرب إلى الشعر كلما ضاقَ بنا الكلامُ. هو الهروبُ الشجاع إذن، تنتصر به على الفراغ وعلى فرارِ المعنى الحارّ مِن بين أصابعكْ. للشّعْرِ مفعولُ السِّحْرِ: يَفْتِنُ أو يَخْتِنُ ما فاضَ عن

حاجة التعبير. والشعرُ أميرٌ يُصَالِحُ بين المرءِ ونفسِه ويُشفي الكتابهْ من مرض الكآبهْ. والشعرُ جديرٌ باسمه حين يتحسَّس الأشياء عن بُعْدٍ فيُلقي السلام على الطبيعة أو يُخَلّص المعنى من قيود الخطابهْ. الشِّعْرُ ملاذٌ آمِنٌ للمتعبين من وعْثَاء السفر الطويل للبحث عن التطابُق المستحيلِ بين الكلمات والأشياء أو للطارئين على لعبة الكنايات في جوف الأسفار القديمة. الشعرُ مهنةٌ عديمةٌ لِمَنْ لا يُتْقِن كيف يؤدي طقوس العبادةِ للأعلى وتقديم الذبائحِ بين قدميْ غجريةٍ راقصَهْ. والشعرُ عاصفَةْ تهزُّ شغف الماءِ للاسترخاءِ في المستنقع. وما اختلفَ الشعراءُ على مهنتهم، لكنهم على وصف ارتعاشة المعنى في الخيال اختلفوا. والمعنى يولَدُ غامضًا ثم تنداح غمامتُه، لكنه بين الولادةِ والكتابةِ يمزّق أشلاءَ قلبٍ يحمله، يُدميه ويؤرقه، ويُرَوِّض الغامض فيه على التبدُّدِ. ما أجْمَل الشعرَ لولا أن قصيدةً في النفس لم تخرج. ما أتْفَهَ الشِّعرَ لولا أنه يَخْنُقُ تَفَاهَةً في الرأسِ تَنْضج.

ـ ٤٦ ـ

كلّما هَمَّ بأن يكتب شعرًا، أُصيبَ بالسأم! الفكرةُ واضحةٌ، والقصيدةُ مخيفةْ، والصُّور تتداعى في الخاطِر ولا تستقر. فَيْضٌ من الرعشةِ ومفردَةٌ سخيفه؛ ماذا يفعل «الشاعرُ» إذن بفكرةٍ تختنق في الرأسِ وفي الرأسِ تصبح جيفَهْ؟ تجربةٌ قَبِيحَهْ أن يكتبَ شعرًا والمِزْودةُ شَحِيحَة. فليقرأ مزيدًا من الشعر عَلَّ عُقْدَتَهُ تَنْحَلُّ واللغةُ ترتاحُ من أصفادها وتُرِيحُهْ.

ويقرأُ، بلا حسابٍ يقرأ، يُلْقي التحيَّةَ على التفاصيلِ ويسكُن

طويلاً إلى الصُّوَر، ثم يوزّعُها على العيْن درجات: ما أوْجَزَ وما أَلْغَزَ، ما بَاحَ وما أشاح، ما سَهُلَ قَضْمُهُ ومَا عَسُرَ هَضْمُهُ، ما انْسَابَ وما تَخَثَّر... إلخ. ويكتشفْ، متأخرًا يكتشف، أنه خارجَ حَرَمِ الشِّعْر يَسْبَح. إنه يفكّر، وهذا يكفي كي تَهْجُرَهُ أسرارُ القصيدةِ وينأى عنهُ الهواءُ النَّقيُّ في رئةِ القريحهْ. «الشاعرُ» تلاحِقُهُ الفضيحهْ، دعيٌّ يقول لنفسه: «مَنْ غيري في هذا الليل يكتب شعرًا» والريشة بين أصابعه عَاقِرٌ وعُجْمَةُ لسانِهِ فصيحَهْ.

- ٤٧ -

للقصيدةِ في الصيفِ مذاقُ العلقم، ثقْلٌ خانقٌ كثقل الرطوبة على الرئتيْن. لابدَّ للقصيدةِ من هواءٍ إلى الإيقاعِ يتسلَّلْ كي يروِّضَهُ على تنظيم معنًى هائمٍ في اللغهْ. لابدَّ من قليلٍ من رحيقِ السماء حتى تَشُمَّ رائحةَ الأرض وتَرْوي عَطَشًا أَشْبَعْتَهُ صيْفًا بالروايهْ. لابدَّ من بدايَةْ لموسم الخيال المؤجَّلِ تحت حصار الشمس والمعذَّبِ في فراغ الروح ممَّا يَمْلَؤُها. وتسألُ نفسَكْ: كيف تخرُجُ القصيدةُ من بطن الصحراء وينضج المعنى في القيظ وتتقاطر الصُّوَر؟ وتقول معزِّيًا: لعلَّ فطاحِلَها شَتَوِيُّونَ يعشقون «السوالف» مثلك في الصيف وتَشُدُّهُم أخبارُ الأوَّلين فيقرؤون ويخزّنون، حتى إذا ما هبَّتْ وأرْعَدَتْ يُصَرِّفونَ ما تجمَّع نَظْمًا ويُرْسِلُون. ولا تدري إن كنتَ أَصبْت، فلا دليلَ لديك على ما تفترض. لعلهم كتبوا في القيظ وانتفضوا؛ لعلهم خبزوا رغيف القصيد وأمسكوا في فصولكْ. ولعل ذلك يعفيك من عبئِ سؤالِكْ عن سرِّ هروب الصُّور مِن خيالك. لو عشِقْتَ الصَّهْدَ

مثلهم لكُنْتَ منهم. لكنك شَتَوِيٌّ، وفي الشتاء يختفي رُسُل الإلهام. فاقْنَع في الختامِ بقسمتك، وانْصَرِف إلى سيرتَك قارئاً يملأ رأسه بالصور ويتعلَّم. وحين يكبُر طموحُهُ للكلام يبوحُ أو يهْذي أو يتلعثم، وقد يقول أيَّ شيء يُدَاهِمُ رأسَهُ من دون أن يَفْهَم.

ـ ٤٨ ـ

لا يَفْهَمُ كثيرًا أمرًا مثيرًا: أن يَقُولَ شِعْرًا ما يُبْطِنُ سِرًّا. يسرح بالخيال إلى البعيد، يُرَكِّب الصُّوَر، يَضَعُ المعاني على جَمْرِ المجرَّدِ؛ وحين تَفُوح الرائحهْ ويَسِيل لُعَابُ القريحَهْ تَخْذِلُهُ الحروفُ والعِبر. يكتبُ ويَمْحُو الذي كَتَبْ، وليس يعلم في نفسه ما السَّبَبْ في انفصال الصورةِ عن مادتها وانقلاب المعنى عن أدواتِهِ. في سريرتهِ ما يَبُوحُ بهِ وعلى البياض البِكْرِ رائحةُ عجْزٍ تَفُوحْ. يَضْحَك من خيبتِهِ ومن جَمْرَتِهِ التي في القلب تَخْبُو. ويخوضُ في بحور الشعر كي يقيس مساحةَ صوتِهِ: الرّجز لا يُعْجِبُهُ، والرّمل يَسْتَثقِلُهُ، فلْيجرِّب الطويل لعلَّ النفس فيه أطْول وجرْس الإيقاع أفضل. ويصْهل في نفسِه كي تتضوّع الحروفُ بعطر الصحراءِ ويَنْقَشع المحجوب. لكن المكتوب يَذْهَل عن طريقةِ الشعراء في إخراج القصيدة من دهاليز العدمْ. ويَسْأَمْ من لعبةِ تركيب الكلامِ على بياضٍ بكْرٍ من وطْءِ القَلَمْ. أيّها الألمْ، اصنَعْ بنفسك ما تشاءُ ولكنْ هيِّئْ مِنّي شاعرًا أو عَنِّيَ فَلْتَرْحَلْ. ويَسْأَلْ: كمْ من الوقت يكفيني حتى يُسْعِفَني لِسَاني فأزوِّجَ المعنى للأجْمَل؟.

حين يكتشف الشعرَ الحُرَّ، تَنْحَلُّ عقدةُ المبنى وقياسات الطُّول، لكنّ إبهام الكتابةِ لا يزول وسِحْر الإيقاع يَكْبَح فيه الغناءَ الطليق والتطاولَ على الأصول. يستحي من نفسه ومن القدماء حين يقول ما يقولُ. يعتذر من المتنبي ويسألُ شِعْرَهُ المغفِرهْ، فالكتابةُ صارتْ ـ يردِّد في نفسه ـ عقوقًا لابدَّ منه، وعلى التمرُّد صارتْ مُجْبَرَهْ. وما أَقْهَرَهْ: هذا الشعور بخيانةِ من تَزَاحَمُوا في رأسِهِ دَهْرًا وصاحَبُوهُ في الليالي المُقْمِرَهْ. عبثًا يُحَاوِل أن ينسى القوالبَ كي يَجِدَ الطريق إلى نفسِه، فيدركُ أن سبيل القصيدةِ مغلَقٌ على القرامطهْ. لابدَّ، إذن، من جُنونٍ يَقْبَلُهُ العقلُ، وصَعْلَكَةٍ تَأنَسُ بها الأخلاقُ، وفوضى يرتضيها النظامُ، ومغامرةٍ تُجيزُها الحكمةُ، وهذيانٍ ينظِّمُهُ اللسانُ، حتى لا تكون القصيدةُ ساقطهْ. لابدَّ للمعنى من التمرُّدِ على المعنى المحذوف، ولابدّ للصورةِ من أن تخرج من زنزانتها وتقول لإيقاعها: كُنْ فيكونْ.

ـ ٤٩ ـ

لا يعيبُ النَّثرَ أن يتنفَّس شعرًا فَيَتَأَثَّلْ، لكن القصيدةَ تضيعُ في المنثور مثلما يَضيع طَعْمُ القُبْلةِ بين عاشقيْن يتكايَدَان. للنَّثرِ مملكةٌ من الفوضى الفسيحةِ وللشِّعرِ خاتَمٌ وصَوْلجان. هل كان الصعاليكُ شعراء؟ كانوا شعراء، لكن التيجانَ حُطَّت على رؤوس غيرهم!

ـ ٥٠ ـ

حين يصبح كُتَّابُ النثرِ شعراء، يتحوَّل الصوفيةُ إلى فقهاء! وحين ينثر الشعراءُ ما عليهم نَظْمُه، يرتّلون على أنفسهم آياتِ

الرِّثاء! ما وَلْوَلَ في المَأْتَمِ غيرُ البَكَّاء، فَماَ بَالُ العَامَّة، إذن، يتقمَّصون أدوار الخطباء؟!

ـ ٥١ ـ

قَرَأَ شيْئًا مُرْسَلًا، لا هُوَ بشعرٍ ولا هو بنثرٍ ولا بأمْرٍ شُبِّهَ له. وحين سألَ عن المسألَهْ، قيلَ لهْ إنها المسألهْ: كيف تنزَع القصيدةُ عن نفسها منوالها كي تعيد اكتساب المنزِلَهْ. وكان يَضْحك في سرِّهِ أو يبكي على انقلاب اللَّغْوِ إلى لغةٍ والنشوة إلى مهزَلَهْ. وقرَّرَ أن يَفْهم لُغْزَ الغرابةِ أكثر، لكنه بدأَ الذي بدأ وما أكْمَلَهْ!

ـ ٥٢ ـ

أوّل ما يشُدُّك إلى امرأةٍ ـ بعد عينيْنِ ـ شَعْرُهَا، وأوّل ما ينبّهك إلى ثقافةٍ ـ بعد لِسانِها ـ شِعْرُها. والأبياتُ كالخصْلات تتدلى من جذع القصيدةِ وهي تتمايل في مِشْيَتِها. وفي كلِّ قصيدةٍ كعبٌ عالٍ يوقّع صوتَ إيقاعِهِ في النفس فتنتشي له طائعةً. ولكلِّ امرأةٍ صدْرٌ وعجز وقافيةٌ، وعليك أن تَزِنَها حتى تَعْرف على أيِّ بَحْرٍ من البحور هي. القصيدةُ امرأةٌ ساحرةٌ، والمرأةُ قصيدةٌ نافرةٌ، وأنتَ بين السيّدتيْنِ فاغرٌ فَاك، تتلظى بشواظ مِشيتيْن تتبادلان الدلالَ في ليلةٍ مُقْمِرَهْ.

ـ ٥٣ ـ

حين يزورُكَ المتنبّيُ ليلاً ويعاتِبُك، تَشْعُر بالخجل. حين يُحاصِرُك الأرقُ فجرًا ويحارِبُك، يَنْهَبُك المَلَل. حين يتسلَّل إليك

دِفْءُ المرأةِ ويداعِبُك، يعتذر الوجل. حين لا تُسْعِفُك الكلماتُ المناسِبات، يَمْرَضُ المعنى في الجُمَل. حينما تكْتُب أيَّ شيءٍ بلا معنى ـ كما تَفْعَلُ الآنَ ـ تَرَيَّث ولا تَرْمي برصيدكَ في الوحل.

ـ ٥٤ ـ

خُذْ قليلاً من مِلْح الكلامِ في الخِتامِ، حين يتسلّل الحنينُ إليك، ودَعْكَ من الباقيهْ. ما ضَرَّك إنْ أضَعْتَ نفسَك في الزِّحامِ، إن كنتَ تَعْلُم أن دليلاً إليك يرقُدُ عند قافيَهْ.

ـ ٥٥ ـ

أسوأُ قرَّاءِ القصيدةِ نُقَّادُها. أن تقرأ قصيدةً هو أن تَسْكُنَ إليها كي تَسْكُن فيك وتَقُوم بينكما المودَّة. مَنْ في رأسِهِ مثال قصيدةٍ فَلْيَكُن شاعرًا أو فَلْيَبْلَع لسانه.

ـ ٥٦ ـ

ما أتعسَ العُمْرَ لولا فسحةُ الشِّعر. هل كان المَعَرّي على خطأ حين يَئِس؟ هو وحدهُ مَنْ جَعَل اليأسَ شعراً فَقَهَرَهُ في ظلمة النفس والعينيْن. يَا رهينَ المَحْبَسْين: متى كان الشِّعرُ غيرَ يأسٍ يؤجِّلُ يأسَهُ بين بيتيْنِ يتواعدانِ على معنى يمنح العبثَ معناه. لعبةٌ لذيذةٌ هو هذا الشعر: مفرداتٌ منتقاةٌ رُصِفَتْ على جانبيْ طريقٍ يَمُرُّ به موكبُ معنًى محمولٍ على أَكُفِّ صُوَرٍ بَهِيَّاتٍ تأخذ الأبصار، والرؤيةُ بالقلب تكون يا أبا العَلَاءِ أو بعينيْن مُسْدَلتيْن تَرَيَانِ ضوءًا خفيًّا. وماذا لو خَلَا الانتظار المُمِضُّ مِن لعبةِ الانتصار على اليأس باللغة؟ من ذا الذي

سينظّم ذاك الفراغَ العظيمَ الذي يُرْهِق الوجود ويُسَاويهِ بالعدم؟ ومَنْ ذا الذي سَيُزَوِّجُ الأملَ للمستحيلِ فَيُرَوِّضُهُ إنْ غابَ الذي يُحَوِّلُ اللغةَ إلى إكسيرِ حياةٍ واللاشيءَ إلى سيِّدِ الأشياء؟ ما ألذَّ بُرْمَكَ بالحياةِ يا رهينَ الَمْحِبَسْينِ لولا أن عتْمةَ عصرنا أكْحَلُ وطَعْمَ يَأْسِنا حنظل!

- ٥٧ -

يجُوزُ في الشِّعْرِ ما يجُوز في السّرّ. لو كان الشعرُ للنُّسَّاكِ وحدهم ما كانتِ التَّقْوى لِتَحيضَ قليلاً كيْ تَدَعَ المرأةَ تقرأُ ألواحَ فِتْنتِها على حروف العربية. الشعرُ مرثيةُ الحقيقةِ الأبديهْ، بيانٌ للنّسبيِّ في الروح والأبْجديَّهْ. لا يُحِلّ حرامًا ولا يُحَرِّمُ حَلالاً، لكنه في الحُلْكَةِ يُهديكَ بُوصَلةً لإدراكِ الفروقِ بين الإيمانِ والعدميهْ.

- ٥٨ -

في زمنٍ مَضَى، كان على الشاعر أن يصطنع قصيدةً سخيفهْ كيْ يمدحَ الخليفَه. من حَلْقِه تطلع الكلماتُ بارداتٍ لا ماءَ في وجْهها وهواؤُها ملوَّثٌ بالدينار؛ إيقاعُها كرْبَاجٌ، وقافيتُها أصفادٌ والعنوان جيفَهْ. وكان على الشاعر أن يُخِيفَهْ ضياعُ وظيفتهِ الشريفهْ كصانعِ معنًى لما ليس له معنى. لكن اقتدارَ الشاعر على تقليب الحالِ سافلٍ على عالٍ، وعلى حمْل الُمَحالْ على مُمْكِنٍ يُنَالْ، ساقهُ إلى بلاط الشّاهْ ليرتّلَ بين يديْه آياتِ الكُفر بالله. أيُّها البائعُ شعرَهُ للهباء، تذكّر أنه سيَهْجُرُكَ الشعراء.

- ٥٩ -

ما حاجةُ المرءِ بقصيدةٍ إن كان سيَرْصُدُ فيها فكرةً. ما حاجةُ المعذَّبِ بكأسِ نبيذٍ إن أَوْقدتْ في رأسهِ جمرةً. يَقْتُل القصيدةَ خطابُها الخارجيُّ وصوتُ جمهورها المرتفع كما يقتل النشوةَ صوتُ واعظٍ مدسوسٍ بين عاشقيْن يستمع. الشعرُ ما نَأى عن غَرَضٍ زائدٍ عنهُ، والصبابَةُ هي هكذا شيءٌ منه.

- ٦٠ -

الشعراءُ أكثرُ عددًا من قرائهم. ما أَوْفَرَ الشعراء، ما أقل القصائد.

- ٦١ -

لكلِّ قصيدةٍ رائحةٌ وأَريج. تَعْرِفُ القصيدةَ من بعيد، تَشُمُّها قبل أن تَمْسَحَها عيناك وتَخِيطَها شَفَتاك ويَرِنَّ صوتُ مَعْدِنِها في سَمْعك. هي مثل دَمْعِك: تخرُجُ حارَّةً ومالحةً وشهيَّةً من شغاف سرِّكْ. كالزهرةِ، كالمرأةِ، كَنَسْمَةٍ مُحَمَّلةٍ برائحةِ الياسمين. تَفُوحُ بداخِلِها الذي تُكِنّ. القصيدةُ ما تَجِنُّ وما يُجِنّ، ما يُعْفِيكَ من نثْرِكَ اليوميِّ ومن يَرَاعِ خَمْرِكْ. القصيدةُ رحيقُ الروحِ يَسْكُبُ شَهْدَهُ على مَسَاءاتٍ تُلْقي التحيَّةَ على بوَّابةِ صدرِكْ.

- ٦٢ -

ما أضاءَ المُعْتِمَ في النفسِ غيرُ شاعرْ. يقولُ الشاعرُ ما يقولُ لنفسهِ، فَيُصيب من قارئِهِ حظًّا مِن شَبَهٍ يَجْعَل منهما توأمَيْن. لو

تَقَمَّص الشاعرُ قَارِءَهُ لَكَسَدَتْ تِجَارَتُهُ. تموتُ القصيدةُ حين تَرْقُدُ في رأسِ قارئِها قبل أن تُولَدَ في رأسِ الشاعر، وأكثرُ قصائدنا كذلك: نقرأُها سَلَفًا فتأتي على لسان قائلها في الغَدِ ثقيلةً كرطوبةِ صيفِ مدينَةٍ على السَّاحل. أيها القائلْ: «أجْمَلُ القصائد ما لم يُكْتَب بعد»، عِمَتَ مساءً يا أيُّها الشاعر.

ـ ٦٣ ـ

يتكاثرون في الليل كالبعوض، ككوابيسِ حُلْمٍ صيفيٍّ تَكْتُبُ أحماضُ الأمعاءِ مَشْهدَهُ. وهذا الليلُ ما أَفْسَدَهُ: يَحْتَلُّهُ صوتُ شُعْرُورٍ مغرورٍ بِبَيْتَيْنِ أفرجَ عنهما إِمْسَاكُهُ. قبل يوميْنِ تَقْرَأُهُ: صدفةً على صفحة الجريدةِ تقرأهُ. بعد يوميْن يَعْتَلي منصَّةَ المسرح كي يَتَجَشَّأَ ما في القصيدةِ. ويا ويْل شعري ما أرى في البريَّة وأسمعُ: بين جريدةٍ ومسرحٍ وشاعرٍ فلا أدْري إن كنتُ أَقْشَعُ فاصلَ الأَلْوَانِ والأَبْوَانِ وأخْشَعُ، ولا أدري إن كان الذي على المنصَّة يتلو علينا ألواحَ جنونِهِ أم تراهُ في التفاهة يَقْبَع؟

ـ ٦٤ ـ

يَقْبَعُ في الجاهليةِ مَن لا يقرأُ شِعرَ الجاهليةْ. جَرِّبْ، لِمَرَّةٍ في العُمْر، أن تكون ببّغاء تستظهر الذي يخاطب الانتباهَ المشدودَ إلى آخِرِهِ كَوَتَر المُحارِب. ستظْفر بهم جميعًا، بالبَعْضِ والكلِّ والآحاد. لا فرق بين أن ينتقش لَبِيدُ في رأسِكَ أو عُروة أوِ ابن كلثومَ أوِ المَلِك القيْسيّ أو عَنْتَرَةْ أوِ ابن أبي سَلْمى والشَّنْفَرَى، لا فَرْقْ. كُنْ سَخِيًّا وابْسُطْ يَدَ الإصغاء، سيكونُ لك مِن النصيب

سقْفٌ من الآجُرِّ يَحْمي الذي على وحْشَتِك يَسَّاقَطُ من الهَبَاء. سيكونُ لكَ شعبٌ من الحروف يُقاتِل في سبيلِ أن تكون الصحراءُ لكَ وحْدَك، وأن تَكُونَ مَلِكًا على عرشِ قوافلها وقوافيها وخليلَ التي تُحِبُّ في خَيْمَتِكْ. جَرِّبْ، لِمَرَّةٍ في خلْوَتك، أن تُعَاقِرَ الذين استوطنوا الماضي وأَنْطَقُوا الصمتَ في بيْداء الكلامِ. جَرِّبْ أن تَنْعَم بالسَّلامِ يومًا تُوَرِّدُ فيه الإبلَ وتَرْقُبُ فيه خوفَ الظِّبَاءِ من جَفَافَ الينابيعِ، وجَرِّبْ أن تَمُرَّ بالتفاصيلِ فَتُحْصيها كما تُحْصِي يومياتِ أَمْسِك. جَرِّبْ أنْ تُرْخِيَ للمعلقات جَدَائِلَ شهوتِكْ كي يَتَسَلَّقَهَا الصعاليكُ إليك فَتَصْحَبُهُم قليلاً أو تُجَادِلُهُمْ في المعنى. خُذِ البعيدَ إلى الأدنى يَا ابْنَ الأبْجَديَّةِ كي تكون جديرًا بنفسكَ، وتَقُولَ لِلَّذينَ خَذَلوكَ ما كان لَكُمْ ما قُلتُمْ وما عَلِمْتُم. الليلُ لكَ كلُّهُ إنْ أَحْسَنْتَهُ والصُّبْحُ فائِضُ وقتٍ ضائعٍ بين رَقْدَتَيْنِ خاملتيْنِ مثل كِنَايَتَيْنِ هائِمَتَيْنِ في قصيدةِ الأَبَديَّهْ. وأنتَ بين فَطَاحلِ الجاهليَّهْ أَصْغرُ ممّا تراهُ العينُ وأكبرُ ممَّا تَألَفُهُ القابِليَّهْ.

ـ ٦٥ ـ

ما قُلْتُ الذي أقولُ

كي يَصْلُبوني على ألواحِ

اللغةِ،

أو يكشفوا عَوْرتي

في الأقبيَهْ.

كنتُ أَلْهُو بما تعلَّمْتُ

في صِبَايَ من كلامِ النَّحْلِ

بين شِعْبِ جَبَلٍ

ومُنْحَدَرِ أوديَهْ.

كان سُعَالِيَ الحادُّ يكفيني

كي أَفْتَرِشَ إسْفَلْتَ روحي

وكي تُعَلِّمَني ذكراي

أنْ أروِّضُ يوميَ

على يومِهِ.

وكان حَمَامِيَ الزاجلُ يكفيني

كي يَحْمِلَ عنِّي بريديَ

إلى عنوانٍ حَسِبْتُهُ

قد ضَاعَ منّي، أو أَضَعْتُه

في هَوَايْ.

وكنتُ أبكي على غَدِي

الذي ودَّعْتُهُ في الأمسِ

كَمَنْ يُغَنِّي شجىً،

أو يُغَرِّدُ وحدَهُ في سِرْبٍ

تَاهَ أميرُهُ

وارْتَحَلَ للبعيد.

وكنتُ أرى نفسي

وحيدًا هناكَ،

وما عَدَايَ يَمْرُقُ

في الذكرى كومضَةٍ

يُخْمِدُهَا نِسْيَانٌ، أو يُوقِدُها

حنينٌ إلى الحِنْطَةِ

في عامِ قَحْطٍ جديدْ.

ما قلتُ الذي قلتُ

في نفسي حتى أنزل

عن صهوة فرسي

وحيدًا في الميدان،

قلتُ الذي أقول

كي أُرَمِّمَ ذكرايْ،

وكي أَطْرُدَ عنّي

شَبَحَ السلطان.

- ٦٦ -

لغْزُ الألغاز في الشِّعْر فَيْضُ الشعراء وندرةُ الشاعرات. صَدْرُ المرأةِ أَجْيَشْ، وعينُها أَمْطَرْ، ولسانُها أَذْلَق، وإحساسُها أَرْهَفْ، وحَدْسُها أَعْرَفْ، وخيالُها أخْصَبْ، وعِشْقُها ألهبْ. لكنها لا تَبُوحُ ولا تَجْهَرْ، وإن بَاحَتْ فَلِوَاحِدٍ لا أكثرْ، وفي فجوةٍ ضيِّقَةٍ بين صمتيْن مديدَيْن. المرأةُ سِّر صعبٌ على الفَرَاسةِ فَكُّه وعلى التبديدِ شِبْهُ مستحيل. فلماذا تُطيلُ السؤال عن الدليلْ ودليلُ المرأةِ صمتُها الطويل؟ إن كنتَ أذْكَى، قرأتَ شِعْرَها في العيونْ حيث لا حروف في اللغةِ ولا استعاراتٍ في انْسِدَالِ الجفون.

حين تكتُبُ المرأةُ القصيدةَ، تتنافَسانِ على لبّك. وتُلْغِزانِ أو تقولان: هيْتَ لَكْ، ما أخْجَلَكْ.

- ٦٧ -

سِرٌّ إلهيٌّ ما يمنَعكَ من أن تكون شاعرًا وأنتَ تعاقِرُ القصيدهْ. كان ينبغي أن تكون ما لا ترغبُ في أن تكونْ. فقد يَهُونُ ذلك عن أن تكون ما أنتَ الآن: تعشق الشعرَ كالمجنون وبين أصابعك ينكسرْ. وأنتَ تنتصرْ على المجهولِ فيك وتَجْدَعُ أنْفَهُ في الليل حين تَخْلو إلى عشيقَةٍ من بيتيْن ومن حكمةٍ أبديَّهْ. وأنت تختصرْ ما أطال الزمانُ من الواقعاتِ في جملةٍ مخمليّة، وتَقُولُ لِلَّتي تُغْوِيك: إليكِ عَنِّي حين أَهِيمُ بغيرِكِ ليلةَ أَطْويكِ في ذكرياتي وأَجَدِّدُ دفاتِرَ يومياتي بين صُبْحٍ وعشيَّهْ. وأنتَ تنتشر في ما يوزِّعُكَ على السَّائب من صُوَرِ الماضي تجيء إليكَ طائعةً عساكَ تدوِّنُها وتعتذرُ. عَمَّ تعتذرُ أيها المسافِرُ إلى غَدِهِ المجهولِ بلا مَرْكَبٍ وبوصَلَةٍ ولا مَنْ

ينتظِرُ؟ ما أصْعَبَ أن تطويَ الماضي وتُغْمِد في الغيابِ هياكلَ مَرْحلهْ. خُذْ بعضَ خَفِيفِ حمْلِكَ معك وأَعِدَّ له المكانَ غدًا لِلتَّسَرّي. خُذْ ديوانَ المَعَرّي أو البُحْتري وما أَسْعَفَكَ من ذكرى حميمَهْ. خُذْ من الماضي قديمَهْ كي تُشْهِدَهُ على وهج الصِّبا في حضرةِ الكُهولَهْ. خُذْ مراسيمَ البطولَهْ في زقاقٍ كنتَ سيِّدَهُ وكان لَكْ. خُذْ مَتَاعَكْ وما نَسِيتَ عند بائعةِ الهوى في الحارهْ، وخُذْ ملعبَكْ في حديقةِ البيت العتيقِ المُقْفَلَهْ وما تركْتَ من الدلائلِ على حبل غسيلٍ فوق سطح بيت الجَارَهْ. خُذْ ممتلكاتِكَ الصغيرةَ من مكانٍ هناك على مقربةٍ من امرأةٍ دثَّرَتْكَ ذاتَ ليلةٍ قربَ شرفَةٍ في الطابق الثالث من العمارهْ. خذْ زادَ يومكَ وابحث لنفسك عن وسيلةٍ أخرى لِتَفُضَّ بريدَ الماضي بهدوءٍ فتعيد تأويل البدايات. خذْ من جدَّتك ما شئتَ من الحكايات حتى يَشِعَّ فيكَ السلامُ وتنتحرَ الاستعارهْ. أيها القابعُ خلفَ صورةٍ لم تتكوَّن في رأسه، لا تتعلّم كثيرًا من الماضي ما سَيَمْحُوهُ غدٌ طائشٌ، فأمامك الآتي أوسعُ من بوّابات الذكرى ويدٌ من البعيدِ تلوِّحُ وأسرارٌ يبدِّدُها أَبَدُ.

ـ ٦٨ ـ

ذهبوا إلى المجهولِ

سواسيَّهْ.

أوَّلُهم قال للريحِ

لا تحمليني على بساط

الأنبياء

قبل أن يَجِفَّ حبرُ دمي

وأعرفَ أيَّ الطرقِ إلى ذكرايَ

أقربْ.

وقال الثاني: ما أضعتُ عنواني

إلّا لأن السماءَ أمسكَتْ

نجومَها عني

وشردتني في الليلةِ

الظَّلْمَاءْ.

وانتحى الثالثُ ركنًا قصيًّا

من الذاكرة كي يضحك

من نفسه التي سلَّمته

للمجهول قربانًا شهيًّا.

باب الياقوت

ـ ٦٩ ـ

أخيرًا، بَاتَ يَعْلَمْ ما كان يَجْهَل: ليستِ المقبرَةُ آخِرَ العالمْ وإنْ هي محطَّةُ الناسِ الأخيرَهْ، وأن وراءَ الأمواتِ أحياءٌ يرقُدون أو ينشرون عاداتِهُمُ الأثيرَهْ: التناسُلَ والصَّبْرَ الجميلَ والجوارَ الطويلَ مع المستحيلْ. كان يَسْأَل: لماذا يتكاثر الموتى، إذن، والناسُ يرحلون؟ في كلِّ يوم جنازةٌ تَمُرُّ ومُشَيِّعُونَ وراءَها يَمْشُون ومقرِئُونَ وشحَّاذون يتزاحمونْ: على الجَنَبَاتِ أو أَمَامًا. مَنْ سيبقى من أهل الحارةِ حيًّا، إذن، بَعْدَ شهرٍ وعَامًا؟ وكان حين يَقْتَرِبُ مِن جَمْعٍ يُحْصِي العدد؛ وقد يُخْطِئُ ويُعيدُ الحساب كي يَطْرَح على أيامِ العامِ عددَ الذاهبين. وكان يُحْصى الجيرانَ والقططَ والمُقْعَدين ويسأل: كيف تَتَّسِعُ الأرضُ لهذا الزِّحامِ البشريّ؟ طَيْفُ الموتِ يُطارِدُهُ ويعذِّبُهُ ويُشَيِّبُهُ فيخشى الاقترابَ من المَقْبَرَهْ. وكلّما نُوديَ عليه لِلَّعِب في ملعب الحيِّ على جوارِها طَلَبَ المغفِرهْ. ماذا يَحْصُل لو وَطِئَتْ قَدَمُهُ قبرًا وداسَ على ترابِ جثَّةٍ راقدهْ؟ لنْ يُحَرِّرَ لَيْلَهُ حينذاك من رُعْبٍ سيزحف على جفنيْن من وراءِ النافذهْ.

- ٧٠ -

كان يَهْوَى حفْظَ الأدعيةِ ونداءاتِ الشحاذين. ويقلّدهم حين يَخْلو إلى جدته، فَتَضْحَكُ من طريقتِه في تقليب العينيْنِ وبَسْطِ اليديْنِ وتَنْهَرُهُ. ويَقْهَرُهُ أن يَمُرَّ بجحافِلهِمْ عاريًا إلّا من فَرَنْكَاتِ اسْفَنْجِ الصباحْ. وكان لا يرتاحْ من تَخَاطُفِهِمْ أقراصَ خُبْزِ المساءِ التي يوزّعها رجال «دار المخزن». كان يَحْزَنْ حين يَقِلُّ المحسِنون ويَغْضَب لِأَتْفَهِ سببٍ يَهُونْ. كان مزاجيًّا ولَمَّا يَبْلُغْ أَشُدَّهْ؛ وكان عاجزًا عن أن يتصوَّر يومهُ من دون جَدَّهْ.

- ٧١ -

بالأنبياءِ والأولياءِ والجِنّ تَمْلأُ الياقوتُ رأسَكْ. ما كنتَ تَطْلُبُ غيرَهُم، فهُمْ أهلُكَ الذينَ اخترتَهُم وارتضيتَهُم ممّا وَرِثتَ عنها وعن شهوتها من ثروتها. كانتْ تريدُكَ كبيرًا، فَرَوَتْ لك سَيرةَ كبارِها. ولقد عَشِقْتَهُم وصَحِبْتَهُم وبُحْتَ لهم في الضَّرَّاءِ بما تُكِنُّ. وكُنتَ حين تَئِنُّ مِن حُزْنٍ ومِن ضَيْمٍ تَسْأَلُهُم أن يَحْرُسوكَ مِنْ عيْنٍ وخَوْفٍ وقَلَقْ، ومِن شَرَهِ الدنيا على نفسها ومِن شَرِّ مَا خَلَقْ. أَحْبَبْتَ عليًّا وفَاطِمَهْ وابنيْنِ منهما نَاجَيْتَهُمَا وما كنتَ تدري لِمَ يحملون في نفسها أرْفَعَ الأوسمهْ. ولم تَكُنْ حصَّةُ أبي العباس (السبتي) أقلّ، وإنْ ما كانتْ سُمْعتُهُ في مملكةِ أوليائها أجَلّ. لكنك قلتَ في نفسك إنّه أقرب «الشفعاء» إليك ولو أن هِلاَلَهُ في غير أهل النبي هَلّ. وكنتَ تخشى الجنَّ في الليلْ وتشتري سَلاَمَهُم ببعض التعاويذ: تارةً بعد ركعتين، وأخرى مُسْدَلَ العينيْن. تقولُ لكْ: لا تَخَفْ واقْرَأِ الفاتِحَهْ كي

يَعْظُم قَدْرُك ويكون لك السلاحْ؛ وإن خَشِيتَ أكثر، فآيةُ الكرسيِّ تَطْرُدُ عنك الأشباح. تَرُدُّ عليها مِن قاعِ خوفِكْ: جدّتي احْرُسيني في جوفِك وامنحيني أَمَانَكِ بعضَ وقتٍ قليلٍ حتى الصباح.

- ٧٢ -

في الصَّباح تَجُبُّ رُعْبَ الليل، تَحْرنُ كالخَيْل، وتَمْسَحُ الأهوالَ باحثًا عن يومٍ طائعٍ لبطولةٍ مُتَخَيَّلَهْ. كأنك فارسٌ من حِمْيَرَ التي من زمنٍ قريبٍ تسكنك، منذ عرفتَ - بصوت الجنديَّ - سيْفَ بنَ ذي يزن. كأنَّك الموجُ الذي يَصُبُّ في بَحْرٍ لا أوَّلَ لَهْ. خَدينُ أسرارٍ أنتَ وحمْلُكَ للوهْم ما أَثْقَلَهْ، فأنتَ تارةً مِنْ آلِ البيتِ وتارةً أنت جُنْدُبٌ أنهاهُ الزمانُ زمانًا ثم أَمْهَلَهْ.

- ٧٣ -

الياقوتُ تقول لَهْ: اكذبْ على مَنْ تشاء من نساءِ البيت ولا تكذب عليّ، وإنْ شِئْتَ سلامةَ رأسِكَ الصغيرَ فلا تكذب. ويَكْذبُ عليها وعلى الجالساتِ متحلِّقاتٍ حول صينيَّة قهوة المساء في صحن الدار. يفتعل الشّجار كي يهرب من أسئلةٍ خصوصيهْ. يلوذ بالغرفة والكتاب في انتظار عشائه السريع والفُرْجة على المسلسلات اللبنانيةْ. يتابع «التائهَ» و«عازفَ الليل» مثلما يتابع تدفُّق جبران والمتنبي. تسكنه صورةُ محمود سعيد ووفاء طربيه وهند أبي اللمع كأبطال شكسبير ويعرف تفاصيل حياتهم كالخبير. وحين يُسْدِل الليلُ ستارَه، يعيد على الياقوت ما

رأى ويسألها المغفرهْ عن كذْبةٍ مُنْكَرَهْ. تضحك في سفورٍ وتصدّقُهُ قبل أن تطلب منه حِلْفَ اليمين: يُقْسِمُ ويقرأ الفاتحة في نفسه أحد عشر مرةً للتكفير. . .

ـ ٧٤ ـ

لا مقامٌ يَطيب لها وهو عنها بعيد. تزورُ ابنتَها الثانيةَ لأيام فتقطع الزيارة بعد سحابة أسبوع. تعودُ إلى حفيدِها وعن غيره لا تسأل. لها من الأحفاد ثلاثة عشر، لكنه الأدْلَلْ. وإنَّ له من الأمهات اثنتيْن غيرها، ومن الأخوات والإخوة عشرًا، لكنها وحدها الأحَرُّ فيهم: سرًّا في القلب وفي اللسان جَهْرًا. وحين تسافر إلى حفيدتها من ابنها تصحبه لأن سفرتَها ستطول وصبْرُها عنه لا يَطُول. وكان يقولُ: إنْ لم يكن لي في الدنيا غيرها، فأنا غنيٌّ بها عن الدنيا. وكانت تقولُ: إن لم تنجب بنتي غيرَهُ لأعفيْتُها عن السؤال عن غيره. هكذا كانا يفهمان بعضهما ويتناجيان بصمت.

الياقوتُ دولتُه وجيشُه وإذاعتُه. شريعتُها شريعتُه، وتعاويذُها مدافع تَدُك حصون الشيطان والجانِ في ليلهِ، وخرافاتُها تملأ الخيالَ وتصقل الوجدان. لكنها تَرْقُبُه كثيرًا وتُحَاسِبُه وتلاحِقُهُ بالتحقيق كأنها شرطتُهُ.

ـ ٧٥ ـ

بين امرأتيْنِ ترتديان الليل، يمارس عادتَهُ في التلصُّص على معدَّلِ الرجولةِ. يقِيسُ الفارقَ بين أمسٍ ويَوْمِهِ مثلما يراقب أرنَبَهُ

الصغيرةَ تنمو في حديقةِ البيت. تقول له الياقوت: اخجل ممّا تَفْعل. يَغْرَقُ في العرق وتُضْرِب الدموعُ في مقلتَيْه وعن عينيْها يحترف الاختفاء. يغادر الحارة إلى بيت أمِّهِ يومين أو ثلاثة، لكنها تَتْبَعُه وتعاتبُه وتَصْفَح. هي هكذا لا تَبْرَح طريقَتَها في رياضةِ رأسِهِ الصغير على عاداتها التي تقدِّسُها أو تدوسُها عند الضرورهْ. هي سيدتُه المشهوره في نفسِه، هي الصبورةُ عليه حين يختلط يومُه بأمسه. لكنها تمنعه من أن يقيس الرجولهْ... خوفًا عليه من أعباء الرجولهْ.

ـ ٧٦ ـ

في المساءِ القريبِ من أَمْسكَ أغنيةٌ ترميكَ إلى ذكرىً قديمَهْ: طفلاً كنتَ تَلْهُو بالمكانِ المُطْلَقِ ويلهو بكَ الزمانُ، وأنت تَسْهو أو تَرْنُو إلى كلماتِ امرأةٍ حميمَهْ. كان الذي فيكَ لا يطيق التصديقَ أن أبطالَ جدَّتك من ورقٍ دقيقٍ، وأنَّ لوجْبَةِ اعتكافِكَ اليوميِّ فائدةً عديمَهْ. لم تكن واقعيًّا على رغم نصائحِ أمِّك، وما رَتَّل العارفونَ بوهمكَ من الأهل والجيرانِ من رسوم الحقيقَهْ. وحدها جدَّتُكَ في الليل صدَّقْتَها حين رَوَتْ ما رَوَتْهُ وكانت لكَ زادَ سَفَرٍ ومذهبًا وطريقَهْ. يتكاثر الآخرون أمامَكَ كنجومِ السماءِ ليلاً، لكنهم عنكَ يَخْتَفُون حين تريدُهُم بقُربِكْ مثلما يختفي في ليلة عرسٍ وجْهُ العشيقَهْ. وأنتَ، المدجَّجُ بحِكمتها وبَسْمَتِها، تقول في نفسك: ليتَكِ جدَّتي كنتِ مدرستي الوحيدةَ في يومي فَلَا تُفَارقيني ساعةَ نَحْسٍ أو دقيقَهْ.

كم مرَّة داهمَهُ السؤال الأنْكَر: ماذا لو أخذها القدر إلى المقبرَهْ كجاراتٍ فُقِدْنَ سحابةَ يوم بين أذانِ فَجْرٍ وظُهْرٍ يومٍ تَخَيَّر الموتُ فيه من الحيِّ أخْيَرَه؟ يدفن السؤال تحت تراب صدره لئلَّا تنبعث منه رائحةُ الإمكان، يُتْقِن الإدمان على الهروب المنظَّم من أسئلةٍ في النفس مُضْمَرَهْ، ويَعُوذُ بربِّه من وسواس خاطرةٍ تباغِتُهُ وهو يرتِّب لِغَدِهِ مَنْظَرَهْ. فلقد أجْبَرَهْ حبُّ الياقوت على حمايتها منهُ حين يَعْلَم الذي ينبغي أن يعلم، ولقد أنذرَهْ خوفٌ غَريزيٌّ من قادمٍ أرعَدَ في السماء وفي الليلِ أَمْطَرَهْ.

باب تَاغْزُوت

ـ ٧٨ ـ

تُسَلِّمُ، بعد لَأْيٍ، أن لينين ما كان أَوْسعَ شعبيةً ولا أعظمَ مَهابةً من أبي العبّاس السَّبتي. أمامَكَ الشحّاذون والعُميان والمُقْعَدون: اسألْهُمْ في الأمر إن ساورتْكَ الظنون. بجحافِلِهم تَمُرُّ في الصَّباح، وفي المساءِ حول الضريحِ تَرَاهُمْ يتحلّقون. تَعَوَّدْتَ أن تُحَرِّرَ شعورَكَ بالرأفة نحوهُمْ مِن ضَعْفه الإنساني. وفي نفسكَ كنتَ تقولُ: هؤلاء عنواني، وحصّتي من شعبٍ قديمٍ ورثْتُهُ عن أهلي في مكاني. وكنتَ تَعْجَب من أمْرِ ذلك الراقد تحت القُبَّة الخضراء وتسألُ: هل كان يدري أن الفقراء أكثر وفاءً ممّا يظن؟ يرفعُ الفقراء أهْلَ الكراماتِ إلى أعلى، ويرفعون الأكفَّ إلى السماء ويرتّلون ما تقول السماءُ لشعبها. وأنت أيّها الراقد بينهم في مساحةٍ بين الساحةِ والمقبرةِ القديمةِ لا تسمعهم، لكنك تَعْرف أنهم يرسلون إلى الأعلى رسائِلَهم، وأنهم قد يحملون الألم إليك يومًا عساك تَمْسَحْهُ بشفاعةٍ سحرية ينْشقُّ لها الفضاء فتنزل على جراحهم قطرات الرحمة من هناك. ما كان أبْغَض الوسطاء والشفعاء عندك يا وليَّ التوحيد، لكن الفقراء انتصروا عليك وأنزلوكَ شفيعًا، وأَوْثَقُوا على شبابيك ضريحِك ما عَقَدُوهُ كي

تَحُلّه. فاغفِرْ لهم طيبوبتَهم واغْضِ عنهم، فأولاءِ شيعتُك وحزبُك، وأنت زعيمُهم في الغيابْ، وحزبُك في هذه الأرض الصغيرةِ أكبرُ الأحزاب: يَعْمُر عمرانُه حين يصيبها القحط ويغشاها الخراب.

- ٧٩ -

يُرْهِقُهُ كثيرًا أن الفقراء يجهلون طريقَهم وأنّ الأشياءَ تُنَظِّمُها يَدُ الفوضى. ربما تكُونُ الصدفةُ قانونًا، ربّما يكُون الجَهْلُ أَفْسَدْ؛ لكنّ الأوْكَدْ أن الفوضى ذاهبةٌ إلى حتْفها غدًا إذا انْدَاحَ الصَّمت. الفقراءُ وحْدَهم يخسرونَ لأنهم يجهلونَ ما يَعْلَم، وهو يَعْلَم ما لا يعلمون: يَعْلَم أنهم لو عَلِمُوا بعضَ ما يَعْلَم لَوَدَّعوا بُؤسَهُم إلى الأبدْ، ولَبَدَّدوا يَأسَهُمْ شَرَّ بَدَدْ. شيءٌ قليلٌ يَمْنَعُهُم عن غَدِهِم: أنهم لا يعرفون الحقيقَهْ، وبينهم والحقيقة شِبْرٌ واحدٌ من حركَهْ، وهُمْ مُقْعَدون أو مكفوفون أو على سطح الأشياء يتحركون حين يشمُّون رائحة خبز المساء المحمول في سيارات «دار المخزن». وكان المساءُ في نفسِه أحْزَن كلما رَآهُمْ يتسابقون على أقراص الخُبز في باحة الضريح. لو جَاعُوا الليلةَ كان أحسن. مَن يدري، ربما فكروا في غدهِمْ أفضل، ربما صار المستحيل عندهُمْ أَنْيَلْ. وكان يقلّب في رأسه الأسئلة كَمَنْ يُقَلّب الجَمْرَات بين كثبان الرَّماد في الكانونْ. وكان كالمجنونْ يغيّر الدلالةَ والجِهات باحثًا في فوضى الفضاءِ عن قانون يُرْشِدُهُ إلى فَهْم النازلهْ. وكانتِ الأسئِلَهْ على رأسه تتراكَمُ كالحشراتِ بين فراشِ النّوم والطاولهْ، فيرفَعُ رأسَهُ الصغيرَ لشيخه الألماني عساهُ يُجيبْ، فلا يأتيه غير صدى النداء العميق فيه بعيدًا كَصُنُوجِ

إعلانِ الموتِ أو قريبًا كأذانِ المَغيبِ، ويصْرُخ فيه الذي في أوقات الشدَّةِ يعتريه: شُدَّني إنْ كنت مِنّي أو إليكَ عنّي يا قريب.

- ٨٠ -

الغربةُ في الحَيِّ من الغربةِ عن الحيِّ أقسى. ما أَلَذَّ الهروبَ من مكانٍ تَضِيقُ به وبك يَضيقُ كي ينبعث المعنى فيك من جديد. لا الأصدقاءُ القدامى تُطيقهم ولا دفءُ البيت وحديثُ الجَدَّةِ يُغريك، ولا الذكرياتُ الماضياتُ في الليلة الباردة الظَّلماء تُدْفيك. فما الذي، إذن، يُبْقِيك جاثمًا كالصَّنم بين هذه الحيطان في المدينةِ العتيقهْ؟ شيءٌ ما فيكَ يتغيَّر أو يتصيَّر وأنتَ عن أُفُولِهِ راضٍ، فاذْهَبْ بعيدًا قليلاً عنك كي تُصَحِّحَ عثرةَ المألوف في يوملٍَ وتُوقِدَ الشمعدانْ. يومٌ، يومانِ، يُبْقيانِ على الذي يَهْرُب من سرِّكَ في العتمة ويُتَوِّجَان مهرجان الأسئلة. كيلومتران بعيدًا عن مكانِكَ يكفيان كي تعيد بناء صلحكَ مع الأشياءِ والأمكنة. لا تُطِل بَقَاءَكَ في ما يُغْنِيك عنْك، فأنت لِنَفْسِكَ أبْقَى وإن جَحَدَتْكَ نفسُك وأرْخَتْ أَزِمَّتها للمألوف. أيها المحذوفُ من قائمة الاطمئنان: خُذْ نفسَك وارْحَل: عنْكَ ارْحَل، وعن أهلكَ الأقربينَ والحيِّ وعن الأجمل من بنات الجيران والحَمَام. سوف تُصَادف ناسًا آخرين وترتجل السلام على الزمن الأوَّلْ. ارحلْ، ولا تأخذ شيئًا ممَّا كان لك غيرَ قصيدةٍ كتبتَها أمس وقلادةٍ عليها رَسْمُ مِطْرَقةٍ ومِنْجَل.

ويَرْحَل، إلى بعيدِ الزمان يرحَل، إلى قريب المكان يرحَلْ. مائتَا عام ومائتا متر تكفيان كي يغادرَ عصرهُ والحيّ، كي يُبَدِّلَ الذي ما تَبَدَّلْ. مائتا مترٍ تكفيه كي يكتشف البلد خارجَ زنزانة

النصّ، كي يبوحَ الجَسَدُ بما يُعَذِّبُهُ. شمعتانِ ونَهْدانِ يُتَوِّجَانِ الليل خارجَ الحَيّ. هو اللحم الحيّ ينبض بين يديْه خارجَ الصُّوَر، هو لعبَةُ الخيالِ الشَّريدِ وقد تَرَجَّلْ فأطلقَ في النَّفس دِفئًا واقعيًّا كَدِفْءِ الشمس في الصباحات الشِّتَوِيَّة. أيتُها الأنامِل المخمليَّةْ: ماذا فَعَلْتِ الليلةَ بصبيٍّ خارجٍ من فُوَّهَةِ قصيدةٍ غزليَّةْ؟ هل كانت ظفيرةُ شَعْرِها الطويل غيرَ مُعَلَّقَةٍ مِن حصادِ الجاهليَّةْ أو حبلَ مشنقَةٍ قصيرٍ لشنق «البروليتارِيّ» الصّغير؟ ويرحلُ قليلاً عن خَجَلٍ لَازَمَهُ طويلاً، ويستغرب في نفسِه كيف يَهْجُرُ الخوفَ قبل الخجل، كيف تكونُ نظرةُ المرأةِ أَحَدَّ من نظرةِ المُخْبِرِ وأرْعَبْ؛ كيف يكونُ أقربْ إلى حريقِ أنفاسِها ومِنْ قُرمُزِيِّ العينيْن أَهْرَبْ. ما أصعبَ أن يستسلم الرأسُ لنداءٍ فيه يَصْخبْ، وما أطيبْ ليلاً طويلاً تَحْتَلُّه الأحلام وتَنْهَبْ. ويَطْرَبْ لغدِهِ المليءِ بالأحداث: مِن فتح إيلياءْ إلى سقوط قصر الشتاءْ. ويرحلْ إلى تاريخ مَن صنعوا التاريخ، يُصَادِقُهم، ينادِمُهم، يؤدّي اليمينَ أمامهم بأن يكون ما شاءوا لَهُ أن يكون. ويرحل قليلاً عن حيِّهِ كي يرحَل الحيُّ عنه قليلاً فيكون.

ـ ٨١ ـ

لسببٍ يعرفُهُ، انقلبَ الضريحُ إلى ضِدِّهِ وباتَ يُقْرِفُهُ: من قَبْرِ رَجُلٍ مضى إلى مقبرةٍ لأهلِ الحيّ، المُقْعَدُ منهم والرَّاجلُ، الكفيفُ والبصَّاص. جميعًا حُشِروا في ذلك المكان الموحِشِ المُخِيف. كم كان يَطيب لهُ التلذُّذ بذلك الشعور اللطيف وهو يَمْضي في خشوع إلى مقام السّيِّد بعد تأديةِ واجبِ الوضوء من

نافورةِ الصحن والطَّأْطَأةِ أمام الحَضْرَةِ الخضراء. كَمْ أَخَذَتْهُ السّجّادَةُ إلى البعيد محمولاً على صلوات لا تنتهي. كم كان يشتهي شفاعة الراقد تحت القبّةِ أمام الله كي يغفر للطفل الصغير ذنوبَهُ: هيامَهُ ببنات الجارةِ وخداعَهُ للمعلّم والكذبَ على الجدَّةِ. كان لا يُخْطِئ موعدَهُ مع الجماعةِ؛ يَخِفُّ إلى صَحْنِ الضريح والخَطْوُ على أصابع القدميْن يكادُ لا يلْمَسُ الأرض التي تخبِّئ تحتها سرًّا أبيضَ سماويًّا. قيل لَهُ مَالِكٌ كان يَفْعَل ذلك في المدينةِ، فَلِمَ لا يَفْعَل من قبيل احتذاءِ القُدْوةِ؟ ليس يدري لماذا كان الوليُّ في رأسه أبيضَ البشرةِ كصورةِ جدِّهِ لأمِّهِ المعلَّقة على جدار الغرفةِ. وحين يُنَادَى للصَّلاةِ، يَزَّاحَمُ على الصَّفِّ الأوّلِ ويغْلِبُهُ الزِّحامُ فيَرْضَى بما يَرْضى به في الختامَ: تقبيلَ يَدِ الإمام.

ما كان أبقاكَ أيها الضريح غير هذا الزمنِ القبيح: صَارَ يقولُ. وكان يكفيه أن يَمُرَّ بقربه حتى يَفيض غَيْظًا من مشهد القرفُصاء. ماذا يفعل الجاثمون هناك على باب المسجد؟ كالقطط على حامِلٍ فضلات الطعام تَحُومُ وتَكْسِرُ الصمتَ بالمُواء يفعلون. ويزدادُ غيظًا حين يراهم يتسابقون إلى الْتِقَاطِ فُتَات الأغنياء. أيها الأشقياء، أفيقوا من غيبوبة الفاقةِ وعويلِ الأمعاء وتنصَّلوا من صورتكم قليلاً كي تُعْفُونَا من قصيدةِ رثاء.

ـ ٨٢ ـ

ما أغْربَ هذا الحيَّ مِن المدينةِ الغريبة. تبحث عن أيّ شيءٍ لِتَجِدَ كلَّ شيء: السُّفُورَ والحِجابْ، العطورَ والذُّباب، الرِّياض والخِرَابْ، النِّعاجَ والذئابْ. في كلِّ دربٍ بُغْيَةٌ وسَرابْ: اِمرأةٌ

للإغْراءِ وأَذانُ صلاةٍ مُسْتَجَابْ. وفي سوق أربعاءِ الحيِّ بينَ يديْكَ ما لَذَّ وطَابْ: ثيابُ العيدِ، ونُبُوءَةُ العرَّافةِ الَّلذيذةُ، وروايات الحكواتي، وحَلْوَاءُ تُسِيلُ الُّلعابْ. في الحيّ ما تشتهي: الدُّعاةُ والنُّدماءُ والسُّمَّار، وأغنيةٌ في أصواتِ مُقرئينَ لا تنتهي. هناك لا تصدِّقُ ما تراهُ العينْ: ضريحٌ ينشُر عُرْفَهُ في أرجاء المكان وخَمرةٌ مُخزَّنَةٌ على أطراف الليل. وفي «الزَّاويَهْ»، لا تَعْرِفُ الطريقَ إلى الهاويَهْ. تَدخُل مِن «باب تاغْزوت» مُحَاطًا بأطراف الشِّيَاهِ المعلَّقَةِ على سنانِ الحديد وبأصوات باعةٍ أضاعوا يومَهُم في الصراخ على المستحيل. ماذا تُراه يُخَبِّئُ ليلُهم من أحزان اليوم الفَليل؟ تَدْلُفُ يمينًا إلى «المْجَاذْلِيَّه»؛ لَمْ يَبْق من رائحةِ الجلودِ فيها غير رائحةِ جلودٍ آدمية فاضَ العَظْمُ عنها مِنْ شقاءٍ، ومِنْ بلاءٍ ضاعتْ من سيرتِها الحروفُ الأبجديَّهْ. تنعطف يسارًا على طريقٍ تَمْلَؤُهُ الشموع وتَحْتلُّهُ روائِحُ الكِيفِ وعيونٌ تَمْسَحُكَ من فوقٍ لِتَحْتٍ وتُحْصي خطواتكَ نحو الضريحْ. وفي الفسحةِ بين المسجدِ والسَّيِّدِ ساحةٌ مترعة بالذي لا يُحَدّ: الكفيفُ، والمُقْعَدُ، والشَّحَّاذُ، والمُشَعْوِذُ، والمُقْرِئُ، وبائعةُ الهوى، والنشَّالُ، والقَوَّادُ، والشَّابُّ الذي ينتظرُ عشيقَتَهُ، وصريرُ بوَّاباتِ الآوينَ إلى حِمَى سيِّدِهِمْ مِنْ لسعةِ الزمانِ: بحثًا عن رغيفِ عَزَّ أو طمعًا في أمانْ. لا شيءَ في هذا المكانِ يأْخذُكَ إلى المكان. هو المُطْلَقُ في فضاءٍ ضَيِّقٍ تُسَيِّجُه الحيطان. هو المدى المفتوحُ لشعبٍ صغيرٍ من الدِّيدان. هو الذي تراهُ في ما يَرَى اليَقْظَان: هو المهرجانُ في عنفوان، هو الدمعةُ في الشَّمْعَدَان، هو طلاءُ الليلِ على الجدران، هو الأملُ باحثًا عن يَأْسَان، هو اليأس زاحفًا

كأفْعُوَان. هو العنوانْ والزمنُ الذي كانْ. هو الطفولةُ، والرجولةُ، والكهولةُ، وهو الماضي يُنادي فيرتدُّ الصدى الآن. أيها المكان، عُدْ إلى مكانِكَ والزمانْ، ودُلَّني عليكَ مرَّةً أخرى كي لا تَضيع منّي ثانيةً ويَلُفَّ ذكراكَ النسيان.

ـ ٨٣ ـ

ما تَخَيَّلْتَ أن يكونَ للسياسةِ مكانٌ في هذا الحيّ، أو أن تَحُجَّ فيه الناس لغيرِ سيِّدِ الضريح. لكنَّ أَتْرَابَكَ حدَّثوكَ عن كائنات أخرى تشبه الجنّ: تختفي في الضوءِ وتنبعث في عتمة الليل أو حين لا يَنْدَسُّ شعاعٌ بين خِلَالِ النافذهْ. أدركَتْ تَوًّا أنهم لا يُشْبِهُون أولئك الذينَ يتبرَّجونَ على الجدران وتملأ صُوَرُهُم حيطانَ الحارةِ والميدان. كمْ كَرِهْتَ ابتساماتِهِمُ البَلْهَاءَ وأناقتَهم الْمُصْطَنَعة؛ مثل بَبَّغَاواتٍ رَطيناتٍ بَدوْا لَكَ، كَقِطَطٍ عجفاواتٍ تَمُوءَ حولَ المائدهْ. وما الفائدة ـ تقول في نفسك ـ في أن تكون السياسةُ فصلاً في كتاب التجارهْ؟ وما الفارق ـ عند مَن تَضيق بهم ـ بين الخطابة والدعارهْ؟ تُخْلِي سبيلَ رأسك كي يتخيَّل غيرَهم ممَّن وصلتْكَ رياحُ صِيتِهِم وأغراكَ خَدَرُ أسماءِ مَنْ ذكروا لَكَ في قليلٍ من العباره. يُغويكَ أن تَرَاهُم، لكنك تخشاهُمْ وتَخْشى أكثر أن تَخُونَكَ الجَدَاره. وتَسْأَلُ صَحْبَكَ: مِنْ أين الطريقُ إليهم؟ فتأتيكَ أجوبةٌ طائشة كرصاصٍ جُنَّ في حربٍ مستعارهْ بين جيشيْن مُدَجَّجيْن بالماضي. ولكنك لَسْتَ عن نَفْسِكَ راضٍ حتّى تَرَى نصًّا قَرَأْتَهُ يمشي على قدميْن بلا حُرَّاس. كذلك قال إمامُ الكادحين في بلاد البلاشفة وتعلَّم من حكمتة الناس.

أيها الوسواس: امْنَحْه بعضَ رَيْثٍ حتى يهتدي إلى ما ليس يَعْرِف، فقد يَطُول سؤالُهُ وتَطُول رحلتُه، وقد يَخِيبُ بحثٌ ويَعْثِرُ حظٌّ فَيَرْتَدُّ عنه الطلبُ وعن المزيد يَعْزف.

ـ ٨٤ ـ

بين الأغنياءِ والفقراءِ في الحيِّ عَقْدٌ فريدْ: بعضُ ما فاضَ من الحِنْطَةِ والكِسْوَةِ والمَتَاع، وأكُفٌّ وألسنةٌ تَضْرع وتدعو بالمزيدْ. لا فقيرَ اغْتَنَى في هذا المكان، ولا غنيَّ جَارَ عليه فيه الزمان. يتعادل الفريقانِ في النَّصيبْ، وكلٌّ ممَّا رُزِقَ الثاني لا يَخِيبْ. كأنهما توأمان للمعنى الواحدِ في الوجود: لا شيء يُحْفِظُ نفسًا أو يُكْبِرُ أخرى أو يوزّعهما على الحدود. قبيلتانِ اثنتان أو طبقتان أو جَيْشانِ لا يشتبكان، فبأيِّ دليلٍ، إذن، تكذِّبان؟ إنْ زرْتَ أبا العبَّاسْ، وجَدْتَهُما معًا يتقاسمان الكلام والرغيف. وإنْ داهمتْهُما الأحزانُ يومًا وكان كرْبٌ أو فِقْدان، خِلْتَ ما بينهما أوثق من عُرْوةِ الإخْوان. أين العُلُوُّ والزِّرايَةُ والهوانُ، إذن، وأين الحِقْدُ وشهوةُ العِصْيان؟ وأين صراعُكَ الطبقيُّ أيها الرأسُ الصغيرُ المحاصَرُ بالنصوص والمُدَجَّجُ بِ «البيان»؟ وماذا أبانَ بيانُكَ الشيوعيُّ من غموض التعايُشِ بين الحصيرِ والحريرِ، وبين الفائض والحِرمان؟ في الحيِّ صُلْحٌ أَبَديٌّ بين الجياع والمُتْرَفين، فماذا أَعْدَدْتَ للنازلة من أسئلةٍ إذن، وماذا أنتَ أمام شِدَّتها من الفاعلين؟ هلَّا سألْتَ أَهْلَ الحيِّ يا ابْنَ النصوص عمَّا لستَ تَعْلَم أو تَفْهَم من أيامهم عسى اللسان يُفْصِح عَمَّا استعْجَمَهُ «البيان». وقد تَرْكَبُ رأسك

ثانيةً فَتُرَاجِعُ الألمانيَّ المُلْتَحِي في المسألَهْ، وتُفْلِي بيانَهُ سطرًا سطرا باحثًا عن جوابٍ للمعضِلَهْ، فالعلمُ عندهُ والشكُّ فيه هو المَهْزلَهْ، مَصْيَدَةٌ تُوقِعُ فيها ظواهرُ الأشياءِ والواقعُ مَزْبَلَهْ. وتَقُول إن التاريخ يُصْنَعُ مِن عَرَقٍ وتكرِّرُ ما تقولُ حتى لا تَهْزِمَ يقينَك الأسئِلَهْ. في الحيِّ صُلْحٌ بين الذين يملكون والذين لا يملكون، لكنك ترمي برأسكَ الصغيرِ، يا صغيري، إلى المِقْصَلَه.

ـ ٨٥ ـ

أكثرُ الناس، في سِيدي بَلْعَبَّاس، يعيشون على الضريح. لا اقتصاد ولا تجارة غير ما تَجُودُ به القُبَّة الخضراء أو تَعْقِدُ له الأسواق. ما أكثر ما ضاق العالَمُ هنا وما أكثر ما القلبُ ضاقْ: من حظٍّ قليلٍ في الحياةِ ومِن شدَّةِ الإملاق. وما أقلّ البضائع بين أيدي الباعةِ والزُّوار: شَمْعٌ وبَخُورٌ وتينٌ وحلْوىً للذباب وأقْفالٌ للشبابيكِ ومصاحِفُ صغيرةٌ وكتيِّبَاتٌ للأدعيةِ والأذكار، وما تَبَقَّى من المكان دكاكين متفرقة للمعلّبات والخضار. على الجنبات يتوزّع الشحاذون ويتكاثرون حول المزار كالحشرات ويَضيق بهِمُ العُميان والمُقْعَدون فَتندلع المشاجرات: «هذا الحيُّ لنا ومِن وهب سيِّدنا الذي بيننا في الضريح يُقيم، فَمَنْ أتى بكم إلينا كي تنازِعونَا مالَنَا وحدنَا دون سِوَانا وتُحوِّلوا رزقنا الموقوفَ إلى حقٍّ عَميم»؟ ويتعوَّذ الشحاذون من شرِّ عيونٍ لا تُبْصِرُ ومن صَلَفِ العاجزين. وتشتعل حروب اللسان البذيئةِ بين قبائل المتسوّلين عمَّن يملك الحقّ في بركات الزائرين. يتفرَّج الصغار عليهم ويضحكون، يؤجِّجون القتال بينهم وعلى المزيد يتواطأون. وفي

أيام العيد، يشاركونهم لعبةَ التسوّل كي يستفيدوا من فائض المحسنين. هكذا أيام أهل الحي مع الندرة والشظف تمضي وأحوالهم تكرّ وتقضي مقاديرها.

في الأربعاء، على مدخل الحيّ، في ساحة «باب تاغزوت»، تقوم القيامةْ. يومُ حشْرٍ هذا اليومُ الذي يَطُولُ قبل أن يَبْلُغَ عند المغيبِ خِتامَهْ. هناك تكتشف تجاراتٍ أخرى للروح والجَسَد: مِنَ الأَلْدُونِ والتعاويذِ والحِرْزِ الأمينِ حتى زَغَبِ الفَأْرِ «اليتيم» المُعَدِّ لتحسينِ المَنَامَهْ؛ ولا بَأسَ مِن خَلْطَةِ عطَّارْ تُغْنِي الزوجَ عن التحديقِ في زوجة الجارْ. ما أغربَ ما يُصَادِفُ البصرُ في هذا النهار: المساوماتُ التي لا تنتهي بين النساءِ والباعةْ، والمشاجراتُ التي تبدأ بعبارات الدعابَةْ، والتعايُشُ الفذُّ بين أغنيةٍ طائشةٍ ونهيقِ حمارْ. ما أضْيَقَ ذلك الإطار الذي تُحْشَر فيه الجحافِلُ بين بوابةٍ تُغْلِقُها عربةٌ محشورةٌ بين ردْفيْ امرأتيْن فائضتيْن ونهايةِ ساحةٍ مستسلمة لحجِيج الزُّوار. وما أصعبَ الاختيار بين أن تمنعَ نَفْسَك من مشهد القيامةِ فَتَسْلُكَ للبيت الطُّرقَ الخَلْفِيَّةْ وبين أن تُحَرِّرَ العَيْنَ من قيود النظامِ الأبديّ فتغسلها بهذه الفوضى البشريَّةْ.

في سوق الأربعاء، يدخُل الحيُّ في زمانٍ قديمٍ ويُعيدُهُ. لا المكانُ مكانُهُ، ولا الناسُ أهْلُهُ، ولا الفوضى التي حَلَّتْ بهِ منوالُهُ. لكنه يَعيشُهُ كأنَّهُ زمانُهُ؛ كأنَّ الذي فيه معدِنُهُ الذي عليه يَدُلّ. كأن أشياءَهُ مِن أرومَتِهِ: ما يَزِيدُ عنها من الحاجةِ وما يَقِلّ. هكذا يومُ الأربعاء مُشرَعٌ على ما لا يُمَلّ: ريفٌ يَزْحفُ على المدينةِ وماضٍ على الحاضِرِ يُطِلّ. وأنت، أيُّها المسكونُ

بكومونةِ باريسَ، تسألْ: أينَ المَفَرّ؟ وأين الاقتصادُ والطبقاتُ والصراعُ في هذا المَقَرّ؟

ـ ٨٦ ـ

مُقَدَّمُ الحارةِ أعلى رموزِ السلطةِ في الحيّ. يمشي بِخُيَلَاءٍ والناسُ تَتْبَعُهُ، والتَّحَايا وعباراتُ الإطراء تُسَابِق خَطْوَهُ. ما أَوْسَعَ سَطْوَهُ حين يُحْتَاج إلى شهادةِ احْتِيَاجٍ أو سَكَنْ، وما أَجَشَّ صوتَهُ حين يُعْلِن في وجْهِ السائِلِ بُرْمَهُ. أمّا الفِتَن، فَلَا يَفُوتُهُ أن يُخْمِدَها بعينيْه المشبَّعَتَيْنِ بِالْتِمَاعٍ مُخيفْ. كان يكفيهِ الرغيفْ حين بدأَ نائبًا لمقدَّمِ الحيِّ الأكْبر، ثُمَّ بات بعد الترقيةِ مِلْحًاحاً يطلب أكثر. قطعتان معدنيتان تكفيان إن كان الدافعُ عسيرَ الحالْ؛ أما يَسِيرُهُ، فلا يضيرُهُ أن يدفَعَ ورقةً وحدها يُستحقُّ أن يُنَالْ. ولا مُحَال عندهُ إنْ وَعَدَ بخدمةٍ لقاءَ سَدِّ الأَوَدْ. هو ـ بَعْد الشيخ ـ الواحدُ الأَحَدْ؛ لكن الشيخَ بعيدٌ عن الحارةِ، وصِيتُهُ في الناسِ أشْحَبُ وسيرتُهُ غير ذائعةٍ في البَلَد. وما مِن أحدٍ يَجْرُؤُ على أحدْ في حضرةِ المقدّم غير أن يكون من الزبانيةِ أو أهْلِ المَدَدْ. كلما حَدَّقْتَ فيه، خِلْتَهُ مبتسمًا أو شامتًا أو عابثًا أو ما شِئتَ من الخيالِ في التصوير؛ وكلّما سَمِعْتَهُ يتحدث، بَعَثَ في نفسكَ الشعور بالتقدير. صوتٌ رجوليٌّ ممسوكٌ لا يشطح فيه لسان مادام الذي يقولُ محفوظَ البيان. لكنه في لحظةٍ يتبدَّل فتجْحَظ العينُ والفَمُ يُرْغي ويَنْهَدُّ البنيان. والويْلُ لكَ إنْ تَقْرَبْهُ أو تَصْحَبْهُ أو تلتمس منه الأمانْ حينَ وَطْأتُهُ على أهل الحيِّ تَشْتَدُّ ويخشاهُ الأعوان. مقدَّمِ الحارةِ أعلى رموزِ السلطةِ، والسلطةُ في الحيِّ مخيفَهْ كالمقدَّم والشيخ والخَليفَهْ.

ليلُ العباسيةِ يَغْمُرُهُ السَّكَارى. يتكاثرون كالطحالبِ، وفي أيام الشتاء أكثر. من بدايةِ سور المقبَرَةِ تَشُمُّ روائِحَهم وعند عَطْفَةِ «تحت السور» - وقد تَرَكْتَ طريق الضريح على اليسار - تواجِهُهُم وتَدَعُ رأسَكَ ينحني قليلاً حتى تُطَمْئِنَهُم إلى أنك من أهل الدّار. كنتَ في الماضي تخافُ المرور فتَعُودَ للبيت باكرًا قبل أن تلعب الصَّهباء بالرؤوس وبِتَّ تأتي متأخّرًا غيرَ آبهٍ بما في خواطِرهم يَجوس. لكنكَ ظللتَ تُؤْثِر السلامَةْ وتجتنبُ الملاسنةَ والصدامَا. وكنتَ ترثي لهم في نفسِكْ وتَحْسبَهُم في غير جُنْدِكْ، فَمَا يَليق بالرسالةِ أن يَحْملها الثّمالى وهُم عن عبئِها نِيامًا. كنتَ تَمْقُتُهُمْ وتَرْجُو ربَّكَ هُلْكَهُم، فَصِرْتَ تُشْفِق عليهم وتُعْرِض قليلاً عنِ الملامَةْ. لكن حقدًا فيك يَكْبِرُ على تجّار الخمرةِ من أهل الحيِّ كَحِقْدِكَ على تجار الكِيف، وكنتَ تسأل عَمَّن يتوِّج هذه العصابة على عرش الليل ويحمي سلطانها من مظلومية الأهل. وكنت تضحك من عجز أبي العبّاس عن حماية حرمةِ جدارِ مَرقده من غارات المتبوِّلين؛ كنتَ تَعْجَب لذلك الكَرِّ والفَرِّ بين السّكارى والمُصَلّين، يَزْحَفُ الأوّلون ليلاً وقبيْل الفَجْر ينسحبون؛ وبين الصلاةِ الأولى والخامسَةْ، يَظّاهَر الثّانُونَ بالمِلْكية: الضريحُ لَهُم وصَحْنُهُ وباحَتُهُ والمسجدُ، وقد يكون فيهم مُتَهَجِّدٌ سيَخْلَعُ عنه رداءَ المتبتِّل كي يُعَاقِرَ صاحبةَ اللون الأحمر بعدَ آخرِ ركعةٍ وتحيَّةْ. وكنتَ تردِّدُ في نفسكَ: هنا القضيَّةْ، حيث لا قانون يَسْري ولا تستقيم جَدَليَّةْ: بين السَّكْرَةِ والحضرةِ، بين الخَمْرَةِ والركعةِ، بين الكثرةِ والزُّمرةِ، بين

العبَّاسيَّةِ و«الْمَجادليَّهْ». شَعْبَانِ وعقيدتانِ وتجارتانِ يتعايشانْ تحتَ سقفٍ من مكانْ، هو من الماضي الذي عن ماضيه لا يَنْقَطِعُ، وبينهما حاضرٌ يَقْبَعُ في نفسه كأنه من المَوَاضي أشبهُ بالبقيَّهْ.

ـ ٨٨ ـ

كأحياء الرجال السبعة، تَسَمَّى الحيُّ باسم أبي العبّاس السَّبْتي فَكُنِّيَ بالعباسية حينًا، وبالزاوية حينًا، وبالزاوية العباسية في أغلب الأحيان. حيٌّ يقومُ على ضريحٍ ويقوم عليه الضريحُ وتَقْصده الناسُ من كل فَجٍّ عميق. وديعٌ في الليل وهادئٌ إلّا من أصوات السكارى وصياح الدّيكة وصراخِ امرأةٍ تُجْلَدُ لسبب لا تعرفه. وفي النهار يضجّ بالكلام والناس وأدعية المتسولين. تدلف إليه من «باب تاغزوت»، ومن باب تَاغْزوُت تخرج منه إلى الدنيا أو إلى مكان يحرِّرُكَ من الزمان وسطوةِ المدافنِ والأقدمين. من عرفَ الحيّ، قَصَدَهُ وعليه أَدْمَنْ. فيه شفاءٌ للسائل وخبزٌ للمحرومِ ودواءٌ للعليل. فيه المذاقُ العذْبُ للفراغ المطرَّزِ بالكلامِ المعتَّقِ في جِرَارِ اللسانْ، نكهةُ التاريخ المختَّرِ في خابيات النسوة يرتِّلْنُه في الليل. فيه سِحْرُ الأسرار وخوفُ الصغار على غدهم، وفيه التعايش الذي لا ينتهي بين الممكن والمستحيل. ما أحدٌ أتاهُ طالباً ولم يُجَبْ، فهو للناسِ كانَ كالأذنِ للصوتِ تُصْغي. وما أحدٌ رماهُ بالعَيْب فلمْ يُصَبْ بما ليس يبغي. هو حيُّ الوليِّ الذي دَانَتْ لهُ القاماتْ، وعُرِفتْ عنه الكرامات، وقدَّمتْ له الزعامات الكِسْوَة والنُّذور تَجِلَّةً وتقرُّبًا والتماسًا للنّصْرة في الانتخابات. هو للجميع مِنْ غيرِ ميْزٍ وحَيْف: لِلْجِلَّة الكبار، للسِّفْلَةِ وأسْقَاطِ

الناس، للفُرَّاغِ يملأون بالنميمة فراغ النهارْ. كلُّ شيءٍ هنا ـ في حَيِّهِ ـ بمقدارْ: التكسُّبُ، والتكذُّبُ، والتأدُّبُ، والتَّبَتُّل، والتأمُّلُ، والتَّحَمُّل، والتَّجَمُّل، والتجارةُ في الأسرارْ. وكلُّ شيءٍ هنا يُسْتَعارْ: التقوى، والنَّجْوى، والبَلْوى، وحَلْوَى لسانِ الجارَةِ للجارْ. كل شيءٍ يُزَارْ، الأركانُ، والجدرانُ، والأوثان، والأخذان، والغيلان، والأشياء هنا بميزان: ما مضى، وما سوف يأتي، وما خلَّفَه الدهرُ ممَّا كان. حيٌّ يَفُوح منه عِطْر الروح ويَخْنُقُهُ المكان والذينَ فيه من قديمِ الزمان.

لِأبي العباسِ مملكةٌ من دموعٍ ودعاءْ. يستوطنُ الجَائِينَ إليه من بعيدٍ يجيئون ويسلِّمُ أهلَهُ الأقربينَ للسماءْ. شَعْبُهُ قُدَّ من صبرٍ ومِنْ دَهْرٍ عنيد، وشُدَّ إلى صرخَةٍ موجِعَةٍ دوَّتْ في الفضاءْ. عرشُهُ قبْرٌ: منه يُوصِي ويَنْهَى ويَأْمُر، وفيه يَخْتِمْ، ويحْكُمُ رعيَّةً من عجينِ الشقاءْ. طَيْفُهُ سَخِيُّ الحضورِ في الليل، وفي النهار دليلُ الذاهبين إلى غدٍ مجهولِ الهُوِيَّةْ. لهُ الوفاءُ والولاءُ والجِبَاهْ الراكعةُ في الصُّبْح والعشيَّهْ. له كِسْوَةُ ثرِيٍّ نَذَرَ النُّذُرْ، وعليه قُبْلَات فقراءٍ كُثر. له الصهيلُ، له الهديل، لهُ القُربان، وله الذي ما كانَ ولا شَهِدَ الزمان. . .

يا أبا العبَّاس، على قِرْميد ضريحِك الحمام، على جَميلِ ذكراكَ السلام.

بابُ القراءة

ـ ٨٩ ـ

اقرأْ، ففي البدءِ كانتْ كَلِمَةْ. وأنت مع القراءةِ تبدأ، ومع الحروف تبدأْ، ولا شيء في الدنيا يكونُ من دون كتابٍ: إليكَ من السماء يَسَّاقَطُ أو من الإنسانِ يَحْمِلِ خَتْمَهْ. يا عاشقَ الحرفِ، يا مُرَدِّدًا اسْمَهْ: كَمْ مِن نبيٍّ بِكَ مَرَّ وتَرَكَ بين يديْكَ وصاياهْ، أو حَفَرَ في تِيهِ رُوحِكَ اسْمَهْ. وكَمْ مِن شاعرٍ أَلْقَى عليك قصيدةً لم يَخْتَرْ قافيَتَهَا ولا اختارَ في هجائيَّتِها خَصْمَهْ. فاقرأْ، واقرأْ بلا حَدٍّ ولا عَدٍّ ما مَلَكَتْ يمينُك وما خَسِرَتْ شِمَالُك، واقرأْ بلا حَرَجٍ أرقام حظِّكَ في عدمِ ما كنتَ في السماءِ شَمْسَهْ. اقرأْ كثيرًا ما لَسْتَ تَنْظِرُ في المساءِ الطويل إلى نومكَ حُلْمَهْ. اقرأْ اسْمَكَ المُنْصَرِمَ في أمسٍ تصرَّم واقرأْ يومَكَ الماثِلَ بين ناظريْكَ ونَجْمَهْ. اقرأْ ما سوف تَعْلَمُ من الأشياء وما سوف تُغْلِقُ عليك الأشياءُ عِلْمَهْ. واقرأْ حَرْبَكَ على العالمِ حينَ نَفْسُكَ تَغْضَبُ منك ومنه جَهْرًا ولا تَنْسَى أن تقرأَ في السِّرِّ سِلْمَهْ. واقرأْ، اقرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الذي خَلَق، ورتِّلْ بِاسْم قلبكَ الذي خَفَقْ، بِاسْمِ اليتامَى والسائلين والمحرومين، واسْمِ الذينَ على صليب السؤال مصلوبين. اقرأْ كتابَ الروح المُحَاصَرِ بالغُمَّةْ، فأنتَ وحْدَكَ في هذا الصقيع توقِدُ جَمْرَهْ.

- ٩٠ -

تقرأُ حين تَعْجِز عن الكلام، حين يَحْتَلُّ السؤالُ الرأسَ ويمتنعُ الجوابْ. تُقْفِلُ الفَمَ قليلاً كي تَمُرَّ سحابةٌ فَتُمْطِرُ على عينيْن عطشاويْن للحرفِ. تلك طريقةٌ في الغذاءِ أذْكَى. الكلْبُ وحدهُ يستنفِرُ الأذنَيْن، وأنت لستَ كَلْبًا ولا سِمِّيعَ موشَّحٍ كي تُطْلِق لهما العَنَانَ وتُعَطِّلَ حاسَّة النظر. أنتَ من قبيلةِ البَصَرِ، من حضارةِ الحرفِ أنتَ في بلادِ سُومَر وكهوف اليمن وما حَمَلَ البربر من أسرار الماضي. أنتَ من بلادِ الأسفارِ والكتبِ المقدَّسَةْ، ومِن معجزاتِ اللسانِ أَتَتْكَ البيارقُ على أحصنةِ الريحِ مرفوعةً أو مُنَكَّسَهْ. من كثبان الشعرِ في الصحراء ومن حشائش رواةِ الأيامِ جئتَ كي تَتَفَيَّأ ظلال لغةٍ فيك تتخمَّر كما النبيذ يرقد في الجرارِ ويَتَدَثَّر. ومن بساتين الشام وحدائق الأندلس بُعِثْتَ كي تجدَ الجواب عن سؤالٍ لا يَهْدأَ: لِمَ أقْرَأ؟

- ٩١ -

إقرأْ تَبْرَأْ مِن وحشةِ الصمتِ ومن الفراغِ الأسوأْ. واقرأْ كي تتداركَ فَوْتَ الماضي وتَصْطَحب طالعًا لا يفْجَأْ. واقرأْ ما تشاء: شعرًا ونثرًا وفكرًا واقرإِ المكشوفَ والمُخَبَّأْ. اقرأ تاريخَ القدامى وتَهَتُّك النّدامى، دروس الحروب والحضارات، وتعاليم الأنبياء المخذولين من لَهْوِ شعوبهم، واقرأْ ما قالتِ السماءُ لأهلها في الأرض وما حَفَرَ الشعراء من آثارٍ على الأطلال. واقرأ وصايا المفتونين بأسرار الصحراء وما تَرَكَ الرَّحَّلُ عليها من الأحمالْ. اقْرَأِ الأقوالَ التي في كتاب النَّفْسِ تَسْمقْ ويَسَّاقَطُ منها ما تُبَدِّدُهُ

ريحُ المُحَال. واقرأْ ما تستطيعُ من آياتِ الجمالْ: في المرأةِ، والوردةِ، والقصيدةِ، وما في الخيال مِن مخزونِ ذاكرةٍ لا يَنْفَذ. اقرأْ ما يَشْهَدْ على ما تركتْ في المدى رحلةُ الإنسانِ من الحضارةِ، والنَّضارةِ، والعبارَةِ، والتجارةِ، والخَسارةِ والعنفوان.

لا شيء أَبْقَى مِنَ الحَرْفِ في القلبِ وبين جدران الذاكرَهْ. قد يذهب الماضي عنكَ في ضَجَرْ، لكنَّ الكِتَابَ يَنْصُبُ له الأفْخَاخَ أو يَتَخَطَّفُهُ كي يَزُفَّهُ في موكبٍ من المعنى والصُّوَر. لا شيء يبقى بعد أن يتصرَّمَ أمْسُكَ سوى التّقلّب في نعيم المُتْعَةِ الحاسِرَهْ: أنْ تقرأَ صفحتيْن أو عشْرًا أو خمسينَ أو ما مَلَكَتْ يمينُكَ من النصوص النادرهْ. لا شيء يَبْقَى بعد أن يَفِيضَ يأسُكَ عن حدِّهِ غير أن تُشْرع نافذةً على المعنى وتعيدَ للكلمات نَكْهَتَها الغابِرَهْ. واقرأ كثيرًا بلا كَسَلٍ أو تَعَبٍ، اقرأْ لِغَدِكَ وأَمْسِكَ واقرأْ للأيامِ الحاضِرَهْ. واقرأْ كثيرًا بلا سَبَبٍ ولا تَسْأَلْ أحدًا عن علاجٍ لداءِ القراءهْ، فَرُبَّ «مَرَضٍ» به تُشْفَى النفوسُ الحائِرَهْ. واقرأْ ما كَتَبَ القدامى في الزمانِ بماءِ الذَّهبْ وما دبَّجَ المحدَثونَ من قربانٍ في الحروب الجائِرَهْ. اقرأْ يا صديقي ما يَنْفَعُك: في هذه الدنيا إنْ أقَمْتَ قليلاً. . . وفي الآخِرهْ.

ـ ٩٢ ـ

القراءَةُ سريرٌ لقيلولَةِ الزمان، طريقٌ لِأَحْصِنَةِ الريح في الذكرى، ومكانُ المُطْلَقِ في اللَّامكان. القراءةُ كرسيُّ اعترافٍ للقادمينَ من حروب الماضي بالسُّؤَال المُرِّ مُثخَنين أو بالزُّمُرُّدِ

حكماء متوَّجين، والقراءةُ مَالَا يَشْرُدُ بكَ عمَّا فَعَلَ الأسيادُ بالعبيد وما فَعَلَ الزمانُ بنفسِهِ. إنْ تَجْلِسْ في حضرةِ النصِّ تَكْتَشِفْ: أسرارًا مُقْفَلَهْ، وأسئلةً مهْمَلَهْ، ونساءً تستبِدُّ بِهِنَّ رائحةُ الجمالِ وتِيهِهِ. وكم لذيذٌ في لعبةِ كرسيِّ الاعترافِ أن يَبُوحَ النصُّ بمكنونِهِ فيُحَوِّلُكَ إلى كَاهِنٍ يُصْغِي إلى مَن يُسِرُّ، ففي الكِتابِ مُتَّسَعٌ للصفاءِ الطفوليِّ، وللكتابِ في الروحِ زَرْعٌ يدرُّ. كلما أَدْمَنَتْ نكْهتَهُ، إلى البعيدِ عمَّا حَوْلَكَ أَخَذَكْ، وأَقَامَ لكْ على أنقاضِ فراغِ المعنى كَوْنَكْ. الكتابُ رأسمالٌ لا يَزيدُ ولا يَنْقُص ورَيْعُهُ أنْتَ وما رَأْسُكَ في غابه يَقْنصْ. وإن تَشَأْ فَتَزِيدَ في رأسمالِهِ صَحِبْتَهُ أكثر وأَسْدَيْتَ لَهُ الإصغاء، وقَلبْتَ ما بين دَفَّتَيْهِ على غيرِ وجْهٍ أو على غيرِ نحوٍ من الأنحاءْ، إِذِ الفَهْمُ في جُملةِ رأسمالِهِ فلا تَظْنَنَّهُ عنهُ بمعزِلْ، وصحائِفُهُ محايِدَةٌ إنْ لمْ تَبْلُغ رُوعَكَ وتَنْزِل. وهو مِنْ دُونِكَ ورقٌ لا ينْفَعْ، وبِاقْتِبَالِكَ نصٌّ ينمو ويَيْنَعْ. فَارْوِ غَرْسَكَ بالعيْنيْن حتى يسْمق، وكُلْ حَلَالاً من ثماره ما يُشْبِعُ ويُغْدِقْ. هُوَ لَكَ حَرْثٌ إِئْتِهِ أنَّى شِئْتْ، ولِحَرِّ سُؤَالِكَ ظِلٌّ إنْ إليه فِئْتْ. فالكتابُ ما ظَلَّلَكَ ممَّا ضَلَّلَكْ، وما أعفاكَ مِنْ تِيهكَ إنْ أَمْهَلَكْ.

- ٩٣ -

وحدهُ الكتابُ يعلِّمك التواضع. إلى البداياتِ يُعيدكَ وعنْك يَرْفَعُ شعورًا غَبِيًّا بالامتلاءْ. لَكَ أن تدَّعِيَ في نفسِكَ ما تشاءْ: علمَ أساطيرِ الأوَّلين، وحروب كسرى وهِرَقْل والمُحْدَثينْ، وما قالَ العِلْمُ في أسئلة المرضى، وما رأى روّادُ الفضاءِ مِنْ عَلٍ،

وما حَكَمَ به الأنبياءُ على المُدَّعينْ. لكنَّك بين يديْهِ كالمريدِ يُلقِّنُهُ الشيخُ أصولَ الإصغاءْ. لا بأسَ مِنْ فارقٍ بين فكْرٍ وخيالْ، فأنتَ عنهما معًا لستَ بِمُتَعَالْ، وهُمَا لكَ شهوتانِ تتوزَّعانِك فلا تَدَعَان لإضرابكَ عنهما المجالْ. كلَّما رفعْتَ الانتباهَ للخطاب، بانَ أكثرْ وانْقَشَعَ السحابْ، وامْتَدَّ حَبْلُ الاتِّصالِ بين ضفَّتَيْنِ من كلامٍ بينكما ينسابْ. لكَ حينها أن تسألَ الكتابْ عمَّا يبوحُ به ويُضْمِر، وأنْ تَقِيسَ ماءَهُ وخِصْبَهُ وغثاءَهُ وما يطْمرْ. إن الذين يقرأون لا يَقْرِفونْ، ولا يتعبون من كرورِ عادةٍ أَتْقَنُوهَا. وحين يُمْعِنون لا يأنَفُونْ، ولا يَحْبِسُونَ النفسَ عن شهوةٍ للروح أدمنوهَا. وكلّما أَوْغَلُوا، اشْتَدَّ عُودُ الانقطاع والاعتكافِ أكثر؛ وحين يُحْجِمُون، تكونُ نجمة العبث في النَّفْسِ أَظْهَر. إنْ كنتَ من ضَرْبِهِم وفي رعيةِ حزبِهِمْ، قاسَمْتَهُمْ ما عنه بعد التَّعَوُّدِ لا تَتُوبْ؛ وإنْ جَهِلْتَ سبيلَهُمْ وجَحَدْتَ جميلَهُمْ، ذهبَتْ ريحُكَ عنكَ فلا إلى رُشدٍ تَؤُوبْ. فَرَابِطْ على أعتابِ الكتاب - يرْحمك الله - وأَلِحّ، ففي ذلك للنَّفْسِ مَلَذَّةٌ وفائدةٌ في العقْلِ تَصِحّ؛ واسلسْ زمامكَ للحروف يكونُ لكَ من الدنيا قُطُوفْ.

- ٩٤ -

تَخْتَارُ في الذي تَخْتَارْ. هي الكتبُ بين يديْكَ كثيرة: في البيت والمكتبهْ وفي روفوف خزانةِ المدرسَهْ. والعناوينُ التي تَنْهَالُ عليك مثيرة وأنتَ مأخوذٌ بإغراءِ حسناواتٍ في مشهدِ منافسَهْ. تختارُ الأدبَ: شعرًا وروايَهْ، وبعضَ شَغَفٍ بالنقدِ هوايَهْ. وتَقْضي صِبَاكَ بين الشعراءِ والقُصَّاص، ولا تَجِدَ في

صُحْبَتِهِمْ مِنْ مناصْ. وتُطِيلُ ليْلَكَ في الليلِ وتَأْرَقْ، وتَغْرفُ من كلامِ العرب وتَلْعَق. لا فرقَ عندكَ بين منظومٍ صُبَّ في الصُّوَر وما يُرْسَلُ من بديعِ الكلام ويُنْثَرْ. فَهُمَا لنفسِك كالغذاءِ توزَّعَ بين ما أشْبَعَ جوعًا وما القَلْبَ أسْكَرْ. تفتحُ الصحائفَ، تُطيلُ التحديقَ، تعيد ما قد قرأتَ أمس كي تتذكر. وفي كلّ يومٍ تَنْهل شيئًا، لكن رصيدَك إذْ تَقْرِف يَخْسَر. تُجَرّب أن تتجنّب الخسارةَ بالتّرحال بين الأجناس، فَيَضِيقُ صدرُكَ تارةً بالرحيل وفي أخرى يُسْعِفُك الإيناس. وكلّما قرأتَ كتابًا أَعَدْتَهُ فَتَكَاثَر فيك فَيْضُه، وكلما أَغْلَقْتَ سؤالاً فَتَحْتَهُ وتعالى فيك نَبْضُهُ. ثم داهمتْكَ السياسة وأنت تقرأُ شعرًا، فَاتَّسَعَتْ مساحةُ السباحةِ نهرًا فَنَهْرًا. وكَبر السؤال عمَّا جرى وكانْ، وخَسِرَ الجمال شبرًا من المكان، وتَسَيَّسَتِ القصيدةُ والرواية والجريدهْ، وانتحر الغزلُ والمديحُ والجَدَل؛ وبَدَأْتَ تَنْأَى سريعًا عن المراهَقَهْ، وتُوَدِّعُ الذي أَلِفْتَ أبدًا في الأيام الحارقَهْ، لكنك عن عادةِ القراءَةِ ما انقطعتْ، وعن ملازمة الكتاب ما امْتَنَعَتْ. خسرت شيئا وربحت أشياء، وما الدنيا غير دُولةِ أموات وأحياء.

ـ ٩٥ ـ

من الكُتب ما عَزَّتْ نُسختُه وعَلَتْ قيمتُه وارتفع رصيدُهُ في الميزان. والممنوعُ من الكُتُبِ أشدُّها بريقًا وأَنْفَسُ في النفس والوجدان. تبحث عنها فلا تَجِدُ، ومِن الكُتْبِيِّ تطلبُها فلا تَفِدُ؛ ويُرْهقُك السؤال. قد يُغِيثُكَ بها أحدٌ طَوْرًا وفي أكثر الأطوار يصادِفُك المُحَال. وتُطِيل البحثَ عن المفقودِ بلا كَلَلٍ، وتَجْهَرُ

بالسؤال الممنوع بلا وجَلَ، وتُطيل الانتظار بلا يأسٍ والرحلةَ في المجهولِ بلا مَلَلِ. يُرْشِدْكَ الذينَ قَبْلَكَ سَألوا إلى هَدَفٍ فتمضي، وإن كان في الظفر بالبُغْيَةِ قليلٌ من الأملِ. وحين يحالفُكَ الحظُّ مرَّةً في العثورِ، فَكَمْ في أخرى تَلْقَى من الفَشَلِ. ما كان الممنوعُ كبيرًا في الرأسِ يا صديقي لو كان الهواءُ نقيًّا وكنتَ تطيرُ حرًّا كالحَجَلِ. هل أدركْتَ، إذن، حكمةَ الشاعرِ وردَّدْتَ معهُ: ما أَضْيَقَ العيشَ لولا فُسْحَةُ الأمل.

- ٩٦ -

حين أَصْبَحْتَ تمنح الكتب ألوانًا، بدأْتَ في اقترافِ الخَطيئَةْ: هذه كتبٌ حمراءُ تَصْلُح، وتلك كتبٌ صفراءُ تَقْبُح، وأخرى هُلاميَّةُ اللون على الرفِّ تنتظر المصيرَ المُعَلَّق. وأحكامُكَ على العَوَاهنِ تُطْلَق: هذا كتابٌ سخيفٌ، وذاكَ روائيٌّ يُشْنَقْ، والشاعرُ بينهما ببَّغَاءٌ تردِّدُ ما قال جريرُ والفَرَزْدَقْ، وتُمْعِنُ في الهراء والجنونْ، وإلى البعيد تأخذُكَ الظُّنونْ بأن الكتبَ الحمراءَ وحْدَها تَفْتَحُ الأفُقَ المُغْلَق. ما كان ضَرَّكَ لو تَرَكْتَ الأصْفرَ يَصْفَرُّ أكثر كي تشُمَّ فيه رائحةَ القديمِ فَيَعْلو الزمانُ أو يقيمْ: أَلَسْتَ بالزمان مسكونًا؟ وتَمُرُّ الأيَّامُ وقَلْبُكَ بِذِكرِ يوم نَحْرِ الأصْفَرِ يَنْكَسِرْ، وشَبَحُ ابنِ المقفَّع والجاحظِ والهمْذاني يُرَابِطُ في حُزْنِكَ المُنْهمِر. كمْ من نصوصٍ أَتْلَفَهَا الجنونْ وشَيَّعَتْهَا الخِفَّةُ إلى حَتْفِهَا؛ وكم من ليلةٍ أرهقَتِ الجفونْ سَحَبْتَهَا من رصيدكَ وغِمْدِها؛ وما هرَّبْتَ إلّا القليلَ إلى الذّاكرَهْ: بِضْعَ معلَّقاتٍ ومقاماتٍ وقصائدَ أَحْكَمْتَ عليها الإغلاقَ لَئِلَّا تَفِرَّ منكَ

يومًا فترمي بنفسها في النسيان. وما طالَ بك الزمانُ كثيرًا لتُدْرِكَ أنكَ على رأسكَ جَنَيْتَ في مذبحةٍ فاجِرَهْ.

- ٩٧ -

أَدْمَنْتَ الخزانتين وبتَّ لَهُمَا مُرِيدًا، لا شيءَ عنهما يأخذُكْ: بردَ الشتاءِ كان أوِ الحَرَّ الشديدًا. في «دار الطالب» يسكنُكَ الشعورُ بالأمان. تَمْسَحُ عيناك الكتاب كمن يحتسي الفنجان. بتُؤدَةٍ وهدوءٍ تقرأ والقلمُ بين الأصابعِ مُثبَتٌ، وأنتَ تدوِّن ككاتب الديوانِ ما على الناظريْنِ يتدفَّقْ. وفي كل يوم يَكْبُر فيكَ العالمُ والأشياء من غموضها تخرُجُ والمعاني إليكَ تَنْقَادُ والمباني تتألَّقْ. هناك، حيث زُخْرُفُ العمارةِ القديمِ، يغريكَ المكان بالمكوثِ أطْوَلْ، ويُطْلِقُ سِحْرُهُ المجنونُ في الحِبْرِ انتباهَكْ. ولا بأسَ - بين فينةٍ وأخرى - إنْ ترفعَ رأسكْ كي تختلس نظرةً إليها إنْ مرَّتْ قريبًا منكْ أو طَرَقَتْ أنْفَكْ رائحةُ ياسمينها الحَادّ. وأنت الجادُّ في القراءةْ لا تَقْصِدُ التَّلَصُّصَ، لكنَّك تَهْوَى قياسَ المسافةِ بين المرأةِ والكتاب، وفي عميقِ نفسِك تسألُ أيُّهما البابُ إلى معرفةِ نفسِكَ، لكنَّكَ لا تَجِدُ الجوابْ.

في الخزانةِ البلدية يَضيعُ الانتباه. لا شيء يخطف ناظريْك عن الكتاب، لكن سَمْعَك يرهِقُهُ ما وراء الباب، فتندَسُّ بين السطورِ مفرداتٌ طائشةْ. تُغْلِق على الخارج الأذنيْن، وتُفَتِّح العينيْن، وتجرِّدُ نفسَك عن المكان فتُفْلِحْ؛ لكن شيئًا فيك يُفْصِحْ عن رغبةٍ في المغادَرَةْ. تَمْنَعُ نفسَكَ قليلاً من المُطَاوعَةْ، وحين تعيد قراءة الفِقْرَةِ ثالثةً ورابِعَةْ، تُدْرِكُ أنّ عليك أن تُسَلِّم بلا ممانعةْ..

ـ ٩٨ ـ

تتعلّمَ أن تقرأ ببطءٍ، أن تُعيدَ على ناظريْكَ فِقْرةً مرَّتْ، أو جملةً فرَّتْ، أو بيتًا أَخْطَأَ الطريقَ إلى الحافِظَةْ. أخَذْتَ عن المعلِّم أكثر النصائح فائدهْ: أن تَتَرَيّث، وتَمْنَحَ عينيْكَ أطولَ الوقتِ وتَلْبَثْ في المكانِ حيث أَنتْ لا تَعْبَثْ ولا تُعيدُ على ليلكَ ما دارَ في يومِكَ من كلامِ السابلَهْ، ولا ما ألقى الأَقْرانُ على سمْعِكَ من فُكاهاتْ. تَمْتَثِلُ للوصايا وتدوِّنُ التعليماتْ لِئَلَّا تَضيعَ منك البُوصلَهْ. فأنت تصدِّق أن الكتاب لن يعطيك إلى أن تُمْهِلَهْ، أو تطيلَ الصحبة والتمعُّنَ في الحروفِ المُرْسَلَهْ. ولكَ أن تستأذنَ المعلّم فتسأَلَهْ إنْ كان من حقك الاستفسار عمَّا أَهْمَلَهْ كالفارقِ بين أن ترفعَ الماضي إلى الأعلى أو عن السُّدَّةِ والسُّؤْدَدِ تُنْزِلَهْ. ولكنك عن سؤاله تُحْجِمُ مُدْبِرًا وإنْ كنتَ وحْدَكَ تنُوءُ بأحْمَالِ المُعْضِلَهْ. وتَفِيئُ إلى الدَّفاتر علَّها تَبُوحُ بما لستَ تَعْرِفُ، لكن كتاب التاريخِ مَهْزَلَهْ. وفي «دار الطالب»، يستدرِجُ الحاضِرُ الغائبْ ويُخْفي الجوابُ سؤالَهْ. وأنت تتعلَّم أن تقرأ ببُطءٍ، غير أن لكلِّ كتابٍ مآلَهْ: فكتابٌ تُمْعِن فيه طويلاً وتَسْتَمْهلْ، وكتابٌ تَمْسَحُهُ سريعًا وتستعْجِلْ. ولكلِّ كتابٍ أجَلٌ أَأَدْرَكْتَهُ أو أَضَعْتَهُ أَوِ اسْتَذَقْتَ جَمَالَهْ.

ـ ٩٩ ـ

كُتِبَ عليكَ الكتابُ ولستَ في الأمرِ بمُرْتابْ. على نفسِكَ في البيتِ تُغْلِقْ كيْ تفتحَ لنفسِكَ ألفَ بابْ. وما ضَرَّكَ إنِ استوحشْتَ قليلاً فليس في العُكُوفِ ما يُعَابْ. وقد تَطِيبُ لكَ الخزانةُ حينَ ساعةٍ تَضِيقُ بكَ الساعةُ أو تُسْلِمُكَ الرقابةُ للشعورِ

المُرِّ بالاكتِئابْ. ما أجْمَلَ صيفًا لا يَضيعُ بين العَوْم والنَّوم والحُلْمِ بما نَفْسٌ لِبُغْيَتِهَا الصغيرةِ تشتهي ولا تُجَابْ. يا سائلاً يَوْمَهُ عن غَدِهِ والقَلْبُ في قَلْبِهِ مرتابْ، كم من زمانٍ قد يَمُرُّ على الزمان كيْ تُشْفَى من المصابْ: من حرفٍ يقيمُ في النفس حينًا وينتظر رحيلَكَ بين دفَّتَيْ كتابْ؟

- ١٠٠ -

تكْبرُ، لكنَّ حماستَك لخزانةِ المدينةِ تَفْترْ. تُحَاذيهَا قَدَمَاكَ وأنتَ إلى ضِفَّةٍ أخرى من الطريقِ تَعْبُرْ. هل شبَّ الحريقُ، إذن، في شغفٍ كان في النفسِ يسْكُنْ؟ تؤجِّلُ الجوابَ وتُسَافِرُ في سرِّكَ الذي تُخْفِيهِ وتَدْفُنْ. لم تَعُدْ «دارُ الطالب» تُشْبِعُ النَّهَم الأكْبَرْ، ولا باتَتْ صَوْلَتُها في الشِّغاف تعلو أكثر. تُلقي التحِيَّةَ من بعيدٍ على اسمها المُثْبَتِ فوق خَوْخَتَيْ بَابِها، وتَرْمِي الرّتَاجَ والصّوان بنظرةِ الإشفاق. ماذا في جوفِكِ تحملين - تقولُ - غيرَ القصيدِ ونكد النُّقادِ وخرافات الرُّواةِ والمشعوذين؟ قد كنتَ يومًا ترتادُها فَأَغْنَاكَ عن الدنيا زادُهَا؛ وفي عاميْنِ ونصفِ عام، التَهَمْتَ من ثِمَارها مائةَ كتابٍ وكتابيْن، وفي كل أسبوعٍ تُنْهي كتابًا، وفي كلّ شهْرٍ تَطْرق باباً. وها أنتَ ترى نفسَك الآنَ أعلى قامةً وأرْفَعَ هامةً من الكتب المُحَايِدَهْ. وأنتَ الآن ملتزمٌ، وعلى ظهْرِكَ حَمْلُ العالمِ وفي نفْسكَ فَيْضٌ من المُعَانَدَهْ. قد كان في داخِلِكَ مَوْجِدَهْ، ما يُنْفِسُ أو يُحْفِظُ أو يُرَتِّبُ العالمَ على منضدَهْ. والآن تبدو لكَ الدنيا امرأةً نضجت للوصال ببيتيْن يدفئانِ الأفئِدَهْ. قد كنتَ درويشًا يقف على «باب الله» يتسوّل الكلماتِ

والأشياءِ: قافيةً بهيَّةً ولَوْزَ نَثْرٍ لذيذْ. والآن يُغْرِيكَ ما غَنِمْتَ من المُطْلَقَاتِ: ماديةَ العالمِ وصراعَ الطبقاتِ وخَدرَ ثورةٍ كالنبيذْ. وما ذنبُ الخزانهْ إنْ لَمْ تَحْمِلِ الأمانَهْ ولا جارتْك في هلوساتِ الحقيقَهْ؟ وماذا أنت يا ترى فاقِدٌ إنْ صَحِبْتَها أكثر وإنْ لم تحْسبْها في الصحبةِ رفيقَهْ؟ ويسأل نفسَهُ في نفسِهِ: ما خَسِرْتُ جدَّتي في شِدَّتِي، فلِمَ أخْسَر «دار الطالب» وإنْ كنتُ لما فيها لستُ بطالبٍ؟ كانتِ الخزانةُ جدَّةٌ أخرى لك بعد أن ضِقْتَ ذَرْعًا بالخرافهْ. ولقد رَوَتْ لكَ ما اشْتَهَيْتَ ورَوَتْ فيك عطشًا وجفافًا. لكنك ما وَفَيْتَ لِمَنْ سَقَى صدرًا تَقَرَّحَ يوماً ثم تَعَافَى.

ـ ١٠١ ـ

كيف تراها تكون بعد قَريبٍ من عام؟: تقولُ في نَفْسِكَ وأنتَ من بابها العريضِ تدْلف. رائحةُ المكانْ هي عينُها ما كانْ، لكنَّ الهدوءَ الداخليَّ تغيَّرْ، وتغيَّرَ بعضُ الرُّوَاد والمَنْظَرْ. طاولاتٌ جديدةٌ مُدَّتْ وعيونٌ قديمةٌ شُدَّتْ إلى زائرٍ مألوف. يسألُك الحاجُ عن الغِياب وفي عينيْ أمينةِ الكتبِ تقرأً العتابْ، وكَيْفَما اتَّفَقَ تَرْتَجِلُ الأسبابْ من سَفَرٍ واعتلالِ صِحَّةٍ وطُولِ اكتئابْ؛ ثم تَنْدَسُّ في القاعَةِ كيْ تُوارِيَ وحْشَتَكَ في الجماعةِ: شخصًا بلا هُوِيَّةْ يتمرَّنُ على التَّقِيَّهْ. لم تَقُلْ لغيركَ إنَّك مَا جِئْتَ تبحث عن كتابٍ وعن زادٍ آخر تستزيدُهْ، بل جئْتَ تُخْفِي آثارَ اشتباهٍ فيك لَمْ تُطِقْهُ ولا كُنْتَ تُرِيدُهْ. فلقد نُصِحْتَ بأن تَتَحَوَّطَ من الإفْصَاح عمَّا في نفسِكْ، وأن تُضَلِّلَ أَقْرَبَ من يَعْرِف ضَعْفَكَ من بَأْسِكْ. وقِيلَ لكْ: إحْذَرْ ما اسْتَطَعْتَ الكلامَ الزائد، وكُنْ أمام إغْرَاءِ الكلامِ

كالزاهدْ، فأنتَ بعد يومكَ هذا تحت البَصَرْ، وصوْبَ أخْطَائِك محاذيرُ منَ الخَطَر وما أنتَ إلَّا بَشَرْ: قد يَهْلكُ جسمُكَ إن خارتْ قُوَاكَ تحت سِيَاطِهِمْ، وقد تهيم على وجْهك في البعيد مثلما يَهيمُ الغَجَرْ. فما ضَرَّكَ إن سَلَكْتَ للسلامة سبيلَ التمويهِ، واسْتَعَضْتَ عن الواضحِ والمباشرِ بالتشبيه.

وقِيلَ لَكْ: ما أَبْعدَكْ عن الشبهةِ لو أنَّكَ تُمْعِنْ قليلاً في الذي عليكَ أن تُتْقِنْ: ملازمةَ الخِزَانَهْ والْتِهَامَ الأدب برزانَهْ، وتَغْلِيطَ البَصّاصين بِتُرَّهاتِ القصَّاصين، وارتيادَ البارات، ومعاكسة الجاراتْ، والتَّخَفُّفَ من الجِدِّيَّةْ، وركوبَ السّلبيَّهْ، والتَّلهّي بالسّماع، والتظاهُر بالضياع، والاختلاف إلى المَلَاعِب والاستمتاع بالفُرجَةْ، واجتناب المصاعبِ ومجاراةِ تيَّارِ الموجَهْ. وقيلَ لكْ: ما أحدٌ أنْزَلَكْ من بُرْجِ المناضلِ إنْ باتَ لكْ سبيلٌ آمِنٌ من المقصلَهْ. ولقد صدَّقْتَ مَنْ صدَّقْتَ، فذهبْتَ في التَّقِيَّةِ واستهنْتَ بالمسألَهْ؛ لكنَّكَ ما إنْ بدأْتَ خَطْوَكَ حتى أعْظَمْتَ ما أنْتَ فيه وما أرادَ مِنْك القَائِلَهْ؛ فقرَّرْتَ أن تَؤُوبَ إليكَ وتسيرَ وحْدَكَ في القافِلهْ. ومن حسن حظِّكَ أنَّكَ ما اختَرْتَ من «برنامج السلامةِ» غيرَ أقلّه كُلْفَهْ: ملازَمة الخزانةِ وموادعة الأدبِ على الصحبة والألفه.

ـ ١٠٢ ـ

لكَ، منذُ عاميْن، تجربةٌ مع اللغةِ الُمَجَّرَدْه. وحينَ تَبْلُغُ العشرينَ بعدَ عاميْن قادمين، قد لا تدري إلى أين يأخذُكَ الشغفُ بلعبةِ الألفاظِ المُقَيَّدَهْ. تَعْشَقُ المُرْسَلَ وإن كان المنظومُ

في عُرْفِكَ أجْمَلْ. وتَأْنَسُ بالمَرْئِيِّ وما تَشْهَدْ وإنْ ميلُكَ في الأغْلب كان إلى الأبْعَدْ. أمّا اليوم، فَصِرْتَ ضيفًا على المجرَّدْ مُذْ دَاهَمَ الألمانيُّ الملتحي حياتَكَ، وباتَ مزاجُكَ الآنَ أسْعَدْ وأنت تعتركُ في ساحِ المفاهيم وتتمرَّدْ كيْمَا تَفْهَمْ كيف يكون العامُّ خصوصيًّا والواقعيُّ وهْمًا حسِّيًّا. وانغمسْتَ في الجدلْ كي تَسْتَبينَ كيفَ الأشياءُ من الأضدادِ تنشأْ، وكيف الانتقالُ الانقلابيُّ من الكمِّ إلى الكَيْف يَطْرَأْ. وأطَلْتَ التأمُّلَ في الفارق بين الأرواح والأجسادْ في ثقافةٍ يردِّدُ فيها الأحفادُ ما قال الأجدادْ. وكنتَ نفْسَكَ تسألُ كيف الدينُ للشعوبِ يكون أَفْيُونَا وأفيُونُك «العِلْمُ» وقد سَلَّمْتَهُ القلبَ والرأسَ والجُفُونَا؟ وهل كنتَ مجنونًا حين بدأْت تحْفظ «البيان» وتستظهر أنماط الإنتاج والطبقات وتَعَاقُبِها في الزمان؟ ولقد كنتَ بالقصيدةِ مفتونًا والآن تَفْتِنُكَ الجريدةُ، والتنظيرُ يَفْتِنُكَ، والمفاهيمُ في رأسك تَكْنِسُ الظنونَا. ما بَالُكَ تُغْرِقُ في التأمُّلِ وعن الكلامِ العاديّ ترفَعُ عرْشَ اللسانِ وتُنْزِلُ عنهُ اليقينَا؟ ما بالُكَ لا تقرأُ ما قَدْ قرأْتَ في الماضي من صحائف وما ضَاعَ منك حسابُهُ مِن كنوزِ لسانٍ أوْدَعتَها ذاكرةَ الحنينِ إلى البداياتْ؟ هل كان الحرف إلَّا فلسفيًّا فلا تتركَّب من جموعه غيرُ مفرداتِ المادَّةِ، والسيرورة، والصيرورة، والهويَّة، والكينونةِ، والحركةِ، والتغيُّرِ، والثورهْ؟ أين الوردةُ، والحَسْرَةُ، والمرأةُ، والجَمْرةُ، والمَرْجُ، والمَوْجُ، والريحُ، والشمسُ والمطرُ، والقِطَافُ وسورةُ الأعرافْ؟ أين «الأغاني» تُضيءُ لَيْلَكَ الشَّتَويَّ و«رسالةُ الصحابةِ» و«البخلاءُ» و«العقدُ الفريدْ»؟ أين «الحيوان» و«عيونُ الأخبارِ» و«العمدةُ» وما

النّفْسُ تشتهي والقلبُ يُريد؟ وأين القصيدْ، وما قال المتنبيّ في ابنِ الإخْشِيدي حين عادَ العيدْ؟ أين الآنَ مما كانَ وأينَ زمانُك هذا من الزمانْ؟ ستضحك منْكَ ومِن سؤالِكْ وتذهبُ ثانيةً إلى تَخْتِ رِمَالِكْ باحثًا في الغموضِ والتّضاعيفِ عن الأفُقِ الجديدْ. إذهب إليه إذنْ، واذهبْ إلى ما تريدْ، ولكن عليْكَ أن تراجعَ نَفْسَكَ لِتَعْرِفَ إنْ كان التَّخْيِيلُ - كما تدَّعي - أقلَّ شأنًا من التجريدْ.

- ١٠٣ -

أعظَمُ الكتبِ شأنًا ما أرْهَقَكَ وعَذَّبَكَ وأتعبَكْ وأذَاقَ جَفْنَكَ السُّهَادْ. أسوأُ الكُتُبِ ما قَرَأْتَهُ وطَوَيْتَهُ ومن خزانَتِكَ شَيَّعْتَهُ بلا طُقوسِ دفْنٍ تَليقُ بِهِ ولاحِدَادْ. لو كان العالمُ كلُّهُ كُتُبًا لَكَانَ أجْمَل. لو كان الكتابُ العالمَ كلَّهُ كان أكْمَلْ. لكنَّ الكتابَ أصْغَرْ والعالمَ أكْبَرْ والمعانيَ أوفَرْ والحروفَ قليلَهْ. فلا تقرأْ كثيرًا في المسافة بين الوجودِ والحِبْرِ حتى لا يداهمَكَ المستحيلُ ويَسْكُنُكَ الإكْتِئَابْ. يكفيكَ أن تَقْرَأَ كيْ تَهْنَأَ بما بين يديْكَ من كونٍ شحِيحْ، فَرُبَّ سُنْبُلَةٍ صَمَدَتْ حين شَجَرةُ حَوْرٍ تُسْقِطُها الرّيحْ. ولَكَ أن تستريحْ من عناءِ السؤالِ عن الفارقِ بين المَدَى والصَّدى، فليس لك في الأفُقِ جوابْ، وليس من حرَّاسٍ على الأبوابْ كي يَحْرُسوا يقينَك مِن خاطرٍ طائشٍ يُصِيبُكْ. وأنت طبيبُكْ إن عرفْتَ كيف تداوي جرحًا في القلب يُرِيبُكْ. كُنْ مَنْ أنْتْ ولا تبحث عن غيرِ مَا أنتْ، فأنتَ ما كُنْتَ وما ستكونُ غدا، وأنت لا تكون إلا ما كنت أمس أو ما ستشاءُ لكَ السِّنُون.

أنتَ ابنُ أوَّلِ الكلامِ في سِفْرِ شعبك: «اقرأْ»، فلا تَنْسَ النَّسَبَ ولو أبْطَأَتِ الذكرى ولا تَتَلَكَّأْ. أنتَ ابن حيِّ القُرَّاء الذين يرقُدون قربَ بَيْتِكَ؛ إن شئتَ فاقرأْ على طريقتهمْ، وإن شئتَ اعتزِلْهُم كلَّ وقْتِك. وأنت ابن حيّ الفقراء المتحلقين حول المَرْقد؛ إنْ شئْتَ فاقرأْ لوحةَ العالمِ في بُؤْسِهم، وإنْ شئتَ فَاعْرِضَ عن المشْهَدْ. ولكن عليك أن تقرأَ كي تُوقِدْ شمعةً في عتْمَةِ فراغِ مُجْهِدْ. واقرأْ كي تَهَبَ المعنى للأشياءِ وتَقْهَر خوفَكَ المدفونْ؛ واقرأْ لئلَّا يضيعَ منك الليلُ وتنسدل الجفونْ. اقرأْ حتى لا يُحَاصِركَ الغموضُ طويلاً فَتَذْهَلُ عنْكَ وعن حَوْلِكَ وتطاردكَ الظنونْ. واقرأْ بلا تمييزٍ: إنْ كان الكتاب رائعًا كسِبْتَهُ، وإنْ كان تافهًا فَضَحْتَهُ. وحين تَتْعَبْ، إبدأْ وقُلْ إنِّيَ أقرأْ.

ـ ١٠٤ ـ

ما الفرقُ بين الكتابِ والحشيشْ إن كان عليكَ أن تُصَابَ بالإدمانِ على الحروف فَتَحْمِلِ الكتابَ سرًّا وتضرب حول عنوانهِ الكتمانْ؟ أنتَ أشبهُ بالبهلوانْ إذْ تتقمَّصُ دورَ البريء والضَّحِيَّةْ، وأنتَ المُدَانْ بقراءةِ الكتب الممنوعةِ السِّرِّيَّةْ. وهل تُدْرِكُ ما تكونُ الورطَهْ حين تكْشِف أَمْرَكَ الشرطَةْ وتَصِلُ أخبارُكَ إلى أسماع الناسْ؟ تَطْرُدُ من رأسِكَ الوسواسْ وتؤجّل المَحْذُورْ، لكنَّك عمَّا أنتَ فيه من أمرٍ لستَ بمعذورْ. نَصَحُوكَ بالتَّقِيَّةْ فَدَلَفْتَ إلى الخزانةِ البلديَّةْ حتى لا تكون ظِنَّةٌ في ما تقرأْ. لكن البصّاصين كُثُرٌ وحاسَّةُ شَمِّ الكتب عندهم لا تهدأْ؛ وأنت على شيْخك الألمانيِّ وتلميذِه الروسيِّ مدْمِنٌ، وحشيشُكَ ممنوعٌ في

المكتباتْ. وإنْ أصَبْتَ حظًّا ووجَدْتَهُ، فَمَنْ يُدْرِيكَ أنه طعمٌ لِصَيْدكَ بالبيِّنَاتْ؟ ولقد حذَّروكَ من باعةٍ لا يبيعون الكتابَ ولكن يبيعون المشتري، وحسِبْتَ التحذيرَ تهويلاً وكلامَ مغالٍ مُفْتَرِي، إلى أن أتاكَ الخبرُ اليقينْ في ذلك اليوم الحزينْ: حين الكتبيُّ على زبونِهِ يشهد بكلامٍ مبينْ والضحيةُ في قَبْو الزبانية يُخفي سرَّهُ الدفينْ، وتشتعل السِّيَاطُ في جسمه وفي صوته يشتعل الأنينْ. وفي لحظةٍ من يأسكَ تسأَلُ نفْسَكَ: ما الذي يبقى في عتمة القبْو لِلظَّنين غير اجترارِ الشعر واحْترافِ الحنينْ؟ أنت قَطْعًا تَخْشى الخُطوب، لكنَّك عن إدمان الحِبْرِ لا تَتُوبْ.

ساحة هُوشِي مِنْه

ـ ١٠٥ ـ

ما كان بين مُرَّاكشَ وفاس ودٌّ موصولْ. دَعْ عنكَ كتبَ التاريخِ الرسميِّ وما تقولْ، واصْغِ إلى حكمةِ نوادر أهل الحيّ والنّكاتْ ولعبة الفارق بينَ الفُحولةِ والرخاوةِ في الحكاياتْ. في البدءِ كان كلامُ الجدَّةِ يَروي لكَ ما لستَ تعرفهُ عن البداياتْ، عن شِجَارٍ بين عاصمتين لا ينتهي ببَيْعَةِ سلطانٍ هنا ومَغَصٍ هناكْ. وحين تعلمتَ قليلاً ما دَبَّجَتْهُ الأقلام عن زمنٍ لذيذ، بِتَّ تَمْلك مِن تفسير الغامضِ العابر بعضَ ما يُفيد: عن مدينتيْن تتبادلان النِّكاياتِ والسطوةَ والدّعابةَ والتفاخُرَ بما بين يديْهما من الممالكِ والغنائم والمَعَالم والعبيدْ. وكبرْتَ تُدْرِكُ أن الفارق بين الرَّاء الثَّلغاء والرَّاء «الحَرْشاءْ» ليس فارقًا بين «وجهتيْ نظر» في النطقِ والتعبير، بل فارقٌ في القدرةِ على بيان الفارقِ بين الثابتِ والمَزيدْ. وأتَى مَن يُسِرُّ لكَ أن الخلافَ إنما كان بين «شَعْبَيْن» تَبادَلَا الخِصَامْ: واحِدُهُما أتى أرضَ الإسلام من أندلسٍ قَدِمَ إلى فردوسها المفقود من بلاد الشّامْ، وثانيهما تلقَّاهُ الزواجُ الفذُّ بين قوافلِ الأعْراب الوافدةِ إلى سفوح الأعالي و(بين) قادمةٍ من جبالٍ حَطَّتْ ركابُها في الخِيَامْ. وماذا بعد هذا الذي أَشْبَعَك من جوعِ الجوابِ وآمَنَك

من ظلامْ: أيُّ المدينتيْن إليك قريبٌ وأنت بينهما موزَّعٌ غريبٌ: مدينةُ والدٍ قَضَى في بلدتِهِ الحمراء التي منها أتى وكانْ، أمْ حاضرةُ أمٍّ نَزَحَ أجدادُها عن قصر الحمراء الذي كان لهم ذاتَ زمان؟

كان الذي كانْ، وكنتَ أقربَ إلى روايةِ أهْلِ أبٍ رَحَلَ عنك مبكّرًا فَلَمْ تَرَهُ مثلما رآهُ الناسْ، وأبْعدَ من روايةِ أمٍّ وخالةٍ مغمورتيْن بشعور الولهِ بضريحِ جدِّهِما إدريس ومن مَعَهُ من صُلَحاءِ فاسْ. وكان حينَ يَغْلِبُكَ النعاسْ، تتلهَّى بلعبة التفاضُل بين أصليْن فيكَ يعتركانِ كي تُنْضِج نومَكَ مليًّا. ثم بتَّ شقيًّا تقول في نفسكَ، وُلدتُ في مُرَّاكشَ وأخَذْتُ عن أهلها اللِّسانْ، وما همَّني إنْ كان جدّي لأمّي قاضيًا من عِلْيَةِ الأعيان، ولا إن كانتْ جذورُهُ تمتد إلى قرطُبَةَ والشامْ، فلقد كَفَتْنِي جدَّتي أمرَهُ حين انتصرتْ على قلبه وأجْبَرَتْهُ على أن يُصَاهِرَ بلادَ سُوس، وكَفَاني أبي ما تبقَّى حين تَخَطَّف قلبَ ابنته العروسْ. وكان يضيف في غيرِ شعورٍ بالخجل: كَفَتْنِي السماءُ أمْرَهُ حين تأخَّر ميلادي قليلاً إلى أن رَحَلْ، فلقد رُفِعَ العبءُ عن شعوري بالحيادِ نحوهُ، وحرَّرني ممَّا سمِعْتُ عن سلطانه العالي في السَّهل والجبل. ويَا جَدَّهُ، لَمْ تَتْرُكْ له ما يذكُرُهُ بأنَّك كنتَ الرَّجُلَ المُهَابَا وأن أَمْرَكَ أو نَهْيَكَ على الخلائق كان غلَّابا. شكرًا للصدفةِ أن يتأخَّر الحفيدُ قليلا إلى أن تَرْحَل كي يفترش أرضاً نديَّةً من أمَّهاتٍ ثلاثٍ وعنبر. لم يعرف عنك غير ما روى الناسُ عن صولتِكَ والصولجَانْ. فَلْتَدَعْهُ وشأنَهُ يختار أَصْلَهُ بين شجرتيْن تتنازعانِ دَمَهُ ومكانيْن فيه لا يتنافسانْ: حمراءُ يَطْرَبُ لاسمها، ومدينتُكَ التي حَلَّ بها.

وحيدًا في الحَافِلَهْ يردّدُ بين عينيْن مُغْمَضَتيْن الصُّور وهي

تتداعى كَقَوَافي يُنْضِجها في النَّفْس رحْلُ القافِلهْ؛ وكانتِ الأسئِلَهْ تهتف في رَأْسِهِ المحاصَرِ باللحظةِ الهائِلَهْ: ماذا دَهَاني حتى أيَمِّمَ شَطْرَ بَلْدَةِ جدّي، هل مُكْرَهًا على ذلك كنتُ أمْ أصبْتُ في اختيار المنزِلَهْ؟ لعلَّك ما كنتَ يا جَدُّ في الحسبانْ حين قيل للحفيدِ إن فاسَ وحدها الميزانْ لقياسِ ما يكونُ وما لا يكونُ لَهُ من حظٍّ في البيانْ. ولعلَّكَ يا جَدُّ ما حسِبْتَ يومًا سيأتيكَ فيه حفيدٌ لا يعنيه كثيرًا إن كنتَ أو لم تكن له جدًّا في الزمانْ. إلى مدينتِك تراهُ اليومَ يشدُّ الرحالْ كي يكتشف لغزَ تلك «الرَّاء» في لسانِ أهْلِكُمْ وسِرَّ ما ترسُمُونَهُ على وجوهكم من آياتِ العنفوانْ. واعْذُرْهُ إنْ قَصَّرَ في التَّجِلَّةِ والتبجيلْ، فهوَ من غير خُلَطَائِكَ ولا أنت له الخليلْ؛ ولا هو رآكَ يومًا فَكَحَّلَ عينيْه بطَيْف جسْمِكَ الجليلْ. أخذوهُ طفلاً صغيرًا إلى قبركَ في طنجةَ كي «يتبرَّك» بالزيارَهْ، لكنه نسيَ تمامًا أنه كان بصحبتهم، ربّما لحداثة عهدهِ حينها بالتذكّر، وهو الآن يقولُ لكْ من دون رغبةٍ منه في التنكُّر: إنني ابن أبي الذي من صُلبكَ لم ينحدر، وابن أمٍّ وَضَعَتْها الجدَّةُ السُّوسيّهْ، فما شأنُك بي أيها الرَّاحِلِ المندثِرْ وأنا أخوضُ في رمالِ الرحلةِ الفاسيَهْ؟

وفي طريقٍ طويلٍ يَخترق الأطلس، كانتِ الحافِلَهْ تَمُرّ بالسَّابِلَهْ...

ـ ١٠٦ ـ

ما أشبه «ظَهْر المهرازْ» بالقلعة الموحِشَةْ. قليلٌ من الحنينِ إلى العباسية يُشْعِلُ مِلْحَ الكآبةِ في دمك ويُضِيع على إبحارِكَ في

المجهولِ الطريقَ إلى اليابِسَهْ. ما هكذا أتَتْكَ أصداؤُها وأنتَ هناك في الحمراءِ تتحرَّق لرؤيةِ ساحةٍ حَسِبْتَهَا أدفأ من لياليكَ المؤنِسَة. خُذْ من مِزْوَدَةِ الحنين قليلاً ممَّا يُدَثِّرُكَ من عُرْيٍ وزَمْهريرٍ يعبث في أرجاءِ هذه القَلعةِ البائِسَهْ. قسمةٌ ضِيزَى أَتَتْ بك وصَحْبِكَ إلى هذا المكان، وثرثراتُ رفاقٍ لا يعرفون عنهُ غيرَ ما يسمعون ملأتْ رأسكَ بالبيانْ عن الفارق بين فولكلورية حلقات الخرافة والحُوَاةِ والمهرّجين في جامعِ الفِنَاء وحرارةِ الهتافِ في المهرجانْ. ويا صاحبَ «البيان»: يا شَيْخَهُ الألمانيَّ الجَليلْ، دُلَّهُ على الدَّوَاءِ من هواءِ اليأسِ في هذا الفضاء الخانقِ، وهَبْهُ قليلاً من حِلْمِكَ كي يَجِدَ إلى الخروج من كربتهِ السبيلْ.

وتُطيلُ التحديقَ في اللامرئيِّ والسؤالِ عن لغزِ الذاكرة. هل أنا مصابٌ بمراكشَ، تقول في نفسكَ، أم هو جدّي يعاقبني بقلعةٍ جائرَهْ؟ قد كنتَ تريدُ الدخولَ إلى المدينةِ بعيدًا عن عيون جدِّكَ التي لم تَرَها إلّا في صورةٍ معلَّقَةٍ على الجدار، فَمَا مَنَعَكَ من الفرار إلى قلب المدينة والمكوث بين أسوار ثكنة تُرْهِق رأسَكْ؟ وفي الغَدِ، تَحْمِلُ نَفْسَكْ، إلى مدخلِ المدينةِ العتيقَةِ تَحْمِل نفسكْ، تَقْطَعُ الطريقَ صعودًا من «الرّصِيفْ» إلى «باب الجلود» وتَمُرُّ بالجدودْ: بالمولى إدريس والنجّارين حيث كانت أمُّك طفلةً تلهو. وتَسْهُو عن المارَّةِ والدَّوَابْ وأنتَ تقرأُ على الأبوابْ أسماء جامع القرويين والمدرسة العنانية وعيناك تبحثان عن بيت ابن خلدون بين أطلال دُورٍ هدَّمتْها السِّنونْ. يا أيها المفتونُ بالتاريخ: خُذْ رَيْثَكَ قليلاً وتَمَهَّلْ لَئِلَّا يفوتَكَ ما تراهُ العيونْ من حِسَانٍ فاتناتٍ يَخْتَلْنَ ماشياتٍ خارج ظلالِهِنَّ ويَنْثُرْنَ

سِحْرَهُنَّ من الجفونْ ومِنْ شبهِ ابْتسامةٍ سريةٍ يُخْفِينَهَا خِلْسَةً وتَقْرَأُها في الغضونْ. أيُّها المسكونْ بنداءِ الماضي والخوفِ من الجِنِّ والجنونْ، عبِّئْ عينيْكَ والرأسَ بالموجود وانْسَ المفقود، فقد تَضيعُ في الزِّحَامِ ويَضيعُ منكَ الخِتام.

- ١٠٧ -

تقاطَرتْ رسائِلُها والقلبُ تَفَطَّرْ، ورَوى لَوْعَتَهُ في الليلِ فَحَبَّرَ وأَكْثَرْ. وفي كلِّ رسالةٍ لَفْحَةٌ أو دمعةٌ أو صَبْوَةٌ أو شَهْدُ هوًى من هواهُ تَقَطَّرْ. وما كان أَحْرَاهُ أن يكون بقُرْبها لولا أن حِيلَتَهُ مع الذي هو فيه أقصرْ. وكان يخوضُ في أمرٍ كبيرْ: هكذا رآهُ حِين هداهُ إليه الرأيُ وأَمْعَنَ التفكيرْ. كان من أهل التحشيد والنَّفيرْ وتنظيم الناسِ جَحَافِلَ لليوم العسيرْ. ولم تكن تُسَاوِرْهُ الظنونْ بأنه صاحبُ رسالةٍ لأمْرِهَا اصطفَى نفسَه ونَذَرْ ولأجلها رَكِبَ الجنونْ. وما مَلَكَ المفتونُ بلَيْلاَهُ أن يُضَاهيَ بين حبيبةٍ ونقابَهْ، فَهُمَا في النفس سواءٌ كالقراءةِ والكتابهْ، وما بينهما في القلب أكثر من حبْلٍ موصولٍ وأمْتَنُ من خيوط القرابهْ. ويا أيتُها السحابهْ: ظَلِّليهِ من قيظ الانتظار حتى يَفِيء إلى هدوءٍ عنهُ يُغْضي، وانثُري جدائلَ شمسك يا بطحاءُ على رعشته الدفينَةِ كي يطيب له الذي يقضي.

- ١٠٨ -

تكلموا كثيرًا. أرسلوا الكلامَ إلى جهاتِ المكانِ كلِّها. جالوا في الأسفار، أنْطَقوا النصوصَ بما قالتْ وما لم تَقُلِ. قلَّما اتفقوا وكثيرًا ما اشْتَجَرُوا. وحين يتفقون، لا يطيبُ الحديثُ لهم

فيُمسكونْ. تلك عادتُهم في النهار قبل أن يَخْلُوَ كلٌّ إلى مَهْجَعِهِ وينطفئ الشجار. وفي الليل يُبْعثون من تحت رماد حريق الخلاف، يدبُّ الدفءُ في رؤوسهم، ويُسْرِجون الليلَ للغِناء. ويذهبونْ، إلى البعيد يذهبون: يقتحمون السجون ويطلقون الأسرى، يصرخون في الشوارع فتتداعى لهم الجحافل، يرفعون النداء كمن يؤذّن فيتردَّد الصدى في الفضاء؛ يرقبهم البوليس ولا يقترب، تلمحهم الجموع فَتَنْجَذِبْ. يزورون مواقع الثوار في فييتنام وجنوب لبنان، يتجاذبون الحديث مع المقاتلين ويتبادلون آخر الأخبار. وفي آخر الليل يتعبون، ويستسلمون لنوم تغمره رائحة الدخان ويَخْنُقُهُ ضيق المكان.

في حلقات الذِّكْر يجتمعون. يقول أكبرهم: عالمُنا اليوم يقف على قرنيْ ثور، نتوازنْ حينَ يَقِرُّ الثور وتَخْتَلُّ الموازين إن تَعِبَ أحدُ القرنيْن. يقول الأوسطُ منهم: القرنُ اليسارُ حصَّةُ المعذَّبينْ واليمين لكم إنْ شِئتُم أن يَحْمِلكم. يشتعل الملحُ في الدّم ويرتفع الكلام. يتساءل الأصغر إنْ كانت فرضية الثور سليمة فيضحكون. يَخْجَل من سِنِّه التي جَرَّأَتْهُ على غامضٍ لا يُدْرِكُهُ ويختار أن يَلُوذَ بالصمت ويستكين. هكذا عالمهم كانْ، في ذلك الفضاء الصغيرِ المغمورِ بالأحلامِ الشاهقاتِ والدُّخَانْ. كان اسمُه «ظهر المهراز»، أو هكذا في السجلّات الرسمية ودفاتر السلطة المحلية وضعوا له العنوانْ. لكن الاسم مَحَاهُ النسيان وأتَى مَن جَبَّهُ ومن نَعْتِهِ أخرجَهُ وأطْلَقَ العَنَانْ لأسماء عظيمةِ البركاتِ على سميِّها وفارعةِ العنفوانْ. فاختير لساحته العامرةِ اسمُ رَجُلٍ مِن جِلَّةِ الأكابرِ في ذلك الزمانْ. وكان يا ما كان، كان في حديثِ

هذا الزمان، قبل جيلٍ - أو يزيد قليلاً - من الأنام، كان مكانٌ مُشرعٌ للذي ليس ينتهي من الحبّ واليقينِ والتَّفَانْ؛ كان اسمه «ظهر المهراز» وساحةٌ منه احتلَّها اسمٌ كبيرُ المعنى في الوجدان: «ساحة هُوشِي مِنْه».

- ١٠٩ -

كلما أدْمَنَتْ المدينَةَ أَدْمَنَتْكَ وأَلْهَبَتْكَ وسَلَّمَتْكَ أسرارها الغَميسَةَ وصَاحَبَتْك في مساءاتٍ تستوحشُ فيها نَفْسَكَ وآنَسَتْك. وكنتَ تعطيها من وقْتِكَ ما خِلْتَهُ نوافلْ، وكانت تبادلُكَ من العطاءِ ما تَنُوءُ بهِ القوافِلْ. وبِتَّ بها كَلِفاً ولها نَدِيمَا وصِرْتَ لمساءاتها صاحبًا حميمًا. وزِدْتُمَا احتكاكًا، واتصلتْ بينكما المودَّةُ حتى كِدْتَ لا تَعْرِفُ منها فكاكًا. كنتَ لا تَتْعَب حين تَذْرَعُ في غَدِكَ ما غابَ منها عنك أمْسْ، وكنتَ تمضي إليها كما العاشق إلى امرأةٍ تَهْوَى الهَمْس. وتُمْعِن المسافةُ بينكما في التلاشي فتعتذرُ للمدينهْ عن خاطِرةٍ قديمَهْ مرَّتْ بك قبل نصفِ عام، وعن مكيدَةٍ كِدْتَهَا ذاتَ يوم فَأَحْفَظَتْكَ الذكرى ولَعْثَمَتِ الكلامْ. ماذا تبقَّى لكبريائِكَ المرّاكشيِّ - إذن - من عَزِيمَهْ بعد أنْ خَسِرْتَ حرب جدِّكَ وتجرَّعتَ الهزيمهْ ولَّما تُقَاوِمْ؟ أيُّها المُيَاوِمْ في مَزَارِعِ الماضي الذي يَسْكُنُك، هَلَّا فَسَّرْتَ لنفسكَ لُغْزًا أَلْغَزْ: كيف تَفِرُّ من التاريخ في الحمراءِ وتَضْجَرْ وتَخِرُّ أمامهُ هنا وتُقْهَرْ، هل كانت حمراؤُكَ عن حَمْل التاريخ أعجز؟

وكان أعجز من أن يجيب عن سؤالٍ مخيف، فهو يخشى أن لا يكون الحبُّ للحبيب الأول. ماذا لو أحبَّ المدينتين معًا؟ أمْرٌ

له ما بعده: ما الفرقُ بين المرأة والمدينة؟ إنْ أحبَّ الاثنتيْن، مَن يضمن أن لا يُحِبَّ امرأتيْن؟ ويُمْسِك قلبَه. هل أُشْرِكُ غَيْرَ هافيَّ؟ ويعود إلى رسائلها للمرَّةِ الألف كي يطرد عنه شبحَ الخوف.

ـ ١١٠ ـ

يشربون في الليل نخب الانتصار، فرياحهم تجري على هوى الإبحارْ: مظاهرةٌ، مظاهرتانِ، عشْرٌ، وحشْدٌ يَفيض عن سعةِ المكان؛ خطباء يتناوبون على منبر، وشعاراتٌ تُلَعْلِعُ في عنفوانْ. كسدت دروسُهم وأَيْنَعَ أطيبُ الأخبارْ: شاهٌ يَفِرُّ من هدير الشوارع ومدائن نيكاراغوا يتلقَّفُها الثوار. وماذا تقول انتخابات الجامعهْ غير أن التَّيارْ يتدفق هادراً نحو اليسارْ. فليشربوا، إذن، نخب الانتصار، وليرتاحوا قليلا من صخبٍ ومِن تعبٍ ومن حَطَبٍ احتطبوهُ من يابسةِ الماضي والقِفَارْ. ما بعد الانتظار شيءٌ: الفرارُ أو القرارْ. ولم يَفِرُّوا، وعلى الذي هُمْ فيه قَرُّوا وكَرُّوا. كان كلُّ شيءٍ مُعَدُا للمغامرة: جملتان طائشتان، وقبضةٌ في الهواءِ، ونشيدٌ ثوريّ، وأذْرُعٌ تتشابك، وهتافٌ يعلو، وبوليسٌ وحصارْ. كان كلُّ شيءٍ مُعدًّا بمقدار: أن ينالوا نصيبهم من الكرامهْ من دون أن تقوم القيامهْ. وعادوا ظافرين في انتظار جولةٍ ليسوا يعلمون إلى أين بهم تنتهي خِتامًا.

ـ ١١١ ـ

بين «الليدو» و«الأطلس» جِسْرٌ، والجسرُ على نهرٍ أُقِيمْ، والنهر إلى هدف لا يعرفه يمضي؛ وكان على وجهه يهيمْ أو

يستعيد مقطعاً من أغنيةٍ جديدةٍ لَحْنُها في الرأسِ لا يستقيمْ. طويلاً كان يومُهُ والتعبُ أخذَ منه الانتباه كما أخذَ جحيمُ «العملِ» طيف هدوئهِ الحميمْ. كان يمضي إلى هدفٍ أدْمَنَهُ، بيت أواهُ بعيداً عن الضوضاء وثرثرات الطلّاب في الحيّ القديم. وفجأةً دوَّى النداءُ العميق في داخله: قِفْ، فتوقف وقَفَلَ راجعًا إلى عَرينٍ ورفاقٍ يطيلون الليل في ليل ظَليمْ. لمْ يُفَسِّرْ لِمَ الترددُّ في المسير وهْوَ في أوَّلِ الطريقْ، لكنه كان يصدِّقُ هاتِفَهُ الدفينَ في نفسه حين يُفيقْ، حين يأمُرُهُ وينهاهُ أو ينذرُهُ، أو حين يدسُّ له خبرًا أو شؤمًا بأمرِهِ يَضيقْ. لم يُطِلِ السؤال عن النازلهْ ولا أجاب سائليه عن الأسئِلهْ. لكنه تَفَاجَأَ عند الصباح في المقهى حين أَخْبَرَتْهُ النَّادِلَهْ أنَّ غريبيْنِ سَأَلا عنه مساءً واحتلّا طاولهْ، وأَطَالَا الانتظار والمَكْثَ حتى العاشرةَ وعيونهما تمسح الذاهبين والآيبن من السابلهْ، ثم ترجَّلا باتجاه الجِسْر وعادا بعد وقتٍ قصير. وتذكَّر حينها أنه من هناك مَرَّ بُعَيْد العاشرهْ بدقائق تكفي كي يعود عن الطريقِ إلى المغامرَهْ.

ـ ١١٢ ـ

المغامرهْ أن لا تحفظ حرمةَ الأساتذهْ، أن تخاطب بعضهم وكأنهم في صفّ التلامذهْ، وتجادلهم في ما تحسب أنهم يجهلون. مَن أدراك أنكَ أعلم بشؤون الخليقَهْ وأن الأفكار تنقاد لك طُرًّا بالسليقهْ؟ وما كان أغناك عن المُنَاقَرهْ لو تَغَيَّرَتْ رؤياك إلى المحاضَرهْ. أنتَ لا تصدق أن المعرفةَ بين الجدرانِ تكونُ وتَقْطَعُ بأن ميدانَها الممارسهْ، وهم يرفضون الخلط بين الألوان

ويأبون عليكَ الحقَّ في المعاكسهْ. والحقُّ حقُّهم في أن يذكِّروكَ بما تَبْغِي أن تَجْهلَ: سنِّكَ ووضْعِكَ وواجبكَ بأن تجيبَهم حين تُسْأَلْ. لكنك تريدُ الجامعهْ ساحةً أخرى للوغَى ضد السلطةِ والرأسمالِ والأحزابِ ومَنْ بَغَى؛ وهُمْ حِزبيُّونَ في أكثرهم وأنتَ عليهم تستكثر ذلك، وترى فيهم ما تشاءُ وحدك أن ترى وتقولُ فيهم ما لم يَقُلْهُ في الخمرةِ مالكْ. فَمَا بالُكَ عنهم لا تَفْرَنْقِعْ، ولماذا بدروسهم لا تستمتع؛ فَرُبَّ فكرةٍ منهم زادتْ من رصيدكْ، وربَّ خبرةٍ رفَعتْ من منسوبِ جديدِكْ. فتمرَّن على الحوارْ عَسَاكَ تُحْسِن الجوارْ وتَعْبُر بنجاحٍ جِسْرَ العلاقَهْ، وتَحَرَّ الطريقَ الفذَّ إلى التواضُعِ واسْعَ في طلبِ الصداقَهْ؛ فأنتَ لستَ فريدَ عصْرِك كي يَرْهَبُوكَ والرأسَ لكَ يُطَأْطِئُونْ، ولا هُمْ رُومُكَ كي يَشْتَدُّوا غِلْظَةً عليك ويُمْعِنُونْ. فتبيَّنْ سبيلَكَ إلى الأقْوَمْ، وتَحَمَّل خِلَافَكَ وتَجَشَّمْ، فلسْتَ الأعلمَ بين الناسِ أيُّها الأوْهَمْ.

ـ ١١٣ ـ

قبل نصف قرنٍ مات لينين ولم يَتْرُكْ لكَ وصيَّهْ، والميراثُ مخْتَلَفٌ عليه بين الأبناء والأحفاد والذّرّيهْ؛ وليس في البرّيّةِ شاهدٌ يَشْهَد ويفيد بلسانِ الواضح ويَجْهَدْ في بيان الغامضِ والمَقْصِدْ. وما بين يديْكَ من نصوصٍ لا يكفي كي تقوم البَيّنَهْ ويندَاحُ القلقُ عن العبارهْ، ومَنْ صَحِبْتَ من الشُّرَّاحِ متنازعون وكلٌّ عن غيرِه معتكفٌ في مغارَهْ. ألتوسير أقربهم إلى نفسِكَ - تقول في نفسكَ - وتختارُ من دون المَشَايِخ إيثارَهْ. لكنّ أسئلةً على رأسكَ ثقيلَهْ، ولا تَجِدُ إلى فكِّ طلسمها وسيلَهْ: كيفَ

يُعَوِّضُ الانتحارُ الطبقيُّ سلطان علاقاتِ الإنتاج، فيهزمُ التحليلَ العلميَّ ويَرمي بالواقع إلى الاستعارهْ؟ كيف ينتصر العمَّالُ ويَحْكُمُ المثقفون، وهُمْ في كلِّ وادٍ يهيمون، ويقولون مالا يفعلون؟ كيف تَنُوبُ الإرادةُ مَنَابَ القوانينِ فتَنْجَحُ الثورهْ، وتَتَأذَّى رصانةُ النَصِّ «المقدَّسِ» وتنكشف العورهْ؟ كيف يقاتل الثوريون بعضَهم بعضاً ويكون التَّكَايُدُ بينهم نَفَساً ونبضًا؟ وكيفَ وكيفَ وكيفْ يكونُ كلُّ هذا الحَيْفْ في معرفةِ الحقيقهْ، فلا يكادُ السائلُ الملهوفُ أن يأخذَ من الجواب رحيقَهْ؟ وكان الشِّقاقُ يوزِّعُ الرفاقَ بين مدرسةٍ في الرأيِ وطريقَهْ، وكانتِ الرفيقَهْ تملأ ليلك بالسؤالِ عن الفارقِ بين الحبيبةِ والصديقَهْ، وأنت توزِّعُ يومَكَ بين درْسٍ فاترٍ وحلقةِ نقاشٍ لا تنتهي في ألفِ دقيقَهْ!

ـ ١١٤ ـ

لم يَفْتَحِ اللهُ صدرَهُ يومًا كي يكونَ من أهل «فتح» فهو من قبيلة اليسار منذ تَصَفَّح في الخامسة عشرة من عمره مجلة «الحرّية». لكنه ضاقَ ذرعًا بِـ «الجبهة الديمقراطية» فحَوَّل الولاءَ إلى «الشعبيهْ». كان ذلك قبل عاميْنِ من الحصارْ وخروج الثورةِ والثوار من بيروتَ الأبيَّهْ. فلَسْطينُ تسْكُنُهُ ومَانَاغوا والثورةُ وجنوبُ لبنان، وهي بين يديْه نصٌّ أو مظاهرةٌ أو نقاش أو أغنيةْ، وأمنيةٌ قديمةٌ لا يبدِّدُها الزمانْ. وكانتِ القضيّةْ كيف يقدّم شيئا للقضيَّه أكثر من أن يبشِّرَ في الحلقات ويوزِّعَ «الهدفَ» و«الحرِّيهْ». ليسَ قليلاً مِن رفاقِهِ مَنْ يُؤْخذُ مثله بجورج حبش، لكن حَوَاتْمَة وإن تَنَاقَصَ المُعْجَبُونْ مازال يمْلك أن يزاحِمَ في

تلك الغُضونْ، ولو أن أحدًا من الثوار ما خَطَف الضوء والوهج من «أبو عمار»: تَسْحَرُكَ ابتسامتُهُ وشارةُ النصرِ يرفعُها والكوفيةُ على الرأس يضرِبُها والعِقالْ، وتَأْتَأَةٌ في اللسانِ تَمْرُقُ مسْرِعةً وعفويةٌ في الحديث لا يضارعُها في السِّحْرِ مقالْ. وكنتَ تُخْفِي إعجابَكَ في السؤالِ الماكرِ عن الفارقِ في السياسةِ بين الواقع والخيالْ أو تذهب في التواطُئِ مع «الخَتْيَار» إلى أنه لشَعْبِهِ الرمزُ والمثال. لكنَّكَ يوماً ما نسيتَ حبَشْ ولا أصابَ عيْنَ عقْلِكَ في أمرهِ غبَشْ. وعِشْتَ موزَّعًا بين الاثنيْن، طويلاً عشتَ موزَّعًا بين الرجليْن، تسألُ نفْسَكَ أيُّ الاسميْن إلى نفسِكَ أَقربْ؟ وكنتَ تَعْجَبْ من عجزكَ عن الجواب الأنسبْ، أو تُدَارِيهِ بأن التفاضُل بين الأحِبَّةِ في جُمْلَةِ الأعْيَبْ. ولقد كان عقلُ السياسةِ فيكَ يَمْلِك أن يختارَ، لكن الأمرَ في القَلْب أصعبْ، فليس في حُكْم الأصوبْ أن تَخْتَارَ بين الأقربِ من ذَوِيكَ والأهلْ، وربَّ من السَّهْلْ أن ينسى المرءُ المقارنَةَ ويَلُوذَ بالجَهْل.

ـ ١١٥ ـ

ما قبلَ الإضرابِ إضرابٌ، ما بعده إضرابٌ، وفي كلّ يومٍ إضرابٌ، وفي الرأسِ إضرابٌ، وإضرابٌ في النفسِ والمَعِدةِ والخيالْ. ما أوسعَ الدنيا لولا هذا النداءُ فيكَ إلى المحالْ. ما أحدٌ غيَّر العالمَ بالكلماتِ والهُتَّافْ. حتى الأنبياءُ خذلتْهُم ظروفهم والأحوالْ، فتحوَّلوا بِأَسِنَّةِ الرِّماح عن الحُسْنى وعن وَهْنِ الأقوالْ. وأنت لستَ في معْرضٍ وقيعةٍ كي تمتشق السلاحَ وتحترفَ القتالْ. أنتَ في وطنٍ لا يُنْصِفُ لكنه لا يحتمل الجدالْ.

يا ابْنَ أبيهِ وأمِّهِ، عِفَّ قليلاً عن الغضب وتعلَّم كيف لا تَرْكَب الأهوالْ.

ما قبلَ الإضراب إضرابٌ، وما بعدهُ إضرابٌ، وفي كلِّ يوم إضرابْ. والإضرابُ مَسْلَكُهُمْ ومَعْدِنُهم وقوتُ يومهم في ساحةٍ هُوشِي مِنْهْ. وفي الليلِ حلقاتُ نقاشٍ تنتهي باصطفافٍ يوزِّعُهُمْ على جدالٍ لا طائِلَ مِنْهْ.

- ١١٦ -

في كلِّ إضرابٍ حُجَّابٌ يَحْرُسونَهُ من الفوضى والخُطَبْ؛ وفي كلِّ إضرابٍ هُرَّابٌ يَفِرّون من المعركةِ بلا سببْ. وأنتَ بين الجموع تَصْرُخُ أو بقبضةٍ في الهواءِ تُلَوِّحُ أو في صمتٍ حِياديٍّ تراقبُ المشهد عن كثب. ما السببْ في أنكَ تَنْجَحُ في تنظيم التوازنِ فيك بين الهدوء والغضب؟ فما يمنعك، إذن، من أن لا تكون بينهم حين الشَّططُ فيهم يَزيدُ عن الطلبْ؟ ما العجبْ، يا عاشقَ الشعرِ، في أن يكون الإضرابُ أغْرَى لنفسِكَ وإن كان أقلَّ فائدةً من الأدب؟

- ١١٧ -

ما أقسى صيفَ فاسَ لولا أن الحربَ أشدُّ قسوةً من الحَرِّ. قد كان شيءٌ في الأفق قبلَ أمسْ، كان يُنْذر بالمعركة وبموتٍ غزيرٍ يَزُفُّهُ الإعلامْ. كان السلامُ أشبهَ بالخصامِ بين قبيلتيْن من الماضي تذْرعان الذكرى وتُسَلِّمانِ الحاضرَ للحُطَام. كملحمةٍ بدويَّةٍ نَشِبَتْ، وفي لَحْمِنَا الحَيِّ نَهَشَتْ، واتَّسَعَتْ رُقعتُها

والْتَهَبَتْ، فأصابَتْ منّا الضَّحِيَّهْ. وقُلنا إنها الحربُ فينا اندلعتْ، لَكِنَّا ما حَسِبْنَاها شُعُوبيَّهْ! ولقد عاد الذي كان أمس: في أيام العرب والفرس، وعُدْنا لا نفهمْ أيّ السُّبُلِ أقْومْ إلى تفادي القادسيَّهْ. كان آخرَ الصيفِ والمدينةُ تنحدر إلى الخريف، وكنّا نُعِدُّ العدَّةَ لعامٍ من الوعدِ المُخيف، لكن الحريقَ الْتَهَمَ الخيال والعزيمهْ. وكانَت روائحُ الهزيمهْ تملأ المكان من جديد، ومن جديدٍ تُسَلِّمُنا للسؤالِ المُمِضّ عن الحدودْ بين الممكن والمستحيل، بين العدم والوجودْ.

بغدادُ وطَهران: ضُرَّتانِ تختصمان، وروما تتفرَّج أو تُوقِدُ لحربهما الشمعدان؛ ويا وَيْلَكَ يا ابْنَ الذاكرة ممَّا يخبّئ لغدكَ هذا المهرجان. لحيتُكَ لا تشبه لحيةَ الخميني، فكُلُّ لحيةٍ وما نَوَتْ، لكنك ما رضيتَ له هذا الهوانْ. قد كنتَ أَكْبَرْتَ فيه الشهامةَ وهو يَعْلُو على شَاهِهِ وذَرَفْتَ دمعتيْن لأجله وهو يُذِل مَنْ أذَلَّ الأرضَ في هذا الزمان. ومنذ عام، خَشيتَ ما تخبئُهُ لِحْيَتَهُ للمرأةِ، والثورةِ، والفكرةِ، وما مَلَكَتْ يمينُ عَصْرِكَ من حقوق الإنسان. لكنك أخفيْتَ شكوكَكَ عمَّن حولَكَ لأن الوقتَ ـ تقول ـ يحتاج إلى عمامته، وصَوْتِهِ، وصولتهِ والصولجان. كان مختلفًا عن فقهاء عصرك، فلقد ظَاهَرَ الفقراء وما انْحَازَ إلى سلطان، وكنت تريدهُ لوقتٍ أطولَ قبل أن ينضج الجنين ويئين الأوان. وها أنتَ يا حفيدَ الإمام تخوضُ في موقعةٍ ستخطف مجْدَكْ وستجرِّدُكَ من وقارِكَ والحُسَام. وفي العراق يقارعُكَ الذي لا يُلَامُ عن الدفاع عن ذكرى يرصّعها الكلام. وما كان العبَّاسُ عدوًّا لابن أخيه، فلماذا، إذن، هذا الخصام؟

- ١١٨ -

رويدًا، تضيق نفسُه باليسار كأنه ليس منه ولا هُوَ من هذه الديار. ما شأن السياسة بالفراسةْ وقراءةِ طالعِ التاريخِ في فنجان الحماسةْ؟ وما معنى القداسةْ لنصوصٍ علاها الغبار وبَنَى فيها الماضي عُشَّهُ وفارقتْها الكِياسةْ؟ كان به بالأحزاب بُرْمٌ لا يُحَدُّ ونقمةٌ على إجماعها لَا تُصَدّ. وحَسِبَ اليسارَ أَهْلَهُ ورحْلَهُ الذي يحْمل، وما كان له به ما يُبْدِلْ. لكنه نفْسَهُ اليومَ يُمْهِلْ بعضَ وقْتٍ كي يُحَلِّل سِرَّ الشَّبهِ الخرافيّ بين الابن وأبيه فيقرِّر هل يُقِرّ الأمرَ أم يُبْطِل.

- ١١٩ -

أنتَ لا تَعْرف، إن لم تعْرف، أن بولانتزاس وحدهُ يعرف: أن الفكرةَ لعبةُ طبقهْ، وأن السلطة تكونُ صَدَقَهْ من فئةٍ تَدُولُ كما الأيام ولا يبقى من ذكرها غير مرثيةٍ للشفقَهْ. ما بالُ الفَلَقَهْ تذكّركَ بأولِ السلطة وأوَّلِ المعنى، وأنتَ اليوم تُدْرِك أنْ ليس عُرْفًا أن يكون القهر عنفًا أو سجنًا أو مشنقَهْ؟ ولقد وجَدْتَ صعوبةً في أن تفهمَ غرامشي على النحو الأمثلْ لأنك تَجْهَلْ أنه يجوز لك بعد لينين أن تسألْ إن كان أحدٌ أضاف شيئًا إلى فكرة المنجلْ والمطرقَهْ. وكان عليك النَّفَقَهْ من وقتٍ يَضيق على التنظير ويُرْهِقُه السؤالُ عن الواقعيِّ والخرافيِّ في المحرقَهْ. لكن ألتوسير يختصر الطريقَ عليك ويُحَرِّرُ إبْصَارَكَ للايديولوجيا من قيود الحَدَقَهْ. فترى الذي لستَ تَرَى من التشابُكِ بين المعرفة والسلطة وتَعْرف المداخل إليها والمخارجَ منها والطُّرُق. وسريعًا

تتبيَّن أن ابنَ خلدون قال من ذلك شيئًا وما سَهَا عن التشابه بين وظائف الجُنْد والمرتزقة، بين مَكْرُمَات أهل السَّيف ونصائح أهل القلم ولا أيّ منهما أسدى الخدمة للسلطان بلا سأم فأَوْفَى وأبْلَى وصَدَقَ. ومن حسن حظِّكَ في المسألةْ أنْ كان لبولانتزاسَ في فاسَ وكيلٌ معتَمَد اسمه محمد، وكنتَ عند الحاجة والالتباس تَسْتَفْتِيهِ في النازلَةْ فتجد عندهُ الخبرَ اليقين عمّا أعضل أمرُهُ عن أن يستبينْ. وشكوْتَ نفسَك لنفسك عن سرٍّ هذا الوَلَع الدفين في رأسك بِهَتْكِ حجابِ السلطةِ وكشف عورتها للناس. هل أتاك حديثُ الناس عنها حين إلى بعضهم يأنسون؟ لو كنتَ تَعْرف عنها ما يعرفون، لكنهم - بخلافك - عن أمرها منصرفون.

- ١٢٠ -

ما عَرَفْتُهُ حين رأيتُهُ

منتحلاً ملامحَ وجهي

وعلى شفتيْهِ شبهُ ابتسامةٍ

وما حَسِبْتُهُ - حين أَلْفَيْتُهُ أماميَ واقفًا -

غيرَ ظِلٍّ تركْتُهُ خلفيَ أمس

حين ودَّعتُ أشيائي التي هَجَرْتُ

وأخَذْتُ طريقي للظهيرةِ.

وما كنتُ فضوليًّا

لأسألَ عنه وعمَّن يكون:

ولماذا يقلّدني في النظرةِ،

والمِشْيَةِ،

والتحديق في الأشياء.

ولقد كنتُ عنه مشغولاً

بأصواتٍ في رأسي تُعَاكِسُنِي،

وتدعوني إلى تذكُّر ما لست أذْكُرُ

من أمرٍ مرَّ بي في أمسي

وأرهقني.

لكني حين انتبهت إلى المرآةِ

تُوَاجِهُني،

وتضحكُ منّي،

خَجِلْتُ من خاطرتي،

وأدركْتُ أن ليلتي كانت حمراء.

ـ ١٢١ ـ

لولا غيفارا، ما كان لأورتيغا مكانٌ في القلب. خسرنا الشعور بعشق بندقيةٍ تَعْبُرُ الحدود بلا هوية طبقيَّةْ؛ وما عادَ يشفع لها أنها بندقيةُ ثورة، فليست الثورةُ في عُرْفِكَ محضَ قضيةْ، والأهميَّةْ لمن يقومون عليها من طبقات البشرية. كنتَ تستثني فلسطين من الحساب لأنها لا تقاوِم حاكمَها أو نخبةً

سياسيَّةْ. وكنتَ تقول في ثبات: حين تقوم دولتُها، سأعارض عرفات وأُوَالي «الجبهة الشعبية»؛ فالطبَقات هناك الآن مؤجَّلَةٌ إلى أن يَحين موعدُها: حين يَرِثُ الطغاةُ الغزاةَ فتبدأ المعركةُ العبثية من أجل السلطةِ والثروةِ والحقيقةِ الأبديَّةْ. أما الآن، فلا مهرب من الإيمان بأحكام التاريخ وقانون الأولويَّةْ. أنت حانقٌ على الشعبويَّةْ، وخصومُكَ في حلقات ساحة هوشي منه يتهمونك بالنزعة الطبقويَّة؛ لكنك ضعيف أمام الغيفارية وجاهزٌ كي تُظَاهِرَ مَنْ تعلّموا منها الأبجدية. أورتيغا منهم و«التُّوبَّاماروس» ولاهوتُ التحرير، وسائر أحفاد زباتا وساندينو والخطّابي الكبير. وما كان صدفةً أنك مع أورتيغا والساندينية كنتَ تعيد مصالحةَ كلّ شيء فيك خاصَمْتَهُ: الدين وعبد الناصر و«فتح» وأحزاب الحركة الوطنية.

ـ ١٢٢ ـ

يحلم كثيرًا بالبعيد فيُبْدِي في الحساب ويُعيد. هذه ثورةٌ في ذلك المكان من أفريقيا تندلع ولا تَأْبَهُ بما يفعل سافيمبي في العراء. وتلك أخرى في ماناغْوَا تقتلع ما ترك مرتزقة الكونتراس خلفهم من خراء. وهذه السماء التي فوقنا لا تُمْطِر وسحابُها يَشِحُّ والقيظ يلفح الفضاء. وقد يأتي الربيع أصفر، لكنه سَيَحْمِلُ صفصافهُ فوق الهواء. وقبل أن ينتهي الشتاء، لابدّ من ثورات جديدة كي يرتفع العلم الأحمرُ، كي تستطيب الأرض غَدَهَا وتكون لهُ أنضر. وكان يَجْهر بما لا يُطيق أن يُسِرّ؛ وكان يُصِرّ أن يحلم كثيرًا بالبعيد فيعيد إلى النفس

توازنها الفقيد. وكان في كلّ عيدٍ يَحِن إلى أهله وإلى أمانٍ تذوَّقَهُ في عشٍّ بيته ومن ذكرى ماضيه يستزيد. وكان لا يريد أن يدرك أنه، هنا في فاس، سجينُ ثورةٍ من قرنفل لا تزيدُ عن حدِّها النظريّ ولا تَحيد.

ـ ١٢٣ ـ

في فاس، يتملَّكُك الإحساس بأنك على العالم تُطِلُّ من عَلٍ وترسم الخرائط. هناك ترى كلَّ شيء: جُنْدٌ يُهْزَمون وأذيالَ الهزيمة يجُرُّون، وآخرون يَكِرُّون ويرفعون إلى الأعلى شارةَ النصر؛ طبقات تَصْعَد من تحت وأخرى تضمحل وثالثةٌ تحت وطأةِ حيرتها تَئِنّ. نساء يرتدين الكاكي ويَسْحَبْن رماد الرجولة خلْفهنَّ إلى حتفه، وورْدٌ تسقيه النائحاتُ على زمنٍ مضى وانصرمت حكايا أمْسِه. هناك تُسلِّمك السماءُ إلى سمائها ويَلْفَحُك الأولياء بنسمة السلام الأبديّ. وهناك يقْعى السؤالُ عن الممكن فوق مِصْطَبَةٍ من قلقٍ مُزْمن. هناك لا هناك غير ما تراهُ عيناك وما قلبُك المحزون يُعْلِن. ويا مَنْ على العالم مِن فَاس يُطِل، ترجَّلْ قليلاً وافْطن لفارقٍ بين اللحم والمعدِنْ، بين عمارة في الرأس تعلو وأرضٍ رخوةٍ بالخراب تُؤْذِن.

ـ ١٢٤ ـ

لا يُؤْذِن بالخراب غيرُ الظُّلم، قالها ابن خلدون ومضى كالحلم. وأنتَ تبحث عن بيته، تسأل الطُّرقَ الضيقةَ عن لغز هذا القانون. لقد عمَّ الظلمُ يا ابنَ خلدون، لكنَّ الخرابَ تأجَّلْ، وأنا

والمنجل، وأنت في الحاليْن لا تفْعَلْ غير تقطيع الوقت البطيء بالأسْهَلْ.

- ١٢٦ -

كان إذا انصرف نهارُهُ وأسْدل الليلُ ستارَهُ، يَفيء إلى الأغنيهْ، بها عن الاحتقانِ ينفِّسُ ولِغَدِهِ يَفْتَحُ الشهيَّهْ. وللأغنيةِ طقوسٌ كطقوس العبادهْ: العينان مُغْمَضَتَان وللصمتِ السيادهْ. لا حديثَ - حين السَّماع - يَجُوزُ ولا بياناتُ القيادهْ. فأنت في حضرة فيروزَ أو الشيخ إمام أو مرسيل أو زياد أو موزار أو ابْرامسْ: أهل الريادة. وقد تسمع قَعْبُور والهَبْرَ ومَكْدَاشي والهادي كَلَّهْ من باب الاستزادهْ. لكن سعيدًا بجوارِكَ وعودُهُ كالبَلْسَم يُشفيك ويُغْنيك عن الوسادَهْ، إن تجاهَلْتَهُ خَسِرْتَ ليلةً وأضَعْتَ على تَسَلْطُنِكَ الرِّفادة.

- ١٢٧ -

جمعَتْ بينهما الصدفةُ ومحطةُ القطار، وانتظارٌ طويلٌ تقرَّحتْ قدماهُ وأدماهُ الحنينُ إلى غفوةٍ سانِحَهْ. وكان عليه أن يختارْ بين أن يوزّع الانتباهَ بالقسطاسِ، أو يرميَ من عينين هائمتين نظرةً جامحَهْ. وفي المكان الذي فيه كانْ، امرأتان تُشَيّعان الزمانْ، وتَرْويان ماضيًا معجونًا بالنسيان، وفي تفاصيل أيامه الطويلةِ تُدَقّقان؛ وشيخٌ يودّعُ موعدًا تصرَّم ولم يَبْقَ منه غيرُ ذكرى يَحِنُّ إليها. وبين يديْها، تُكَوِّر حسناءُ واقفةٌ نظراتِ المُعْجَبِين، وتَعْجن منها رغيفًا لِجوعِ أنوثتها الزاحفةِ على

أكرهُ أنْ يُقَالَ لي: لا تَعْجَلْ. وإن كان منِّي في الأمر بعضُ ريْثٍ، فكَمْ غيْرٌ عدايَ لا يتحمَّلْ. هل فاسُكَ فَاسِي وناسُكَ ناسِي يا صاحب العِبَر، أم عليَّ أنْ أغالب وسواسي وألجم لهفي وأُمْعِنَ النظرْ؟ وأين أفول العمران يا عبد الرحمن من نواميس الاجتماع في هذا الزمان: هل أصدِّقُ المقدمة أم أراجع المُسَلَّمَة؟ وما صدَّق أحدًا سواهُ. هاتفُهُ يُسِرُّ: قريبًا سينهار الذي كانْ، وتنشأ مملكةٌ للرِّضا في هذا الحيِّز الضَّيِّقِ من هفْواتِ اللسان. وكان يا ما كانَ في ذاك الزمان؛ كان السلطانُ لأهل الشوكة والمال والجاه والأخدان، وكان الأمانْ صكًّا ممنوحاً لغير الذين نُكِبوا أو سقطوا في الميدان. كان الختان طقسًا مقدَّسًا للَّذين هَادُوا والذين أسلموا والذين أَسْلَمَهُمُ الزمانُ إلى السَّجَّان. وكان يا ما كانْ، يا صاحبَ العمران، كانتِ الجرذان تفرض شريعتَها وتَضَع خَتْمَها على البيان، وتُعْلِنُ في الناس أن ما كان أمسُ لا يكون غدًا وأن العالم مَمْهُورٌ بِخَتْمِ النسيان.

ـ ١٢٥ ـ

قليلٌ من الشَّبَهِ بين الساحتيْن، لكنه يكفيك للإياب بخفَّيْ حُنَيْنْ. فيهما حلقات ورواةٌ وعجائب يصنعها الحواة. وفيهما جمهورٌ أدمن الإصغاء والقعود وتناولَ الفتات: من موائد الكلام الذي لا ينتهي في اليوم والغداة. في ساحة جامعِ الفِنَاء فيضٌ خرافيٌّ من المُدهِشْ؛ ومِثْلُهُ في ساحة هُوشِي مِنْه بعضُ ما يُنْعِش. تشدُّكَ الأولى إلى الماضي وتوحي لك الأخرى بالمستقبل، وأنت في الأولى كأنَّكَ عن الدنيا راضٍ وفي الثانية مأخوذٌ بالمطرقة

المسافرين. وكانت نفسهُ خائفَةْ ممّا كان، ومما سيكون غدًا بعد يوم حزينْ. وكان شيءٌ فيه ينمو، وكان شيءٌ يَئنّ، لكنه لا يُشْبه شيئًا ينمو ولا يُشبه الأنين.

- ١٢٨ -

قبل عاميْن، كنتَ تَحْسَب ٢٠ يونيو (١٩٨١)، لو وقَعَتْ، كرونشتاد ثانيةً أو كومونةً أخرى ككومونةِ باريس وشنغهاي أو حتى «عامية أنطلياس» في لبنان. لكنك فقدتَ الإحساس بقدرة الثَّوَرَانِ على إقامةِ البنيان. تقول لك الأخبارُ إن الجماهير احتلتِ المكان كاملَ يوم في أحياء البيضاء الشعبيةْ، وأن أزلام وزارة الداخليَّةْ أَعْمَلوا السَّيف في الفتيان. لكنك بعيدًا، بعيدًا في فاس عن الميدان، كان شيء فيك يَهْتف خلسةً: ما هكذا الثورةُ ولا التاريخُ يُولَدُ مثلما يُولَدُ الآنَ قبل الأوانْ.

- ١٢٩ -

يأخذُكَ فراغُ الروح إلى الصمت، يُسلّمكَ إلى رغبةٍ في الانكفاء. منذ رحلتْ قبل عام، اكفهرَّ الوجدان وارتفع منسوبُ الحزن في العينين. ما كانت جدَّةً فحسب ولا قطعةً من شجر الكيان، ولا أنت عنها كنتَ تستطيع غدًا خصوصيًا لكَ وحدكْ. وهل كنتَ تبني مجْدك إلّا بين يديْها مُذْ كانت تَطْهو نومَك بالخرافة وتلقي على وجنتيْك قُبلة الصباحْ؟ بين شفتيْها أعْذبُ ابتسامة وبين ذراعيْها أَهْدأُ استسلام، وإنْ أنَّبُوكَ وخاصموكَ وعاقبوكَ فعندها وحدها تَجِدُ الأمان. حضنَتْكَ صغيرًا ورعتْكَ

وانْحَلَّ ما عليه عزمي قد عَقَدْتُ». لن تَمْلأَ ليلَكَ الموحِش، ولن تنثُرَ الوردَ على ما أَعْدَدْتَهُ لَكُما من أمسيات.

- ١٣٢ -

كل شيءٍ في الدنيا يَئِنّ: الطفلُ، والمرأةُ، والجريحُ، والسَّجين، والحيوان، والبهلوان، ومُصارِع الثيران، والحُبُّ، والقلبُ، والطّحْلُب، والمارِدُ، والعابدُ، والماجِنُ، والكاهن، والفقراءُ، والشعراءُ، والوردةُ، والنخلةُ، وقوتُ يومكَ، والغرباءُ عن أهلكَ. . . ، والصمتُ أيضًا يئنُّ من نفسِه ومِنَ الكلام يئِنُّ، وأنتَ مِن خوفِكَ على غدٍ يُشْبِهُ آنَكَ تَئِنُّ، ومِنْ قبْلِكَ ما مِنْ نبيٍّ في الزمان كان ولم يَئِنّ؛ ويئِنُّ الخريفُ ومخاضُ الريح والذكرياتُ والهواءُ، وكُلُّ ما على الأرض أو تحت السماء. فكيف، إذن، يكونُ أنينُ القاتل ودمُ الضحية يَسيح في الهباءِ؟ ضعْ أمام عينيْكَ نجمةً سداسية لِيَجْلُوَ عن أنينِك البكاء.

- ١٣٣ -

لا فرق، أحيانًا، بين أن تئنَّ وأن تَحِنّ؛ فقد يترادفان في المعنى والوجدان، وعليك حينَها أن تحرِّرَ نفسَك من الْتِبَاسِ العلاقة. حين تَئِنُّ وأنتَ تَحِنّ، يكون الأنينُ دمعةَ ذاكرةٍ لا تُفَرِّط بالتفاصيل وتترُكُ محفوظاتها طازجة كبرتقال الخريف. يكون الحاملُ عندها شديدَ الوفاء للمحمول: يكسر حاجزَ المسافةِ بين «الهُنَاك» و«الهُنَا»، بين «الكانَ» ويكون، يتماهى مع المحفوظ، يستردّ تفاصيلَه، ولكن - أيضاً - ينتبه إلى أنه انصرم وتَمنَّع عن

بالجفنيْن، وإلى الكُتّاب القرآني حملتْكَ على الكتفيْن. وحين يسهو عَنْكَ من يسهو، تَمْلأُ وقْتَكَ بِزَادِ الأُذْنيْن. وكبرت بين يديْها مثلما شاءتْ وحَفظْتَ وصاياها المسائيَّهْ، وحين غِبْتَ عنها بعيدًا سكنتْكَ العبوديَّهْ لامرأةٍ لم تَعْرِفْ كيف تهربُ من أقفاص حبّها المنصوبَهْ. يا جدَّتَهُ المحبوبَهْ، لو تَعْلمين بِما يُجِنُّ من تَعَبِ القلبِ لَاعْتَذرْتِ لدمعةٍ سُكِبَتْ على رحيلٍ مَزَّقَ الأحشاء في الليلْ وأطلقَ المِلحَ في دمٍ ذاكرةٍ بين يديْكِ مصلوبَهْ.

ـ ١٣٠ ـ

هو أوْجَعُ صيفٍ سياسيٍّ في تاريخ البَلَدْ: انتفاضةٌ تُسْحَلْ، وجماهيرُ تُقْتَل، وصُحُفٌ تُقْفَل، ومؤتمرٌ طلابيٌّ يَفْشَلْ، وقراراتُ نخبةٍ لا تُسْأل، وقيادةُ حزبٍ تُسَاقُ إلى المعتَقَل. وهل، حقًّا، يَكُون لكل جبروتٍ أجَلْ. وماذا لو طالَ الأجلْ وتَبَخَّر الأملْ، وامتدَّتِ الحكايَهْ؟ ماذا لو كان صيفُ الواحد والثمانين بدايةً بلا نهايَةْ؟!

ـ ١٣١ ـ

قلتَ ستأتي بعد حينٍ، وربّما بعد لأيٍ، وقد لا تأتيكَ في أناة. لكنها في المطاف الأخير من الانتظار تأتي وتُغْلِق الظنون والترقّب. ها أنت الآن ناظرٌ طَرْقَتَها تفجؤُك، أو تُدثِّرك من صقيع يَلْفَحُك ويرميك في سُبَات. لكنك وأنت تعود إلى الغرفة هذا المساء، رسالةٌ منها تُفْجعُك، وتُوجِعُكَ من البرقيةِ آخِرُ الكلمات: «لن آتي غدًا كما وعَدْتُ، فقد فقَدْتُ قريبًا أمس

العودةِ الحسّية. وذاك ما يصنع الغصَّة والحسرةَ والألم والأنين. وحين تَحِنُّ وأنتَ تئِنُّ، شُكَّ في نفسكَ واسألْ عن سَوَائِك، واعلم - يَرْحَمك الله - أن تلك علامةُ اعتلالٍ لا علاج لها من نفسِكَ إلّا أن تُدْرِكها نفسُك.

- ١٣٤ -

إنْ لم تُؤَنِّثْ ليْلَكَ أنْكَرَك، ورمَى بك في عزلةِ المنتَهى. إنْ لم تؤنِّثْ رأسَكَ فكرةٌ ذهلْتَ، وعنْكَ أَضَعْتَ المُشْتَهى. هلِ الفكرةُ أنثى أم الأنثى فكرةٌ؟ تقولُ؛ لا تَسْأَلْ عن التشابه بينهما بعيدتيْنِ لِئَلَّا يُضْرِب عنهما الخيالُ. ولا تُقِمْ لعرشيْهما مملكتيْنِ على فرسخيْن من المكان لئلَّا تختصمانِ وينهار الوصالُ. خُذْهُمَا بجوارِكَ الآن معًا أو دَعِ الاثنتينِ ودَعْ عنك ما صَنَعَ بكَ السؤالُ.

- ١٣٥ -

صبّارتان ونخلتان ومدينةٌ بينهما تختال. وفي المدى متَّسعٌ للتسكُّعِ بين جدران الخيالْ. وأنت تمضي إلى ما لستَ تَدْري ويتكاثرُ في رأسكَ السؤالْ: ماذا أعددْتَ لغدٍ ليس لَكْ ولا شمسٌ فيه تضيء ما أَعْتَم أو تُرْشِدُ من يقصدون في الظهيرةِ مَأْتَمَكْ؟ وماذا تُوَدِّعُ - حين تودّع فاس - غير الذي كنتَهُ قبلَ دهرٍ وكان لكْ: لسانًا شَحَذْتَهُ في الخطابة وصار لكْ أَمْضَى من سيفٍ تقلَّدَهُ مَن خَلَّفَكْ، ورصيدًا من أحلام نَشَرْتَهَا في الفلاة حتى فاض من خسائرها ما أَخْجَلَكْ؟ وما أنْكَسَكْ وأنت تُحْني رأسَ المُدْبِرِ عن عرينٍ كنتَ سيِّدَهُ وما عادَ لكْ. ولك أن تُمَنِّي النفسَ بمن سيأتي

بعد حينٍ حي يَحْرُثَ في الساحة فكرةً ويَحْصُد ما أَيْنَع من ثمارٍ رُوِيَتْ بعَرَق الجبين. كنت تقول بلسانٍ مُبين: إنها دورةٌ من الدنيا وتمضي، فهل تُغْضي عمَّا مضى أم سيهزمُكَ الحنينْ؟ عما قليلٍ سترحَلُ إلى مكانٍ لا تعلَمُهُ، ربما قريبًا من المدينتيْن، ربّما بعيدًا عن الطنين. خُذْ زادكَ معك كي تُشْبِعَ جوعَ الفراغ المرّ: ذكرياتَك والكتبَ وما مَلَكَتْ يمينُك من الكلام الحُرّ. لا تَتْرُك خلفَك غيرَ ما يَخِفُّ به حَمْلُ قلبٍ مُحطَّمْ، فأنت الآن كالسِّرِ المختوم في المغَارة، وأنت كمُفْرَدَةٍ عَجْماء لا تدري ما السبيل إلى مُعْجَم.

باب الكتابة

- ١٣٦ -

وحدها الكتابةْ تحرِّرُكَ من الكآبةْ. أُكْتُبْ كي تهزم الماضي أو تَعْقِد صُلحًا مَعَهْ. ما هَمَّ الذي يكون بينكما بعد أن تَسْرُدَهْ. كلما ابتعدْ، أصابك الأفولُ الذي لا ينتهي؛ كلما اقتربْ، طابَ لنفسك أن تَجُوعَ وتشتهي. وما بينكما كلامٌ، وما بينكما حُسَامٌ، بِهِمَا الحربُ تنشب وبهما القصيدةُ تلتهي. أُكتُبْ حتى تكون ويكون الذي يكونُ في الكونِ: زُمُرُّدَةً تُضِيءُ الكئيبَ في الحَجَرِ أو طائرًا يَنْدب حظَّهُ العاثِرَ على شَجَرِ. أكتبْ، ففي الكتابة عَقَارُ روحٍ أصابها السَّقَمُ وبَلْسَمُ جرحٍ يهتاجُ به الألمُ. أكتُبْ ما تراهُ وما لا تراهُ وما قد تراهُ ليرتفع الغموضُ عن الأشياءِ وينداحَ العَدَمُ.

الكتابةُ شهوةٌ لا تُرَدُّ ونزوةٌ إنْ تُضِعْهَا ضِعْتَ وضاع منك النداء، والكتابةُ رشوةُ خاطرٍ ضاق به السكونُ وراودَهُ رعْدُ السماء. الكتابةُ لحظةٌ غَجَرِيَّةٌ إن تَعِفْهَا خَسِرْتَ الطريقَ إلى الأنوثةِ والصُّلْحَ مع الطبيعةِ وبدَّدت الدليلَ إلى الوسيلةِ في غبش الهباء. الكتابةُ ظَبْيَةُ الظِّبَاء، غزالةٌ تَحِن إلى طفولتها والغديرِ ومملكةٌ للضِّياء. أُكتبْ ما يَسْطِعُ القَلَمُ أن يدوِّنَهُ في ومضَةٍ من

زمانٍ عَجِلٍ لا ينتظرُ؛ وأكتُبْ على الألواحِ شريعةَ القَلْبِ في مملكةِ الحبيبَةِ وشرائعَ كسرى وقيصرَ والنجاشيَّ وحلفَ قريشٍ وما قالتِ السِّيَرُ. فَلَكَ وَحْدَكَ، أنت وحدكَ، أن تختار بين أن تعيشَ الدَّهْرَ مرةً أخرى أو يضيقَ بكَ المَدَى وتنتحرُ.

ـ ١٣٧ ـ

الكتابةُ أنثى تراودُكْ. تَحْسَبُها بين يديْكَ فَتَصُدُّكْ، وتَشِيحُ عن إغرائِها فَتَحضُّكْ. صيْدٌ يُغْريكَ بالعَوْم ويُغْرِقْ، ويأسٌ يُصيبُكَ في النفس ويُغْدِقْ. كلما هَمَمْتَ بها ابتعَدَتْ ورمتْ بك في الجَمْر، وكلما أغْضَيْتَ عنها اقتربتْ وسَقَتْكَ من جِرار الخَمْر. كأنك تعشقُها وتخافُها، تستطيبُ غِوايتَها وتَعافُها، لا تدري أيَّ طريقٍ إليها أقربْ. كالعقربْ هيَ إذْ تَلْسَعُك، وكَيَدٍ من السماء تَمْنَعُكْ. والأصعبْ حين لا تَجدُ السبيلَ إلى الأصوبْ: هل تنقاد إليها إلى حيث ترمي بك في الرِّحلَهْ أو تلعب لعبةَ الباحث للفكرةِ عن جُمْلَهْ؟ وأنت لا تدري ما تُريدُ من الجمرهْ إن طال بك المكثُ طويلاً، فالرمادُ حصَّتُها من النهاية وإن زَندَتْ وشَعَّتْ قليلاً، وأنتَ إلى صَهْدِها تحتاجْ وإلى ندائِها النبويِّ تَهْتَاجْ. فلا تتأخَّرْ كثيرًا وخُضِ المغامرهْ، وراودْها كما هي في المساءِ تراوِدُك، وابْسُطْ لها سجَّاد وقْتِك وأعدَّ كأسًا للمسامرهْ، فقد يخبو الذي فيك سريعًا ومَن أدراكَ بعدَها أنْ ستُسْعِفُكَ المبادرهْ.

ـ ١٣٨ ـ

الكتابةُ جنازةٌ مهيبةٌ للنسيان: تُشَيِّعُهُ إلى قَبْرٍ على ورقٍ أو حَجَرٍ أو شَجَرْ، وترفع الماضي إلى مقامِ العنفوانْ. ما كان تاريخٌ

بغيرِ الكتابةِ في الزمن القديم؛ وما كان إنسانٌ قبْلها قد تَسَلَّق السُّلَّمَ كي يعلو على جنسِهِ ويَقْهَر فيه الوحشَ الدفين. ففي كلّ رُكنٍ من نفسِهِ كان يسكُنُه الحنينْ إلى طفولةٍ أضاعها في القَفْر أو في الغاب مُذْ طَهَا الَّلحْمَ وتدثَّرَ وأقام العمران. والكتابةُ برهانْ على أن الذي كانْ لا ينتهي في لحظةٍ ولا يَطْويه الزمانْ. دوِّنْ كي تبقى وتحفظ نَسْلَكَ والذكرى، فما مِنْ مَذْهبٍ إلى البقاء مِن غير ديوان؛ كذلك ردَّدَ القدامى وقالَتِ التوراةُ والأناجيلُ وعلَّمَ القرآن. وفي الدنيا ما تشاء وكلُّ شيءٍ بحسبانْ: أن تأخذ ما تَسْطِعُ وتعطيها بقدر ما به تَتَكَافَأُ الكفَّتانْ. والكتابةُ ميزانْ كي تزِنَ الذي لك والذي عليك: لَكَ أن تستمْرِئ الكسل وتتقلَّب في الفراغ، أن تأكل ما تشاء وتقرأ ما تشاء وتَنَامَ متى يَثَّاقَلُ الجفنان. لَكَ أن تَعُدَّ الليالي الماضيهْ وتَضْرب في أصفار اليمين الباقيهْ وتُلْحِقَ ما لا يسوغ بما يُسَاغ. ولك أن تَنْقِمَ وتَظْلِمَ وتَهْدِمَ وأن تلعن الدنيا بالكلمات النابيهْ. ولَكَ أن تَنُوحَ وترفع إلى السماء المَظْلَمَهْ؛ ولَكَ أن تبوح بما تُسِرّ في نفسِك من دون مَحْكَمهْ. لَكَ أن تفيض عن حدِّكَ فتصير أوفر، وسهمُكَ أعلى من الفرسان وأظْهَرْ. لكنك، وأنْتَ تُمْعِنُ في الدنيا وتطلب الكوثر، لست عن الكتابة تَغْنى ولا بغيرها تعتلي المنبر.

- ١٣٩ -

الكتابةُ صاحبةُ القراءة، جارتُها وضُرَّتُها، وما بينهما حرفٌ وكتابٌ، عليهما تتفقان أو تختصمان، وفي البَرِيَّةِ عليهما تَشْهدان. في مرآةِ القراءةِ تتأمَّلُ الكتابةُ محاسنَها، تُرَتِّبُ زينتَها على مهلٍ،

تُخْفي التجاعيدَ عند الضرورة وتُفْرِجُ عن مفاتِنَها إنْ وُجِدَتْ أو بالأصباغ تصطنع الإيحاءَ. سيّدتان فارعتان تتنافسان على لهف المعجبين وتتعايشان في القلب، وفي الطريق تتأبط ذراعيهما ماشيًا في خُيَلاءَ. وإنْ تَمَلّ من إحداهما فالأخرى جاهزةٌ لكي تملأ شعورَكَ الغبيَّ بالفراغ. قد تُسَلِّمُ في داخلِك أن الخلوةَ بالقراءةِ أجْدَر، وما أَحَدٌ في المسألةِ يُجَادل، إذِ العشقُ ـ كما يُقَال ـ يكونُ للحبيبِ الأوَّل. لكنك إذْ تختلي بالكتابةِ تَرَى العالَمَ أنْضَرْ، وأن شيئًا في الدنيا لا يَعْدل خلوةً يَفيضُ منها ما يزيدُ شَهْدًا عن المعدَّلْ. وأنتَ عليهما معًا لا تملك أن تُسَاوِمَ أو تُفَاوِضْ، فما لقلبٍ عاشقٍ وَلِهٍ بين عشيقتَيْن أن يُقَايِضْ.

ـ ١٤٠ ـ

القراءةُ كتابةٌ بالقوة، تمرينٌ صامت بِحِبْرٍ سريّ، برتقالةُ غدٍ لم تيْنَع كشهوتها، امرأةٌ مأخوذَةٌ بسرِّ أنوثتها. كلما تأخَّرَتِ الكتابةُ نَضَجَتْ أكثر، لكن من طول التأخير ما يعْقِر القريحةَ ويُقْحِلُ المنبرْ. والأجدرُ أن لا يمتدَّ الانتظار كي يَعْبُر الحرف من العيْن إلى المجْهَرْ: نصًّا يَتَحيَّنُ غَفْلَةَ المتكلم كي يَبُوحَ بشهوةٍ يَخْنُقُها مؤلِّفٌ فاشِل. الكتابةُ لا تخاتِل أناملَ ترتجف من مقصلةِ ورقٍ أبيضْ، الرسمُ فيه ممنوعٌ والمعنى أَجْهَض. الكتابةُ كالصهباء تُثمِلك وتُنْذِرُك بصباحٍ عصيبٍ على رأسٍ يُثقِلُك وبِحَمْلِ ليلٍ طويلٍ في حساب نَزْواتَك لا يُمْهِلُك. الكتابةُ لعبةٌ حمراءُ حين لا تحفظ للذكرى حرمتها، والكتابةُ امرأةٌ شمطاء لا تدري إلى أين طريقُها يأخذُكْ.

ـ ١٤١ ـ

أن تَخِيطَ نصًّا من حروفٍ مبعثرهْ، تُدْفِئُ فكرةً تَذْروها الرياحُ البارِدهْ. أن تنقش على ورقٍ رسْمَ خاطرةٍ عابرهْ، تَحْرُسُ بقاءَها من نهاية فاسدَهْ. أن تُخْرِجَ اللامرئيَّ إلى المرئيِّ، تحفظهُ من الرقاد في كهف ذاكرةٍ خامدَهْ. أن تُفْصِحَ عمَّا تُسِرُّ، تُقِرُّ بأن الأشياء من غير الكلمات علامات بلا فائدهْ. أن تفضح ما تَحْجُبُهُ الألفاظُ، تصيرُ عموميًّا وتَصْنَعُ ترياقًا للأفئدهْ. أكتُبْ حتى لا تفرّ منك الفكرةُ وتَطيرَ السكرةُ وتجفّ فيكَ الأوردَهْ. وأكتُبْ ما طاب للوجدان من الهوى، وما نقش الأحياءُ على جدرانهم، وما تركَ الأمواتُ على رصيف الماضي من بقايا ذكرياتٍ مشرَّدهْ. أكتب كتاب البقاءِ أو كتاب الرحيلِ أو ما شاء لك الفؤادُ في ليلة الانتظار المُمُدَّدهْ. أكتُب وصيّةً أو قصيدةً أو روايةً أو مقالةً واترك عليها بصمةً لا تكون بالنسيان مهدَّدَهْ. أكتبْ بعضَ ما علِمْتَ وذُقْتَ وشَهِدْتَ مُذْ وُلِدْتَ ووعَيْتَ وحفظت سورة المائدهْ. لا شيء ستترك خلفك في هذا العالم غير حرفٍ نَقَشْتَهُ على ورقٍ أو كلماتٍ خَرَجْنَ منك كالعاشقات على مِنضدَهْ. لا شيء يغنيك عن الوجود سوى عدمٌ يَهْدمُهُ التدوينُ وتَهْزِمُه المفردَهْ.

ـ ١٤٢ ـ

أكْتُب أكثر كي تقرأ أكثر: هي وحدها المعادلة التي تصحّ وتستقيم. ما صحّ في الدنيا أن المكتوب على ذكرى المقروء يشيّد عرشهُ ويقيم. ولا صحّ أن حرفا منك يخرُجُ كي يشيّع حرفًا إليك يأتي وهو رميم. كلما خطَّتْ يَرَاعُكَ جملةً، سَكَنَ

الحنينُ إلى المِزْوَدِ فيك واشتعل الغليلُ للكتاب. كلما ألقيْتَ تحيةَ الحرف على الورق وأودعْتَ في بياضِهِ شيئًا من تعب النهار وهدأة الليل، ألفيْتَ داخلَك ضنينًا بالجواب وملبَّدًا بالغياب ورصيدُك من العلم أشحُّ وأصغر، فتكتب أكثر كي تقرأ أكثر، ويصيبُك من رعشة القلمِ السحاب فتصير أنْضَر وباللّيل تكون أجْدَر.

- ١٤٣ -

ماذا تكتُبُ وما أنتَ بكاتب، ولا أنتَ في هذا الأمْرِ براغِب؟ تُعْظِمُ الكتابهْ وتَسْتَهْوِلُهَا كثيرا ويُشْعِرُك شأنها بالمهابَهْ. وقد تخشى أن تُجرّب حظَّك منها فلا تظفر بشيء، فيأخذُك الفشل الزّعاف إلى الكآبهْ. ما عُدْتَ من حزب الخطابهْ، ولا يُفيدكَ أن تكتب في أغراض الشارع والإضراب والحزب والنقابهْ. ولا أنت تبْغي أن تكون أديبًا مهووسًا بِصَبِّ القولِ في قوالب الحماسة والصبابهْ. ففيمَ اليومَ تكتب حين تُعْرِض عن المألوف ويَعِزُّ على الروح أن تجدَ لجذوتها سحابَهْ؟ قد كنتَ تَقْرِضُ شعرًا في ما مضى، وتَهيم في الذي تشيّدُهُ من قلاع الهوى والثورهْ، وتروِّضُ الكلمات على مراودةِ الحسناوات والعيونِ الحورِ وما عدَّهُ الفقهاءُ عَوْرَهْ. قد كنتَ تقلِّد شعراء الخمرهْ، وعلى طريقتهم في الكلامِ تنسُجُ أو تدبِّجُ صورًا تليق بالمناسبَهْ. قد كنتَ تَهْوى المداعبَهْ وتَشْغَف بصيْدِ ظباءِ الكلامِ في غابةِ لسان العربْ. قد كنتَ تبحث بلا سببْ عن ألفِ سبيلٍ إلى الطربْ على جرْس موسيقا شِعْرِ الأقدمينْ، لكن سلطان الأدبْ ما أدَّبَكْ وعن

السياسة ما أَوَّبَكْ، فَبِتَّ بها مسكونًا وبندائها مفتونًا وبإغْواءِ مفرداتها قَلَمَ المناضلين. وفي ليالٍ خَلَدَتْ فيها للنوم أجسادُ الخليقَهْ، كنتَ تلهو بالبحث عن الفارق بين الزَّيف والحقيقهْ. وأبْلَيْت في الهَمِّ حَسَنَ البلاءْ، ومحَوْتَ ما عَلَا المستورَ من طلاءْ؛ فكتبْتَ عن صراع الطبقات بعضًا لا يقل عن آلاف الكلماتْ، وأسرفْتَ في وصف القَهْر بما ضاقت بحمْله الوُرَيقاتْ. ثم أجْمَعَ الرفاقُ على قَلَمك وسلّموا لَك بسلطان الكتابهْ، وحكّموا في الجموع لسانَكَ حين اكتشفوا مواهبَك في الخطابهْ. ومن حينها، توَّجَتْك المصادفةُ مُحَرِّضًا وكنتَ عن أَمْرِ التدبيج مُعْرِضًا؛ فاستقامَ لك في كل الانتخابات أن تُحَبِّر رأيَ قبيلةِ الرفاق في بياناتْ وأن تزيد عليها كتابةَ التوجيه المناسب في المنافسات. لكنك الآن عن هذه «المهنة» أبعدُ المخلوقات، فقد فاتَ الذي فاتْ ـ تقولُ في نفسكَ ـ وما عاد القلم طَيِّعًا لمديح الأوثان. باسم مَن تكتُب، إذن، بعد انقلاب الميزانْ؟

ـ ١٤٤ ـ

أكتُبْ باسمكَ ولا تكتُب بلسان الجماعَهْ، فقد يَضيعُ منك ما لَكَ وحْدكْ ويختلط الخطابُ على المخاطَبِ وتُسْقِط عن مَرْكَب المعنى شِراعَهْ. أنت الآن فردٌ أوْحَدُ لا أَهْلَ لك إلّا مَن كانوا في عِداد السُّلالهْ؛ وليس من ضيْرٍ إنْ تَرْضى بقَدَرٍ لم تَصْنَعْه لكْ ولا فكّ رأسُكَ سُؤالَهْ. لستَ نبيًّا أو وليًّا ولا بطلاً من الأسطورةِ كي تفْتَدِيَ العالمَ كلَّهُ، لَا ولا أنتَ من الحُثالَهْ. أنتَ عاديٌّ تمامًا كحُزْنِ أهل الحيّ في المآتمِ وأنتَ من أرومتهم وفي

سُلالتهم محْضُ حالَهْ. فاكتُبْ مقالَهْ، رأيًا لكَ وحْدَكَ من دون سواكَ وإن قاسَمَكَ الناسُ والأصدقاءُ أحْمَالَهْ. واكتُبْ ما تَسْطِعَ من البُرْمِ بالعالَمِ السافلِ والْعَنْ في العلانيةِ والسِّرِّ مآلَهْ. فأنتَ الآنَ طليقٌ من اليقينِ ومن أصفاد الرفاقِ ومرشَّحٌ للذهاب في جنونكَ الفرديِّ حتى الثمالَهْ. اكتُبْ شيئًا عمَّا تريدْ: عن فكرةٍ تَخْبُو، أو طفلةٍ تَحْبُو، أو ثورةٍ تزهو، أو امرأةٍ ودَّعتْ عاشقها الليليَّ ورَثَتْ في الصباحِ جَمَالَهْ. أكتُبْ نداءَكَ الشخصيَّ وعُدَّ خِصالَهْ ولا تَلْتَفِتْ إلى ما يقول الحاسدونَ لجرأتِكْ. إنْسَ ما أنْشَدَ الشعراءُ من قبيلتكْ، وانْسَ الذي كان يومًا في جُعْبَتِكْ وأنْتَ تَلهو باختراعِ مجتمعٍ من عدمٍ وتتوِّجُ بإكليل المَجْد عُمَّالَهْ. أكتُبْ باسمكَ وحدكَ بعدَ إذْ صَارَ لَكَ اسمٌ مُفْرَدٌ من غير صيغةِ جَمْعٍ مزَّقت في الأمسِ أوصالَهْ. أكتُب ما تريدُ من الوصايا إلى مَن يأتونَ بعدَ انصرام يومِكْ ولا تَزْهَدْ في الذي عليكَ إزاءَ قومِكْ، فأنتَ منذ الآن ـ كقول الشهرستاني ـ صاحبُ مَقَالَهْ. وإنْ عزَّ عليك أن تكونَهُ أو على مثالِهِ أَمْرُكَ يستقيمُ، فَلَكَ أن تَطْلُبَ الشَّبَهَ والتشبُّهَ كي تكونَهُ أو تستعيرَ منه خصالَهْ. إنْ تَذْهَبْ على المذهب تَنْجُو، يَرْحَمْكَ اللهُ، وإلّا فأنت في نهاية مطافِكَ هالكٌ لا محالَهْ.

ـ ١٤٥ ـ

لا تسألْ كثيرًا عَمَّ تَكْتُبْ، فللكتابةِ شهوتُها وصَهْوتُها ورحْلٌ تَحْمِلُهُ. كالماء هي يصنعُ مجْراهُ ويتدفقُ لا شيء يَمْنَعُهُ؛ لا جبلٌ ولا صخْرٌ ولا كثبانٌ. والكتابةُ عنوانٌ لنفسها وما تُضْمِرُهُ. دَعِ

النصّ يخرُجُ منك عَفَويًّا ولا ترهِقْهُ بالقواعدِ والرسوم وخرائطِ القولِ فتخسرُهُ. أكتُبْ في ما تريدْ: في السياسةِ والثقافةِ والصناعةِ والربح والخسارة والحربِ والشهيدْ. أكتُبْ في ما يفيد، في الملاحمِ والهزائمِ والصراعاتِ والمجاعات والتنازعِ الدائمِ بين السيّدِ والعبيدْ. أكتبْ في المرأةِ والشهوةِ والثورة والحَسْرِة شيئًا من رأيٍ وشيئًا من قصيد. أكتُبْ في ما تريدُ واكتُبْ ما تريدْ، وارفَعْ قَيْدكَ عن قلمٍ ليس لَكَ عليه سلطانٌ من حديدْ. اكتُبْ بلا تَرَدُّدٍ كي يرتفعَ النشيدُ فيك وينْبلج الصباحُ المسيَّجُ بالضوء، ولا تسأَلْ عن الحرية خارجَها؛ أنتَ لا تتحرَّر بالكتابةِ إن لم تتحرَّرِ الكتابةُ منكَ ومن ضجيجها. كُنْ لها ما كنتَ للحبيبةِ والرفيق أو ما شئت من وجوهِ العلاقةِ ولا تَكُنْ عليها الرقيبْ. وأَعِدَّ لها من الأفُقِ المُزَيَّنِ ما استَطَعْتْ وأنْظِرْهَا لتجيبْ لهفةً فيك تعلو وتينَعُ حين تَسْقيها وحين تَهْجُرُها تخيبْ. أكتُبْ حين تصيبُ حظًّا من كينونةٍ تَسْمق فوق المتشابه والمألوفِ ومعدَّلِ الطبيعةِ في أيِّ جسمْ. اكتُبْ باسمك إنِ استَطَعْتَ، وإن لم تَسْطِعْ فبِأَيِّ اسمْ، ولا يَضُرَّنَّكَ أن يكون المعلومُ عند نفسِهِ غُفْلاً عند الآخرينْ، فما أخْفَى نصٌّ صاحبَهُ طائعًا ولا كان له من المُنكِرِينْ، وإنما هي الضروراتُ تُجَرِّعُ المرءَ مَرارَتَها وما الناسُ عن شِدَّةِ أحكامها بغافلينْ. واكتُبْ بعيدًا عن ثنائيات عصركْ، ولا تُقَسِّمِ العالمَ إلى مؤمنينَ وملحدينْ، حاكمين ومحكومينْ، ظالمين ومظلومين، مُتْرفين وكادحين، قَسِّمِ العالم تقسيمًا شِعْريًّا فميِّزْ بين الزُّهَّادِ والعاشقينْ. وإن كان اسمُكَ مستعارًا، فأَعِرْهُ اسْمَكَ حتى يكونْ ويشهد على زمنٍ تُسمِّي فيه نفسَكَ مرَّتيْنْ.

«سَمَّيْتَ» نفسَك مرتيْن: مرةً حين ولِدْتَ، وأخرى حين كتبتَ. وما كنتَ في الحاليْن مختارًا. فتحتَ عينيْكَ على الدنيا لتَجِدَ لنفسكَ اسمًا أطلقوهُ عليك، وما سألْتَ نفسك كثيرًا إن كنت بِهِ راضيًا، فالْتصقْتَ به والْتَصَق بك واصطحبتما من غير نزاعٍ ردحًا من الزمن بهيًّا. وحين كبرْتَ وداهمتْكَ السياسهْ، نُصِحْت بالاحتيال على أهل الفراسهْ فانتحلوا لك اسمًا إضافيًّا. وبتَّ ذَا الاسميْنِ كبعض أبناء جِيلك. وكان من حظك أن تصبح أحمد وتُنْسَبَ إلى آلِ العلمي، وعزّيْتَ نفسكَ قائلاً إن في الانتحال ستْرًا لصورة قلمي.ووقّعتَ بهذا الاسم ما تكتب وتَدَرَّعْتَ به دِرْعَ من لا يَهْرُب. وأخفاك الاسم عن الأنظار قليلًا، ورنَّ جرسه في نفسك رنًّا جليلًا. وألِفْتَهُ، وعن غير قليلٍ من رفاقِك أنكرتَهُ حين سُئِلْتَ عمّا بينكما من علاقَهْ. وكنتَ تُؤْثِرُ الصداقَهْ ولا تَضِنُّ عليها بالصراحهْ. غير أنك في هذا الأمر آثَرْتَ الكذب بلا مشاحه. فلقد كان في نفسك ما يطلب الأمان. وما كان لك أن تجحد خبرة الأقران وما فعلتِ الشفافيةُ بِهم على أيدي الزبانيهْ. ثم ما هي إلا سنوات قليلَهْ حتى طلّقتَ اسمك المستعار وعُدْت إلى كنْيَةِ أهلك وسمَّيت ذلك شجاعَةْ، وبتَّ لا تخشى أن تذيعَهُ في الصحف والمجلّاتِ إذاعَةْ. وما طاب لك يومًا أن تُعْرَف ولكن كنت تَقْرَفْ من هذه الصناعَةْ، فأنتَ وإنْ عشقت في الأدب الاستعارهْ تولّاكَ بُرْمٌ بالحديث من وراءِ ستارهْ. اسمان لكَ واسمٌ ثالثٌ بين الأهل كَاسْمِ الشيخ المصلح في أرض الكِنانَةْ.

لكنك مصرٌّ على ألّا تقول السَّهل ولا تَرَدَّدُ في أن تطلق للرأس عَنَانَه.

- ١٤٧ -

تطلق عنانَهْ وتكتب وتوزّع اليوم على القلم: بعضَ ليلٍ على الوجود، وبعض نهارٍ على العدم. تكتب بلا سأم: ما تشاء عن الآتي وغيرَ قليلٍ ممّا انصرم. تكتب عن الذات والعالم والطبقات والأمم. تَهْذي وتَعْقِل الأشياء وتختزن الألم. ما همَّك، إذن، إنْ خسرتَ الكثير في الدنيا وربِحْتَ القلم.

بَابُـهَا

ـ ١٤٨ ـ

في البدء كانتْ. وحدها في البرية تبحث عمَّن يُشْبِهُها فلا تَجِدُ. قمرٌ يغازلها حين يدنو، وعلى ليلها يلقي السلامَ ويبتعدُ. الماءُ يناجيها والريحُ والطيرُ وصورةُ وجهها على صفحة ماء البحيرةِ والأبدُ. وحدها في الفلاة ترتعدُ من شيءٍ يدبّ في أطرافها كالنمل فَيَحْيى الساكنُ في داخلها وينتفِض. في البدء كانتْ وكان الجسدُ امرأةً صرخَتْ في المدى: يا قريني أين الطريق إليك كي أدثِّرَ خلوتي وأضيء ليلَك الوحشيَّ وأنْتَهِدُ. هَبْني قليلاً من مائك كي أرتوي وخُذ من جسميَ نشوةً وخُذْ منه ما به يُشفي أو يَعِدُ.

ـ ١٤٩ ـ

ذكرٌ بلا أنثى كسمكةٍ من دون ماء. ماذا بعيدًا عنها يكون: وحشًا في الفلاةِ طليقًا أم كاهنًا يلهو بالفَناء؟ هي العزاءُ في شدّةِ الضّيق، هي الهواءُ في جنون القيظ، هي الرَّشا في حفلة ارتواء، هي الدواء لِمَن صُمَّ عن النداء، هي الخِبَاء وخَيْمةُ الروح في الصحراء. هي التي تَفِد في ركاب السحاب والياسمين، هي مَن

تجدُ في الميدان بعد فلول الهاربين. هي التي تَعِدُ، هي التي تَلِدُ، هي التي تنَظِّم البقاء للعالمين. الأنثى غابةٌ في رحيق، نكهةٌ للأعلى وشطحةُ خيالٍ شحيحٍ، والأنثى ما تركَ الزمان في نفسك من سؤالٍ دقيق.

ـ ١٥٠ ـ

لو لم يَكُنِ الحبُّ جِبِلَّةً لكان على الإنسان اختراعُه. لابدَّ من رعاةٍ كي تنصاع القطعان، ولابدَّ من دولةٍ كي يقوم العمران، ولابدَّ من امرأةٍ كي يتهذب الوجدان. الحبُّ سرٌّ إلهيٌّ قديمٌ وشهقةُ روحٍ في جسدٍ تعذّبه الوحشة، والحبُّ ذاكرةٌ تهزم النسيان.

ـ ١٥١ ـ

لولا الصبابة ما كان خمرٌ. لولا الشهامة ما كان فخرٌ. لولا الشجاعة ما كان جهرٌ، ولولا المرأة ما كان شِعْرٌ. مَن يكتب القصيدةَ في غيبتها يَخُون دورَه. لمن هي الكلمات إن لم تكن بين يديها صاغرة؟ السماء رداؤُها الصيفي وفي الشتاء يَتعرى خيالها من أسماله والريح تحملها إلى شهوته. هل للعبارة من طريق أخرى إلى دمه؟ ليس شاعرًا من يؤجّلها في قصيدتهِ كي يكتب عن الدنيا قليلاً من معنًى تبقّى شِبهَ منسيٍّ في جعبته.

ـ ١٥٢ ـ

لا تُحَرِّرِ المرأةَ من أنوثتها، حرِّرْ نفسكَ من ذكوريّتِكْ. عندها، تستحقُّها أو تستحقك، ويتسعُ الميزانُ لكفّتين متعادلتَيْن.

- ١٥٣ -

حين أَحْزَن، أُصَابُ بكِ مرتيْن. لا فرق حينَها بين أن تكوني فَتَاتي أو فُتَاتي أو أثاثي الذي يُعْجِبُني ويقْرفني؛ ولا فرق بين أن أكون حبيبًا أو صليبًا أو خِرْقةً مهملةً بين يديْكِ المبلَّلَتَيْن. الحزن عدوُّ الحُبِّ وطاقتُه، حسْرتُهُ وجَمْرَتُهُ: إن أَغْلِبهُ أسعفني بِزَادٍ خرافيٍّ لأحبَّ أكثر، وإن يَغْلِبُنِي صار عليَّ سيدًا تُنْهِكني قسوتُه. لكني قلَّما أفلحتُ في أن أهزمَهُ وأَحْمِلَ عرشي على كتفيَّ، فاعذري ضَعفَ قلبٍ حامضٍ عن المعنى المألوف يَنْحَرِفُ. فأنا أمامَك - سيّدتي - أعترفُ بأن يَدَيَّ متعبتانِ وأنَّ حَبْلَ قلبيَ أقصرُ، وأنكِ قد تكونين بشاعر غيري لا تَخُونُهُ القصيدةُ في المساءِ أجدرُ. فأنتِ، وإنْ أَبَيْتِ، أَبْهَرُ مما تظنين، وأوضحُ ممّا تُخْفِين على رجُلٍ يرعوي أمام البعيد أكثرْ. وأنا ليس لي من حيلةٍ كي أروِّضَكِ على الغفران أو أجعل حليب الذكرى في لسانك أخْثَرْ. فلتسمعي سيّدتي ما أقول لئلا تلوميني غدًا فلقد أعذر مَن أنذر.

- ١٥٤ -

على ورقٍ متبادَلٍ

يلتقيانْ،

يُضيئان عتمة الليل

ويُضْرِمانِ دفئًا

في خلوته.

هُمَا على الورق

لا يَخْجَلانْ،

يقولان الذي تَبَطَّن

فيهما

ويعترفانْ:

بخبيئتها وخطيئتهِ.

على ظهر حصانٍ

يُسْرجان الحُبَّ

ويرفعانْ

مَجْدَ العشاق في الزمانْ.

يكتبان ما كان

وما لا يعرفانْ

عن قَيْسٍ ومحنتِهِ.

في أنفاسهما مهرجانٌ

من الرعشةِ والنشوةِ

وفي الليل قمرانْ

واحدٌ لعينيْها

والثاني لقصيدتهِ.

من لهفتها تَنْسَى،

ومن لهفتهِ ينسى، ويَنْسَى

ما بينهما من مسافةٍ

في المكانْ

*

تَوَاعَدَا كثيرًا

وما الْتَقَيَا إلّا على

ورقٍ

في سحابةِ مساءاتٍ سريعَهْ.

لا أريدُكَ حامضًا

كبرتقال صيفٍ يانعٍ

لئلَّا ترى وجهيَ ممتعضًا

تقولُ.

أريدُكِ مبلَّلَة كزهرةٍ شَتَوِيَّةٍ

كي أرى السرَّ

على جسمِكِ الأعْزَلِ

يقولُ.

أُشْفِقُ عليكَ من عينيَّ

إنْ تراني

وأخشى عليَّ من عينيْكَ

إذْ تراني،

ولا أريدُكَ فضوليًّا على

شامات جسمي يَتَلَصَّصُ

تقولُ.

أريدني سلطةً وحدها

في خريطة جسمك تتخصَّصُ

إلى أن تقوم دولةُ العشاق،

فأضَعُ على رأسها إكليلي

أو أتْرُكُها تَدُولُ.

ويَطُولُ ما بينهما

من شغف الروح المعذَّبِ

ويطولُ زمانُ الوصْل

بينهما في حروفٍ

ظَمِئَت لأشيائها

وأتْعَبَها الرحيلُ.

*

كان يعشقها،

وبكلمات الوجْد يُرْهقها،

وكانت تُشْفِق ممّا

يُغْدِقْ

وتخافُ عليه من لسعةِ

قبلةٍ لا يتحمَّلها.

في الليل يناجيها،

وفي الليل تناديه،

وتتَّسِع المسافة بينهما

في النهارْ.

وكان إذا عَلَا الغبارْ

بين رسالتيْن

فما رأتْها الكلمات،

شدَّ رحالَهُ إلى قلعتها

وطوى المسافات

باحثًا عمّا ضَاع من النداء

في الأفق المُقْفَلْ.

وكانت حين تجفلْ

من عبارةٍ صريحة

تُسْرِج الريح إلى ليلهِ

فتعْبَثُ بالمنام السَّهلِ

وتذيقُه الحنظلْ.

كان أسْهَل عليه

أن ينسى ما كتب أمس

وأن يتذكر ما سيكتب في

المستقبل.

وكان أجمل ما

يليق بها أن يَعْدِل في الحبّ

بينها وبين المطرقة والمنجل.

ـ ١٥٥ ـ

للعشق طقسٌ لا يتبدَّل: الفَنَاء في مَنْ يقتسم معك أناكْ. إن كنتَ هنا أو هناكْ لا شيء في الصورة يتحوَّلْ: امرأةٌ ترافِقُكَ في سَخاءٍ وتهذِّبُ لفْظَكْ، وصوتٌ في داخلِك يَعْلُو ويُعْلِنُ في نفسِكَ وَحْيَكْ: أنت منذورٌ في هذه الدنيا لأداءِ رسالةٍ كبيرهْ: أن تكتبَ قصيدةً لعينيْها قبل أن تُنهيَ زيارتَكَ القصيرهْ. قد يَفيض عليك الإلهامْ، وقد يَسِيخُ منكَ الكلامْ، لكنكَ في الختامْ لا

تملكُ من لغةِ الأنبياءِ غيرَ مفرداتٍ يتيمهْ: حبٌّ وعشقٌ ووجْدٌ وهيام، والوفاءُ لعاداتٍ قديمَهْ.

ـ ١٥٦ ـ

للسماءِ شريعتُها، وللأرض خطيئتُها، وللمرأةِ أن تكونَ الاثنتيْن. لها أن تَنْقم وتَرْحَمْ، أن تشبع منك وتَسْأَم، وأن تُعَلِّمَكَ من أسرار الدنيا ما لَمْ تَعْلَم. لها أن تَخْذلكْ وإلى الأعلى ترفعَكْ، ولها وحدها في المساءِ أن تسألَكْ. وقد يكون لكْ أن تُمْهِلَها حتى تُعِدَّ نفسَكَ لغدٍ لا تعرفه، لكنها إلى الذي هي تريدُهُ تَصْرِفُهُ؛ وأنت أجْهَلْ مما ترتِّبُ لكَ من مصيرٍ بين يديْها؛ وأنت لعينيْها أسهلْ من رقَّةِ جَفْنيْن على مُقلتيْها. فاسْرِجْ لها نفسَكَ حينًا وحينا علِّمْها الحنينا، وإن ساورتْكَ شكًّا أنظِرْهَا فَتُخْبِرْكَ اليَقِينَا. سيمُرُّ عليك حينٌ من الدَّهرِ تَلْهُو، وعن خبيئَةِ سِرِّها تَسْهُو، لكنكَ غدًا تُدْرِكُ أن شيئًا من وضوحِهَا فيكَ يبْقَى وشمًا وسِنينَا.

ـ ١٥٧ ـ

أوْتَارُ قيتارٍ تعذِّبُني،
تُقَطِّعُ أَمْعَاءَ القلبِ
وتَمْنَحُني
مساحةً للرحيلِ عنّي
وترفَعُني على غمامةِ
حزنٍ سوداء

لِتُمْطِرَني،

دمعتيْن ساخنتيْن

على خدِّكِ.

أوتارُ قيتارٍ تجرِّدني

منّي قليلاً

كي أحبَّكِ

وأُولَدَ ثانيةً

في الفضاء الحُرِّ

بين ذكرياتِ أمسي

وصدْرِكِ.

ـ ١٥٨ ـ

ليس بينكِ وما تقولين إلّا ما تقولين. أُسَلِّمُ بأنكِ لا تُتْقِنِينَ عادتيْن سخيفتين: النسيان والبهتان؛ لكنَّ الفنجان بين يديَّ تكَسَّرْ وأنا أبحثُ بيَن حَبَّاتِ الكافِيين عن وجهِكِ. وأنا مَدِينٌ لكِ بما لا تُخْفِينَ مِن شغفٍ بتخطئةِ القصيدةِ في بَحْرِها الطويلْ. أنتِ الهديلْ، وأنتِ الصهيلْ، وأنا البكاءُ اللّا مرئيُّ في حفلةِ العويلْ.أسُلِّمُ بأنّكِ تَذْكُرِين ما قد ضَيَّعْتُهُ في بطون الكتب حين أغراني بعينيْكِ الحنين. وأنا مدينْ لما لديكِ من حبَّاتِ الصَّفْحِ تَنْثُرِينَها على جوعي للزمن الجميل. أنتِ امْرأتي إنْ كنت لا

تعلمينْ، وإنْ عَلِمْتِ امنحيني فرصةً للتوبةِ عَلَّ مُفْرَدَةً مني تفضح ما أُسِرُّ وما يُدِرُّ عليكِ قلبي من ربحٍ ثمين. أنا ما خَذَلتُكِ حين أَرَدْتِنِي بعضًا من متاعِ قلبِك، فلا تخذُليني حين جَارَ بي الزمنُ الضَّنين. أعرف أنكِ لا تطيقين أن ألُوذَ بصمتي وأَمْتَهِنَ الصّبر، لكني لا أعرفُ أيَّ طريقٍ إلى يقينِكِ يَسْلُكُهُ الظَّنين!

- ١٥٩ -

مُعْجَبٌ أنا قلتُ لكِ، والمعجبون كُثْرٌ، لكني لستُ مثلهم - سيدتي - في هذا العُمر. ليس مَنْ رَمَاكِ بنظرةٍ كَمَنْ في عينيْكِ أَبْحَرْ، وليس مَنْ أهداكِ وردَةً مِن الذي أعْطاكِ القَلْبَ أجْدَرْ. وما أكثرَ ما قيلَ فيكِ خلسةً، وما أكثرَ ما لستُ أذْكُرْ ممَّا أعرفُ عنك وما ليس يَخْطُرْ على بالِ امرئٍ مثلي على جسمكِ أمْطَرْ: وردًا وأَرُزًّا وقصائدَ وشَتْلَةَ تَبْغٍ، ولعينيكِ الفاتنتيْنِ يكتُب في الليلِ بضعةَ أسْطُر: أعرفُ كيف أَحْمِيكِ مني، لكني أجْهَل كيفَ إلى قلبِكِ أَعْبُر.

- ١٦٠ -

قد تكون أمًّا، أختًا، بنتَ أختٍ، عمَّةً، جارةً، امرأةً من تاريخٍ غابرٍ دُوِّن اسمُها في كتابْ. قد تكونُ من رأيتَ أمسُ ومَن ترى غدًا في الشارع، ومَن قد لا تجد في آخرِ الطريقِ إليها البابْ. قد تكونُ اسمًا بلا حضرةٍ أو جَمْرةٍ أو طلقةٍ تُلَعْلِعُ في عنفوانْ. لكن التي تكتبُها ليلاً وحدها هناك تحتلّ قاموسًا وتؤسِّسُ نصًّا من أقحوان.

- ١٦١ -

في البدءِ كانت كلماتٌ، وكنتِ منها مفردةً بين معنًى خفيٍّ ووضوحٍ غامضٍ تختالُ على لوحةٍ معلّقةٍ على مدخلِ كنيسَهْ. لا ريشةُ فنّانٍ تكفي كي تَقُولَكِ، ولا إزْميلُ نحّاتٍ في روما، ولا مُنَمْنَمَاتُ جدران قصورِ ماضٍ نَفِيسهْ. أنتِ سِرُّ أسرار هذا البعيدِ يجيئني فجرًا ويختلس الانتباه، وأنتِ الاشتباهُ بين امرأةٍ من سلالةِ آدمَ وحوريّةٍ من جنّةِ أرضٍ حبيسَةْ. أنتِ الجَليسَةْ بين أحْجِيَةِ الرُّعَاةِ وخاطرةٍ تُدَاهِمُني، وأنتِ يومياتٌ مسروقةٌ من دفترِ شهوةٍ فيَّ غميسَهْ. كقدّيسَهْ إلى جبلٍ سماويٍّ تَصْعَدُ كانت خُطاكِ، وأنتِ تنقُلينَ القدميْنِ على دَرَجٍ في البيت القديم. وكالنَّديمِ السَّرمديِّ لا يتأفّفُ كنتُكِ في الماضي حين ضاقَ بحَبْلِ صمتِكِ الضَّجَرْ. كالحجرْ بين ملتقى نهريْن كُنْتُكِ، وكالخَبَرْ لمبتدإٍ تَكُونينَهُ سلَّمْتُ أمري للجملةِ. كالخمرةِ ترقُد في خابِيّةٍ كنتُ أمس، وكان لي ما اشتهيْتُ للنصِّ من مِلْحِ العبارَهْ. كقيتارهْ تتوجّع أوتارُها بين فوضى الأناملِ كنتُ مثل الهَوَامِلِ أقْبَلُ دوري ولا أعترِضُ. وما كان لي في الأمر غَرَضُ غير أن أهْذِي قليلاً، وأُهْدِي بعضَ ما كان في قلبيَ يَمُورُ وينتفِضُ.

- ١٦٢ -

في كلِّ امرأةٍ امرأةٌ لا تُفَارِقُها، كالظلّ تلازِمُها، تجلس حيث تجلس، تنام حيث تنام، وفي الليل تسْكُب على جفنيْها حليبَ النشوةِ وتُهديها السلام. المرأةُ في ذاتها اثنتانْ: واحدةٌ هي، والثانيةُ صورتُها، والفرقُ بينهما سيان. المرأة والمِرْآةُ

ضُرَّتَان تتبادلان الشماتة أو تلعنانْ صدفةً أخذتْهُمَا على كفَّتَيْ ميزان. للمرأة حروفُها وللمرآةِ أخطاؤها والمقارنةُ لا تَجُوزُ بين المصباح والشمعدان.

ـ ١٦٣ ـ

همَّتْ به، وهَمَّ بها
وطَار الذي بينهما
كما تطير الخمرةُ
من رأسِ الملتاع.
في صدريَّتها رمّانتيْن،
وفي صدرهِ نَفَسٌ حارقٌ،
وفي الغرفةِ قليلٌ
من المَتَاع.
يقول لها: اشنقيني
بخصلة شَعْرِكِ
أو امنحيني سلامًا
لأَطْمَئِنَّ إلى أن سلاحيَ
لم يُجَنّ.
تقول له: لا تطلق عليَّ النارَ

واقفةً

وافْرشْ لموتيَ حريرًا

من زَغَب صدركَ

حتى أُدْفَنَ

من غير كفنْ.

ـ ١٦٤ ـ

هي هناك، دائمًا هناك، تتذكَّرك أحيانًا أو تمسح ذكراك وتَعْجِن النسيان. أيُّ شيءٍ، إذن، تركتْ لغدِكَ كي تتفقَّدَ ما أودعْتَ هناك خلف ذكرى تَفُوحُ منها رائحةُ المكان.

باب الشّكّ

- ١٦٥ -

تَعَلَّمَ، قبلَ أن يَلْتَجِي، كيفَ ينتحي جانبًا فَيَشُكّ. الشكُّ مبتدأٌ لا خبر قبْلَهُ: يقولُ: ما هَمَّ أن تَلْفَحْهُ ريحُ المَعَرّي أو ديكارت في المسألَهْ؛ وما هَمَّ إنْ يَقُدْهُ التفكيرُ إلى يقينٍ عظيمٍ أو مِقْصَلَهْ؛ أمام النازلَهْ لا سبيل لديك إلى الهَرَب ممّا يَجِبْ: أن تفكّر ألفَ مرةٍ قبل الكلامْ. وبين الحُطَامْ، حيث تَرْقُدُ جُثَثُ الحقائقِ التي قَضَتْ، لا تُصدِّقْ أن الطبيعة كَذَّبَتْ طَبِيعَتَها ومَضَتْ. أَعِدْ ما كانَ إلى ما كانْ وسَلْهُ عنِ البدايةِ وكيفَ تَكَوَّرَ العالمُ من أصْلٍ على العَقْل أشكلْ، ولا تُسَلِّمْ بأنَّ غيركَ أعْلَمْ بما أنتَ عنه الآنَ تَسْأَلْ. ما كان أسهلَ عليك والناسِ في البرّيّةِ تأجيلَ ما يُحْدِقُ ويؤرقُ إلى الذُّرِّيَّة، فالسؤالُ أعظَمُ مِن أن يُرَحَّلْ، ولا أنبياء في عصرك عن أمركَ ينوبون.

- ١٦٦ -

تَمَنْطَقْ بالشّكّ، واتَّخِذْهُ عُدَّةً وعتادًا عند الشدائدِ، وفي الرِّحْلِ عَلِّقْهُ بين العينيْن واجْعَلْهُ ماءًا وزادًا. إنْ ضَاعَ منْكَ تهْتَ في الغامضِ وإنْ وَضَحْ، وإنْ عنه سَهَوْتَ تَعَرَّى المكنُونُ فيك وانْفَضَحْ.

الْزمْهُ صاحبًا وعلى الصُّحْبَةِ أَدْمِنْ، وشاوِرْهُ في ما يَتَعَصَّى عليكَ ويُزْمِنْ. فما أنتَ عنه في غَنَاءٍ وإِنِ اتَّسَعَ الفِنَاء، وما هو لك اشتهاء إنْ طرحْتَ سؤال الأرضِ على السماءْ. كُنْهُ كي يكونَك وكي يمنعكَ عمّا يضيرك، ولا تَكُنْهُ حين لا يكون شكْلُهُ المألوفُ على منوالك. الشكُّ شهوتُك وطريقتُك ومذهبُك، وهو النشيدُ والورْدُ والجَذْبَةُ والبَخُور؛ فشُدَّ عليه واحرص، ففي لُزُومِهِ ما يَعْصِمُ من الشرور.

- ١٦٧ -

كان صغيرًا حين رتَّلَتْ عليه الجدَّةُ آياتِ الشَّك. لم يصدِّق أن ما ترويه خرافات، لكنها عَلَّمَتْهُ أن لا يصدِّقْ، وقالت له: دُلَّنِي على أحدٍ غيرِ النبيِّ يَصْدِقْ. مِنْ يومها، يُسَاوِرُهُ الظَّنُّ حين يَمْرُقُ طَيْفُ كلامٍ أو قِوَامٍ بين الأُذْنِ والعينْ. كَبَنِي جنسِه والأطفال كان ساذجًا، لكنَّ صَنْعةَ الفَرَاسَةِ ابتدأتْ وأطلقتْ في نفسِهِ حسَّ الانتباه. في الحارة يخشى على محفظة الدفاتر من يدٍ طائشةٍ فيحْضِنُها. وفي المدرسة يخشى على إجابة الامتحان من عينٍ هائمةٍ تختلسها. وفي البيت يُرَوِّضُ لسانَهُ على مفردات محايدةٍ لئلّا يُسْأَلْ. كلّ شيءٍ في العالم أجمل من أن تُخْدَعَ أو تُرْدَعَ عمَّا تأْمل. وحين اشتدَّ العودُ وعَشِقَ المطرقةَ والمنجلْ، صار الشكُّ عندهُ الأمثلْ للفرار بِجِلْدٍ يخشى على جِلدهِ من الأَهْوَلْ. لكن الشكّ كان يفتك أكثر: بما أَدْمَنَ وأَيْقَنَ مِن الحبِّ والحقيقهْ، وما كان في القلب من حديقَهْ تسلَّقها ذبولٌ بعد جمال، ولكنه الحبُّ كان يَكْبُر فيه ويَهْزِم المُحَالْ.

شكَّ في كلِّ شيءٍ، وما شكَّ في أن الأرواحَ تُطارِدُهُ: شكَّ

في وجود الملك سيفِ بن ذي يَزَنْ وفي أنه مَلَكَ الإنْسَ والجِنَّ في اليمن؛ وشكَّ في ما تركَ الزمنْ على رصيف التاريخ من ذكريات. شكَّ في عَنْتَرَة وتَأَبَّطَ شرًّا والشَّنْفَرَى، لكنه ما شكَّ في أن «عيشة قنديشة» تُلَاحِقُهُ في الأمسيات. ثمَّ شَكَّ في أنه يشكّ، لكنه في سلامةِ شكِّهِ لم يَشُكّ.

ـ ١٦٨ ـ

أحبَّها كثيرًا وشكَّ في حبِّها. أَحَبَّتْهُ وصدَّقتْ قَلْبَهْ. لكنَّ شكَّهُ كان أقوى من صِدْقِها، فأضَاعَهَا وأضاعَ حُبَّهْ.

ـ ١٦٩ ـ

لا أعرفُ إلّا ما لستُ أعرف، لكنّي أعرف ما لا تعرفون: أسئلتي التي لا تُحَدّ، وامرأتي التي أبحث عنها في الدفاترِ، وكلَّ ما لديَّ من الكلام المُعَدِّ لِتَطْريةِ الليلْ. أعرف ما تجهلون، وأنتم تقومون وتقعدون، فلا تدرون إلى أيّ طريقٍ تسرجون الخيْل. تعلمتُ ما ينبغي لصغيرٍ مثليَ أن يَعْلم: تعلمتُ الحِكَمَ وأودعتُها في السريرةِ؛ وأصابعي علَّقْتُها على مشَانِقِ القلمْ وروَّضْتُهَا على السَّجِيَّةِ. وكتبْتُ جَهْرًا: أنا بيانُ الألمْ، وأنا لَوْعةٌ شَرُدَتْ في تجاعيدِ الماضي فأنقذها السؤال مِن حريقِ العدمْ. أعرف الذي لا تعرفون: كيف أقتات من طَبَقِ الغَزَلْ، وكيف أُتْقِن الخطابة في الميكروفون. لكني أَجْرَأُ من ظَبْيَةٍ في الوادي ومن رسالةٍ يَدُسُّهَا سجَّانٌ طيّبٌ في جيْب مسجون. وأنا أَجْرَأُ ممّا تتخيّلون: أن أعترفَ بأنّي لستُ أعرفُ من الغامضِ أكثر مما أنتُم تعرفون.

- ١٧٠ -

لو كان على البحر أن يسبح في موجه لما احْتَجْتَ في البحر إلى مَرْكَب. لو لم تتذوَّقْ عَسَلَ القوافي في الليل لَأَضَعْتَ الذي في الكلام يُطْرِبْ. لو لم تكن قرشيًّا حقًّا ما تجشَّمتَ الهجرةَ ثانيةً إلى يثرب. لو ساوموكَ على التي تُحِبّ لَاخْتَرْتَ أن تَهْجُرَ الحّبَّ وتُضرِب. لو علَّقوك على المشانق كي تعترف لأمسكْتَ عن الكلامِ المُعْرِب. ولو كان على الشكّ أن يشكّ في نفسه لَأَيْقَنْتَ أنه لا محالةَ يَكْذِب.

- ١٧١ -

حين تصدِّقُ الليل، تكذِّبُ النهار. عليك، إذن، أن تختار بين الروايتين. ما أجمل الدنيا تحت سقف الظلام، والأجمل أن تمارس الهوايتين: مناجاة الحبيبة وقراءة القصيدة. وبعد جرعتين من كأس الصمت، تُطِلّ على الماضي بشمعتين: واحدة لتضيء قلبك والأخرى لتذرف دمعتين. الليل خزّان من العواطف لا ينضب، وأنت تصادقهُ وتعاهدهُ على ألاَّ تُفْشِيَ سرَّهُ. وأنت تروِّض نفسكَ على أن تذهب إلى حيث تحملك نجمةُ القطب القديمةِ، فينهار الجدار بينك وبين المدى. هل كنتَ الصَّدَى لِمَا قال الليلُ في خلوته أم كنتَ تدوّن ما يُنْسَى سُدَى؟ كن ما تشاء ولكن لا تُصَدِّق أن الليل يعفيكَ من غدكَ، وأنكَ بِطَيْشِ شهوتكَ ستُسدل الستارَ على النهار. وإن كان لكَ أن تشكَّ، فَلْتَشُكَّ في الدورتيْن واعْدِل بينهما كما يَعْدِلُ قاضٍ في قسمتيْن. ها أنت، إذن، مُرَابِطٌ بين حَدَّيْن: بين أن تلتمس السلامة منهما أو أن تعيش بين ضُرَّتَيْن.

- ١٧٢ -

للإيمان سجَّادتُهُ الحمراء: الشكّ. عليها واثقَ الخَطْوِ يمشي بخُيَلَاء. والإيمانُ يدعوك إلى الشكّ أكثر حتى يطمئن إلى نفسه ويَعْلُو قامةً أمام رعيتهِ. لا سلطان للإيمان على أهلهِ إنْ لم يمتحنوا اليقين ويسألوهُ ألفَ سؤالٍ عمَّا تقدِّمُهُ السماءُ غدًا إنْ تَكَدَّرَ أفقٌ واكْفَهَرَّ وانقلب الدليلُ على يومهم. ولابدَّ للأنبياءِ من شيطانٍ يماحكهم كي ينتصروا عليه ويرفعوا على أنقاضِ هزيمته البيّناتِ وراياتِهِم. لابدَّ لليقينِ من قليلٍ من نسيانٍ عبثيٍّ كي يُتَذَكَّر، ولابدَّ لخرابِ نفسٍ مهدَّمةٍ من بعضِ يقينٍ كي تتعَمَّر. والآن أكثر من أيّ ماضٍ مضى وانقضى يحاصِرُكَ السؤالُ الأكبر: أما زلتَ تملك أنْ تقول إنك في لعبة الشكّ أمْهَر.

- ١٧٣ -

عشِقَ ديكارت ولمْ يَلْتَقِهِ إلّا لمامًا: على هامشٍ في حاشيةٍ أو في جملةٍ اعتراضية. وحين عرفهُ أكثر، لم يَزُرْهُ في البيتِ ولا عادَ إلى المصدر. لكنه في القليلِ ممّا تذكّر، كان مأخوذًا بما أفصح عنه وأضْمَر. وحين عاد إلى المصدر، تَفَاجَأَ بأن التأويلَ أبْهَى من النصِّ وأنْضَر!

- ١٧٤ -

حين يَشُكّ، لا فرق يصبح بينها وبين امرأةٍ أخرى. وحين يَشك، لا أحدٌ يدّعي أنه بالعالم منه أَدْرَى! كلُّ شيءٍ يَعْرَى من بداهتِهِ ويستوي في الغموض: الحقُّ، والخَيْرُ، والجمالُ،

والثورةُ، والمُلْكُ العَضُوض! حين يَشّك، لا يَفْهَم كيف لغيرهِ أن يَفُكَّ لُغْزَ ما يَعْصَى على رأسهِ. فما مِن أحدٍ يملك أن يرفُلَ وحدهُ في اليقين، وما مِن شيءٍ غبيٍّ يَفُتُّ من بَأسهِ. للبصرِ شهوتُهُ، وللبصيرةِ شَقْوَتُها، ولَهُ ـ هُوَ ـ أن يَغْمِسَ الدنيا في كأسهِ كلّما حَلَّ النَّهارُ في ليلهِ وأَغْضَى عن سؤالِ السَّريرَهْ. أمّا هي، فلقد كانت بهِ يومًا جديرهْ، قبل أن تُوقِظَها نَزْوَتُهُ مع الطبيعة فَيَشبُّ خيالُها عن أشيائها الصغيرةِ، وتُدرِكُ أن الفارقَ بين شهوتِهِ وقسوتهِ كالفارقِ بينها والمِرْآة.

لا يَشُكُّ حين يَبْغي: وهْوَ كان يَبغي الشكّ. لكن الغموضَ يُفاجِئُهُ قبل أن يَتَعَافى من مَغَصِ جُرعةٍ سابقَهْ. وكلما أَعْيَاهُ الرحيلُ بِحمْلِ الكلمات المارِقَهْ، بحث في حَلْمَتَيْ نهديْها عن جوابٍ يُقْنِعُهُ بالسلامةِ، وتفرَّس في مقلتيْها عَلَّ دفئًا فُجائيًّا يدثِّرُهُ من صقيعِ المتاهةِ. ولا بأسَ إنْ لم يُسْعِفْهُ البحثُ، فقد يُرْشِدْهُ إلى لحظةٍ من جنونٍ حارقَهْ. هو الآن لا يدري كيف يَجْهَر، وليس لديْهِ ما يرتِّل ـ على عادتِهِ ـ في المنْبَرْ. لحيتُهُ لا تقول شيئًا في نفسهِ والمِرآة. لعلَّها تَفْضَحُهُ، ولعلّها تغريهِ بالأكثر. لكنها لا تَعِدُ بشيءٍ أكثرَ من تنظيم فوضى يقينٍ مُدَمَّرْ. ويسمع من مئذنةٍ: الله أكبرْ، فيَحِنُّ، ويئِنُّ، ويناجي الذي في داخِلِهِ من تَعَبٍ تَخَمَّرْ.

باب الإشارات

ـ ١٧٥ ـ

الغضبُ علامةٌ لا يُخْطِئُها فيك مَن يراكْ. ليس ضروريًّا أن تَحْتَقِنَ العينان وتنتفخ الأوداجُ ويَعْلُو مَنْسُوبُ النَّفَسِ في الصَّدر. وليس ضروريًّا أن تحرِّكَ يديْك أو قدميْك بعصبية، ولا أن تَنْقُرَ بأصابعك على الطاولة الخشبية. تكفي كهرباءُ العيْن كي تَلْسَع وتكشف سِرَّكْ، ويكفي كبرياءُ الصمتِ كي يَصْدَع ويُطْلِقُ جَهْرَكْ؛ فلا يُضيف اللسان شيئًا إن أخْمَدَ خُرْسَه ورفَعَ الأختامَ عن باب الكلام وأطْلَقَ بُرْمَكْ. وسيان إنْ أَفْصَحَ أو أعْجَم عمَّا هو فيكَ الأعْدَل قسمةً بين ناطقٍ وأَبْكَم. ولو كان الغضبُ رجلاً لَتَكَلَّم، ولَأَرْغَى وأَزْبَدَ وتَطَاول وتشتَّم. لكن الغضب شعورٌ طائش يَعْوي في فلاةِ القلب ثم لا يلبث أن يرعوي ويَنْدَم.

* * *

الغضبُ خطابٌ ضروريٌّ للتوازن؛ كلما غضبتَ اعْتَدَلَتْ موازينُك، وصَحَّحْتَ ما في العالم من اختلال. وإن أحْجَمْتَ، لن تَلُوذَ بِهَدْأةٍ ولا حيادٍ يوفِّر عليك صُكوكَ الإذلال. الغضبُ

مرآةٌ لنفسك، فاقرأْ حروفَكَ فيها. وإن خفْتَ منها فلا تُدْمِنْ عليها، ودَعْ ليومكَ بعضَ يومه كي يُزَمْجِرَ باسمه، فالحلمُ ثقيل إنْ طال وعُمِّر، والأثقلُ منه أن تختلف إلى غَمِّهِ.

***

لا تبرِّر غضبك حين تغضب، فهو أقوى ممّا تَحْسَب. وإن اعتذَرْتَ عنهُ خُنْتَهُ، وفي المَهَانةِ أغرقْتَهُ، وعَدْوَت على شرفٍ صَانَهُ فَأَضَعْتَهُ. إنْ تُخْمِدْهُ، أخْمَدْتَ الذي ما صَنَعْتَهُ ممّا ادَّخَرَتْهُ التجاربُ والسّنونْ. ولقد أخطأ من يقول إن الغضبَ ضربٌ من جنون. ولو كان الجنونُ غضبًا، لكان بكَ حريًّا وكنتَ به المفتون.

***

«الغضبُ الساطعُ آتٍ، بِجِيَادِ الرهبةِ آتٍ»: تغني سيّدتي وتَصْدَح. قد يتأخر، قد يَخْبُو أو يغفو، أو يسهو، لكنه لا محالةَ آتْ. عدَّ المسألةَ على كلِّ الجهاتْ كمَنْ يَضْرب أو يَجْمع أو يَكْسِر أو يَطْرح. لكن الذي هو آت أمرٌ غَدَوِيٌّ لا في حُكْمِ الذي فاتْ. وإنْ فاتَكَ العِلْمُ بهِ، فاعْلَم، يَرْحَمْكَ الله، أنه لا محالةَ آت.

ـ ١٧٦ ـ

الحُزْنُ أنْ لا تغضبْ حيث لكَ، عليكَ، أن تَغْضبْ. الحزنُ فُرْنٌ من لهبْ أو عدوٌّ حميميٌّ مؤدَّبْ؛ اعتذارٌ عن عدمِ البَوْحْ

وطريقةٌ صوفيَّةٌ في الصَّفْحْ. قد يأتيكَ الحزنُ من دون استئذانْ: يَطْرق بابَ قلبكَ ويجلس ولا يطلُب منكَ صَكَّ الأمانْ. وقد يُطيل مُقَامَهُ فيكَ أو قد يستعجل الرحيلْ. وقد لا يُمْهِلُكْ كي تُفَاوِضَهُ على الذي أخذْ، وعلى الذي تَرَكْ، وعلى ما يَسْلُكُهُ إليكَ مِن سبيلْ. وقد تَضِيقُ بهِ كثيرًا، لكنه لا يَمَلُّ من الزيارهْ فيُكرِّرُها ثانيةً وعاشرةً: مرَّةً في هدوءٍ وأخرى في شكلِ غارَهْ. وأنتَ كصورتهِ المستعارهْ، يتقمَّصُها متى يشاء ويوزِّعُها حين يَشْبع منها في الهباءْ. والحزنُ ثقيلٌ على النفس حين تَعَافُه، وسَيِّدُ لياليها المتوَّجُ حين تَخَافُه، والحزنُ سِلْعةُ المُرْهَقين بأحمالِ العِبارهْ. حين تطولُ صُحْبَتُهُ، تشْتَدُّ لوعتُهُ: تُدْمِنُهُ إذْ تُعَاشِرُهُ، ويُقْرِفُكَ حين يَصْرِفُكَ، ويبحث غيرُكَ عنه صديقًا أو شقيقًا أو رفيقًا في طريقٍ آخر لا تَسْلُكُهُ. لكنَّ الذي فيكَ ـ وإنْ تناقَصَتْ نَبَاهَتُكَ ـ يُدْرِكُهُ: شيءٌ هشٌّ يُنَازِع كي يَبْقى ولو أنَّك عن غيرِ قصدٍ تُهْلِكُهُ.

***

الحزنُ فروسيةُ روحٍ يعذِّبُها الزمنْ، خُيَلَاءُ يَهِيمُ بها السِّرُّ في العَلَنْ. ما كان غضبٌ لَو كان بَدَن، لكن النفسَ شيمتُها الحَزَنْ. للبدنِ مفرداتُهُ ونَزْوَتُهُ ونَزقٌ يَنِزّ، وللنفس كبرياء تَشْقَى بها وتَعِزّ. للحزنِ ضُرُوبُهُ وحروبُهُ، لكن عَلْياءَهُ أعلى في المِحن. هل أدركْتَ، إذن، معنى الحَزَنْ؟

****

سيانٌ، في قانون الطبيعةِ، أن تَفْرحَ أو تَحزَنْ: لغتانِ للروح ما في العناصر مثلهما أَبْيَنْ. يُضيئانِ في الليل ما تَعَتَّمَ، يبوحانِ في النهارِ بما تَكَتَّمْ. وأنتَ الذي بلسعتيْهما جسمكَ تَخَتَّمَ: عليك أن تَعْرِفَ إنْ كان الجَمْعُ بينهما ممّا يجوزُ على الطبيعةِ أو كان الطّلاقُ ممّا تَحَتَّمْ. قد تتأخر في الجواب عن السؤال وقد تتقدَّمْ، غير أنك في الحاليْن معلَّقٌ على غامضٍ في الطبيعةِ لا يترمَّم.

كان حزينًا، وبسرِّهِ على غيره ضنينًا. كان أمينًا على أمْرٍ لم يَزَلْ بين أقرانهِ محضَ جُمَلْ. كان يبْدِي ويُعِيد في مُبْهَمٍ ما أفصحْ ويستزيد ممّا لا مزيد عليه مِنْ أَوْضَحْ. ولم يَبْرَحْ مكانًا في الكلامِ لَزِمَهْ، ولا كان له في الوجود قرنٌ على مَن عَدِمَهْ. لكنه كلما اختلى بحزنه في الليل، أدركَ الفارقَ بين ما أَخْمَدَ الحبَّ وما أضْرَمْ.

ـ ١٧٧ ـ

البكاءُ مطرُ قلبٍ ملبَّد. غيمتان كثيفتان تسبحان وتلقيان على الفراغِ النشيج؛ دمعتان تكفيان كي ترويا عطشَ الصمتِ المجعَّد؛ صدْرٌ يتنهَّد رعدًا ولمعةُ برْقٍ تُطلقُها عينان. والبكاء شمعدان يُضيء زاويةً في النفس أَطْفَأَها النسيان.

* * *

بالبكاءِ يتحرر القلمُ من مدادِهِ وتَيْنعُ الفكرهْ. ما أَلْيَنَ الصَّخرهْ حين يمسحُها الماء فَيَنْبُتُ بين شقوقها عشبٌ فوضويّ. مثل أيلول، تحت تقلُّب السماء، تهزمك الريح فيسَّاقط الذي تبقَّى

من الماضي وَيْخُلد إلى السكينةِ شغفٌ مهدويّ. البكاءُ حمَّامُ نفسٍ لغَسْلِ خطيئةٍ لم ترتكبها، وأمسيةٌ بدائيةٌ لميلاد قصيدةٍ قد لا تكون شعرًا، وربّما تَخْذِل الشاعر في صورةٍ لم تُصِبْهَا. والبكاءُ ملحمةُ العاجزين عن الصهيلِ في المواكب، ومرثيةٌ للوافدين حديثًا على خيامِ البدْو.

قد لا تدري كيف تعلّمتَ أن تبكي وأنت لم تتعلَّمِ البكاء. لا تعجب للأمر أو تستغْرب، لأن البكاء ليس مهنةَ الغرباء.

❋ ❋ ❋

يبكي النهارُ على أمْسِه، يبكي الحنينُ على نفسه، ويبكي على الأرض السحاب. ما أعذب الحياة لولا أنها تقسو على رعيَّتها، وتُسْلِم جفنيْها إلى مَن يمدحها وتترك أهلها في جحيم السراب. لِمَ يولدون كثيرًا ويخرجون إلى الدنيا من نزوةٍ طائشةْ؟ لِمَ يتعبون ويبحثون عن أفقٍ يبدِّدُهُ الهباءُ؟ لِمَ لا يذكرون تعاليم النهايةِ في صحفٍ راعشَةْ؟ ولقد روتْ عائشةْ ما قال النبيُّ في سكرة الموت الأخيرةْ وسلَّمنا بما نَقَل الرُّواةُ من أخبارِ السيرةْ. لكن النبيَّ في القَلْب أكبر وإنْ خَرَجَ غيرُ المسلمين من الجزيرةْ؛ وهو في خيال الصبيِّ أعظم وإنْ لم يُرْفَع إلى السماء ولا أتَى معجزةً تَفْغَرُ أفواهَ العشيرةْ. لا يبكي الذي يُقيم في قفص الحكاياتِ الصغيرةْ، ولا يَعْوي الزمان على الذاهلينْ. هو سيْفٌ على العصاةِ يرفَعُهُ المؤرِّخُ، هو دمعةٌ في المُقْلتيْنِ، هو جيشٌ من المُتْعَبين.

❋ ❋ ❋

على منوال حزنها يَحْزَن؛ على إيقاع بكائها يبكي. لم يبق له من شريط الماضي ما يستعيد في نفسه ويبكي. ذَهَبَ الذي كانْ، والذين كانوا ذهبوا معه إلى النسيانْ، وما عَادَ يشكو لِلَيْلِهِ ممَّا فَعَل الزمان بهم. كان البكاءُ دأبَهَا حين تُدَاهِمُها الذكرى، كان البكاءُ حتْفَهُ تحت ضوء الشمعدانْ. والذي كانْ، طواهُ الديوانْ، أو مَحَتْهُ كتُب التاريخ عن حروب القبائلِ العربية وفِرارِ الهُرْمُزَانْ. وحين تبكي، يبكي ويوزّع اللّوعةَ على الحروف بين مشهدِ زنزانةٍ قادمٍ وهفوةِ خيالٍ منسيٍّ تحت ظلال السِّنْدِيَان. لكنه لا يبكي إلا في المحبرهْ كي يترك شاهدةً على معنًى ربَّما قد يضيعُ على زوَّاره غدًا في المقبرهْ.

* * *

ما أكْثَرَهْ: صوتُ النّحيب المعجون بالغضب. من هناك يأتي: نارًا لا يوقِدُها حَطَبْ. على مقربةٍ من الضريح تَسْمَعُهُ أنينًا يَنْقُرُ على وَتَر القلب فيرتدّ له الصّدى في القُبَبْ. وفي المخيّم يَعْوي حين يأوي الموتُ إلى النائمينَ من غَفْلَةٍ أو من تَعَبْ. وكانتِ العربْ تشرب نخْب صمتها أو صوتِها المبحوحِ من خُطَبْ، وعلى كوفيةٍ ـ تَتَضَرَّجُ بالدَّمِ ـ تتفرَّجُ أو تتبرَّجُ أو تبحث لاختفائها عن سببْ. وكان الأدبْ أعْجَزَ من أن يُذْرِف دمعةً أو يدبِّجَ مرثيةً لمرحلةٍ لا تَهَبْ غيرَ السؤال المّرِّ في لغةٍ هاجَرَتْ من المعنى ومن البَلَدْ. وكان على الكوفية أن تبكيَ وحدها في الشرق وتوزِّعَ العَتَبْ بالتساوي على حروف العربية. وحدها تبكي

وتبكي وتخلِّدُ اسمَهَا إلى الأبد. وحدها تقول: أنا الشرق، أنا الشاهدةُ على الأبدية.

* * *

للدمعة طعم ماء البحر. كنت تَلْحَسُها حين تذرفها فتتذوّق الملوحةَ أو ترتعش. وحين كنتَ تهدأ من جحيم الغبن، ينتعش اللعاب المالحُ حين يتذكر أنه زار البحر قبل قليل.

* * *

بعصبيةٍ تقول له: كفكف دموعكَ، الرجال لا يبكون. صدَّقَها في البداية وحاولْ. وحين كَبُر، تبيَّن له أن الجدة لم تكن على حقٍّ هذه المرّة، ثم حاولْ.

ـ ١٧٨ ـ

كقافلةٍ توَّهَتْهَا عواصفُ الرَّمْلِ عن الطريقِ فمرَّتْ بَرَبْعٍ مهجورٍ هو **الفَرَحُ**. كغيمةٍ شادرةٍ في الأعلى أَلْقَتْ على قيظ البيداء حمْلَها وانصرفت هو الفرحُ. كامرأةٍ مكحولةِ الحور ضَحِكَتْ عيناها في ومضةِ نظرةٍ وضاعت في الزِّحامِ هو الفَرَحُ. كقمر الاسكيمو يُطِلّ على بداهةٍ ضوئيةٍ غارقةٍ في الرتابةِ هو الفرح. كالفرحِ لا تَعْرفه تمامًا وقد يعرفك لِمَامًا على قارعة الطريق هو الفرَحُ. هو النَّادرُ ما أجْمَلَهْ: والنادرُ لا حُكْمَ لَهْ؛ هو السادرُ في الغيابْ، هو النظام في الفوضى، هو القيامةُ في الخراب. هو ما يَغْشَاك في الليل ويهجُركَ في النهارْ، هو الاسم المستعار لِحُلْمِكَ والنبيُّ المختارُ لشعبكَ. هو ما لا تراهُ الأبصار

ولا تُدَوِّنُهُ الأسفار؛ هو ما لا تسمعُهُ الآذان ولا يُدْرَى طريقُهُ والعنوان. هو الفرح: حروفٌ ثلاثةٌ قلّما تجتمع، وإن اجْتَمَعَتْ زَرَعَتْ ما شاءَ الحَفْرُ والحَرْفُ؛ وهو عن النظائر يختلفُ، فهو - عفوًا للتكرار - اسمُهُ الفرحُ.

* * *

الفرحُ فكرةٌ لا حالة. ليس من الطبيعة هو ولا مما يكونُ بحُكْمِ النواميسْ. من يَحْسَبْهُ من المَعْدِنَيْن تَلْزمُهُ القواميسْ كي يَرْمُقَ الفارق بين الطبيعتيْن. الفرحُ إرادةٌ تشاء كينونتها على مثالِ ما تتصوَّر، تَرْفُل في نعيمِ الخَلْقِ وبجوع المعنى تَخْتَالُ أو تَتَضَوَّرْ. هكذا هو الفرحُ لا يتقرَّرْ لمجرَّد أن قلبًا يأخُذُهُ مشهدُ عصفورٍ وأنَّ قمرًا بين عينيْهِ يتكَوَّرْ. يكونُ الفرحُ على قدرِ ما تريد: إن تَشَأْهُ يكونْ ويتكوَّن؛ ولا فرقَ حينَها بين هوامشِ المستحيلِ والمتونْ، فكلُّ شيءٍ يَهُونْ حينما تُجيدُ التأمُّلْ وتُتْقِنُ صنيعَ الانتقال الضوئيِّ مِن بُؤسِ النّصِّ المُشاهَدِ إلى جماليات اللامرئيِّ المُجَلَّلْ. قد تكونُ بِكَ حاجةٌ إلى الفرارِ من عبوديةِ المعنى المألوفِ للأشياء والذكريات والصُّوَر كيْ تُنْقِذَ رأسَكَ من طنين السؤالِ عن شأنٍ فيكَ مُؤَجَّلْ. لكنك أبدًا لستَ تَقْوَى على الهروب من جَمَارِكِ الرَّتابةِ إن لم تتعلَّم كيف تشيِّد في قلبكَ مملكةً مِن شِعْرٍ ومن فرح مُدَلَّلْ.

* * *

الفرحُ فاكهةٌ بين وجبتيْن من شقاء الروح، ومْضَةٌ تبدِّد

دامسًا غميسًا وتمضي. لا يُقيمُ طويلاً خشيةَ أن يُمَلّ؛ يتركُ لغيره أن يتردَّدَ أكثر ويَقْضي من الوقتِ ما يشاءْ. أما هو، فيكفيه أن يُطِلَّ وأن لا يمدِّدَ زيارتَهُ بعد المساءْ. في الفرح قليلٌ من بُخْلِ الحكماءْ، وفيه ما يَفيض عن الحاجةِ مِن السَّخَاء. ربَّما جَلَّلَهُ هدوءٌ نبويٌّ فَمَسَحَ عن الصَّدر كَرْبَتَهُ، وربَّما به رَهَقٌ جُنَّ الممسوسُ به فذاقَ لَسْعَتَهُ. والفرح ما لا عَطَّلَهُ ضِيقٌ عن عملٍ يوميٍّ، إلَّا أنه من دون روحٍ مُتْعَبَةٍ لا قيمة لَهُ.

* * *

لا يُعْشَقُ المطرُ إلّا من جَمْرَةِ قَيْظٍ تُحْرِقْ. لا تُطْلَبُ اليابسَةُ إلّا من خوف شِدَّةِ موجةٍ تُغْرِق. ولا يَيْنَعُ الفرحُ إلّا في قلب امرأةٍ تعرفُ أيّ وقتٍ مثاليٍّ أفضل لتباغِتَ فراغَكَ، وتَعْرِف عند الغروب كيف تُشْرِقْ.

* * *

الفرحُ شديدُ التواضُعِ في نفسك. يكفيك أن تتذكَّر جَدَّتَكَ وأنت قَافِلٌ من المدرسةِ في المساء لكي تَفْرَح. ويكفيك أن تتذكر موعدكَ الليلةَ مع نصٍّ لجبران لكي يُضيءَ داخِلُكْ. يكفيك سائِلُك حين يسألك عن الفارق بين الثابت والمَزيد، فَتُبْدِي وتُعِيد. يكفيك غير ذلك: أن قصيدة المتنبيّ التي حفظتها قبل عام تَرْقُدُ في رأسِك، وأنّ الصغيرةَ، على مدخل الحارة، تنتظرك كي تُلْقِيَ عليكَ نظرةً أكبرَ من سنّها وأرحبَ في المعنى

ممّا تَحْمِلُ العبارهْ. وأمّا إذا فازَ «الكوكبُ المُرَّاُكشيُّ» في المباراهْ فالفرحُ أكبر، وأنت جاهزٌ للاحتفال به بين الأقران أكثرْ: حلوى واسفْنجًا وكلامَ نَخْوةٍ بالمناسبةِ أوفر. الفرحُ شديدُ التواضُعِ، لكنك تُدمِنُهُ في اللحظات الأقْصَر وتقيم له في نفسك المهرجان والمنبرْ.

* * *

«سأغني للفرح» . . . ؛ تَعِدُكَ العاصفة ـ في قصيدة محمود درويش ـ بنبيذٍ، وبأنخابٍ جديدة، وبأقواس قُزَح. يُرَتِّلُ مرسيل خليفة، بصوته الغارقِ في البراءة، هذا الوعد فَيَتَمَلَّكُك الشعورُ بأنه قادمٌ لا محالة، وأن عاصفةَ «فتح» وياسر عرفات سَتَفِي بما وعدتْ به أمس. ولأن الفرحَ عملةٌ نادرة: أعزُّ من الدولار والاسترليني في زمن الخَصَاصِ والعُسْر، تشدّ عليه بالنواجد لئلّا تمْلتْ وفي المتاهةِ تَغْرَقْ. ولغيركَ أن لا يصدِّقَ أن العاصفة آزِفَهْ، وأن يَشُكَّ في فَرَحٍ ما تبيَّنَ وأثْبَتْ، لكنكَ لا تلبثْ أن تتأكد من أن الطبيعةَ في ما تُسِرُّ بهِ وتُعْلِن لا تتزيَّدُ في البيانِ ولا تَعْبَثْ.

ـ ١٧٩ ـ

أن تَعْبَثَ، أن يتحوَّل الهلاميُّ إلى عقيدَهْ؛ أن تفتحَ الجريدهْ على خَبَرٍ لا تتوقَّعَهُ وعلى غدٍ لِمَا تَنْظِرُهُ ليس أثبتْ. والأخْبَثْ أن لا تَجدَ ما تشتهي من نهاياتٍ تحرِّرُ الآتي من أصفاد ما مَضَى والمَلْبَثْ. ولكَ أن تعبثْ بما تشاءُ من مفردات

الوجودِ والعدم في فِقْرتيْن من المتهاهةِ عندكْ. غير أنَّك لن تَسْطِعَ، من دون قليلٍ من الجِدِّ، أن تحْميَ مجْدَكْ.

❋ ❋ ❋

عبثٌ هي الحياة، لكنك ـ عكس الشاعر ـ تَعْجَبُ ممَّن لا يرغبُ في مزيدْ. هي الحديدُ لا يَفُلُّه غيرُ القصيدْ ووجْهُ امرأةٍ أبْهَى. هي الأشْهى لولا طنينُ النهايةِ في رأسٍ يَسْكُنُهُ الوعيدْ. هي الثريدْ مغموسًا في عسلِ صباحٍ ريفيٍّ يُسَيِّجُهُ الحنينُ إلى أَمْسِكَ. هي مثل بَأسكَ الذي أَعْجَبَكْ وأغْرَقَ في الوضوح ما لم تَلْتَقِطْهُ عيناكَ لكْ. هي التي تقولُ لك: ما أجْمَلَكْ قبل أن تَخْذِلَكْ في كلِّ يوم جديد. عبثٌ هي الحياةُ التي تَفِرُّ سريعا وتَخْدَعُ، لكنه العبثُ الذي تشتهي وتُريدْ.

❋ ❋ ❋

قُل عن الأشياء ما تشاء، لكن الأشياء عبثيةٌ جدًّا: الفكرةُ والثورةُ، المرأةُ والجرأةُ، النَّزْوةُ والتَّقْوةُ، الخمرةُ والجَمْرَةُ، وأشياء عِدَّةٌ أخرى؛ لكن العبثَ ضروريٌّ كي تكون، كنُطْفَةِ السائلِ المَنَويِّ التي أخرجَتْك. هل كنتَ تكونُ لولا الجنون؟! أيها الخارجُ من نزوةِ والدٍ عابرَهْ، تذكَّرْ أن كلَّ ما حولك في الدنيا عبث. لا حربٌ من دون جُثثْ، وأنت لا تَصُون المعنى في الطبيعة إنْ لم يكن دليلُه ثَبَتْ. ولا سلمٌ من دون عَنَتْ، فرُبَّ خصمٍ لا يفيءُ إلى الصفح طائعًا عن خطيئةٍ مَضَتْ.

❋ ❋ ❋

وينْصُبُ فَخًّا لقلبِ العشيقَهْ. ليس للعبث طريقةٌ أخرى كي يكون شهيًّا لنفسه ويبْعثَ الروح في حطام الحقيقهْ. العبث مصادفةٌ رقيقة لا يغريها المكان بالإقامةِ ولا تذروها الريحُ العتيقَهْ. العبثُ مملكةُ الذي لا يَهْوى حبًّا فضوليًّا ولا يغريه ما ليس له من أملاكٌ. العبث أفلاك يقرأ فيها الفراغُ طالِعَهُ تُبْحِرُ أو ترسو بين الماء والحديقَهْ. العبث امرأةٌ صديقَهْ تقول لك: ما أَطْوَعَكْ إن كنتُ لكْ: فداءً أو هواءً أو سماءً أو رفيقَهْ.

ـ ١٨٠ ـ

في كلِّ عصرٍ فادٍ. لابدَّ للأرض ممَّن يمْسَح عن وجهها غبار الخطيئهْ. لابدَّ من جَسَدٍ صليبٍ أو ذائبٍ في الأسِيدْ، ولابدَّ للخلاصِ الأبديِّ مِن وثبَة روح جريئَهْ .**الفداءُ** حِرفةُ الأنبياء، قُربانٌ عَفَوِيٌّ طَهُوريٌّ للزمان وتُقْدِمةٌ خالصةٌ للسماءْ. من يقْطعُ البيداءَ والقَفْرَ والفقْر باحثًا عن بياض الروحِ يهتدي. مَن يُهدي زينةَ الحياة إلى الحياة ويرتضي أن لا يكون كي تكون يفْتدي. مَن يذْكُر الجميلَ في خلوته فيخجل من نزْوة البقاء الخرافي يقْتدي. لكن واحدًا من كثيرين يعلو وتعلو في السماءِ نجْمتهُ كي يرفع النداء. قد يكون نبيًّا، قد يكون شاعرًا أو سياسيًّا. لكنه هناك وحدهُ يستولي على البعيد.

* * *

هو الفدائيُّ إذن: كوفيةٌ، وبندقيةٌ، ودعاءُ والدةٍ، وكفنٌ لا مرئيّ؛ وما تبقَّى تفاصيل صغيرة: كأن يكون أعْزَبَ أو أبًا، إسكافيًّا أو طبيبًا، حارسًا أو ناظِرَ مدرسةٍ، أو تلميذًا يتدرَّجُ بصعوبةٍ في

مدارس المخيّم. كلُّ شيءٍ قابلٌ، إذن، لأن يُفْهَمْ في فضاءٍ يحْتلُّهُ بؤسٌ معمَّمْ. لا أرض للفدائي إلّا ما وطِئتْ أقدام جدِّه، وكلُّ أرضٍ أخرى منفىً مؤقَّتٌ للروح قبل عُرُوجها إلى الأعظمْ. الأرضُ وحدها تحتكر النداء، وهْوَ برائحة النداءِ مُتيَّمْ. هو الأبهى في الخليقةِ، هو الأنضرُ بين أزهار الحديقةِ حتى وإنْ تواضعَ في التعريفِ ولاذ بالصمتِ الخجول أو ردَّدَ في نفسِهِ: اللهُ أعلمْ.

* * *

الفداء «مرسومٌ» صوفيٌّ ممهور بنُسكٍ روحٍ يتجلى لها المطلق؛ توازنٌ صعبٌ بين الطبيعةِ وما بعد الطبيعة، بين المُشْتَهَى والمُنْتَهَى، بين الجسد والأبد؛ الفداء صرخةُ نفسٍ يزُفُّها الأزرق. إنْ كنتَ جسدًا فحسب، أخطأتَ الطريقَ إلى معناه. وإنْ كنتَ نفسًا فوق الغرائز، أَضَعْتَ مبناه. لابدّ، إذن، من احترام الطبيعة كي تتمرد عليها وتنفيها. ولا بدّ من الثورة كي تحمي الماديَّ فيك من الغرور. في القلب شعورٌ يكفي ليؤسِّس مساحةً لِلِّقاء بين سِحْر الأرض ونداء السماء.

ـ ١٨١ ـ

ما كان منك، فهو منك وحدك، وما كان من غيرك فلستَ في تفسيرهِ بمأذونْ. وقد يكون لك ما أردْتَ وقد لا يكون؛ وربما أردْتَ من الأشياء ما لا يكون. لكنك تَخْسَر أكثر حين تَهُونُ أو تخونُ نفسكْ. فما أحدٌ سواكَ يعرِفُكْ وعلى الوجوه الكثيرةِ يقلِّبُكَ. وإنِ امرأةٌ شَهَرتْ سيْفَ التعريفِ، وأمعنتْ في وصف

للمرء منّا، في هذا الزمان، حقٌّ في العبث: في أن يشُكَّ في اليقينِ الخرافيّ وما ثبتْ، وتصحيح الروايةِ عن الخيانةِ والدعارةِ وما روَتْ. لا شيء في الرأس أدْعَى إلى اليقين مما كان وممّا الأيام طَوَتْ. أما الغدُ، فأنتَ جاهِلُهُ كأية دابَّةٍ على الأرض جثَتْ. اعبثْ لكي ينطلق المستحيلُ وتكتبه على ألواح الوصايا. واعبث لئلّا يضيع منك الجميلُ وينكسر على شروخ المرايا. واعبث في كل ساعةٍ كي تَعُدَّ بقايا الذكرى على الأصابع وتوزّعُها على الأيام شظايا. سبايا هنَّ الكلماتُ في مملكة المعنى الآسِر، وأنت الحاسرُ رأسُهُ وبأسُهُ، وأنتَ حصانُ الغد الخاسر. فاعبث مرةً أخرى، واعبث من جديد، عَلَّ المعنى يطيب للقصيدةِ كما يطيب لك النبيذ.

***

لا تروقُ لكَ الأشياء إنْ لم تأخذها مثلما هي: بلا إكْسِسْوَارَات مفتعَلَة ولا مشاهد رومانسية. والأشياء هي هي كما أرادتْها الطبيعةُ أو الهندسةُ السماوية. ماذا يفيدكَ أن تراها على غير ما هي: امرأةً غجريةً، أو عاصفةً في عينين مكحولتين، أو شطحةً صوفية؟ هل أنت شاعر لتقلبَ العالم بالكلمات؛ هل أنت وترٌ في كمنجةٍ تعذِّبُهُ النغمات؟ تريَّثْ بعضَ ليلٍ لئلّا تهزمك الطبيعةُ أو يُبَاغِتَكَ الصدى في نشيجِ النائحات.

***

مَنْ يعبثْ وراءَ اللامعنى يلهث، ويبني للّامعقولِ عُشًّا

التضاعيفِ، تستطيع أن تنفيَ الثابت وتكذّب التخاريف. أنت سِرُّك حين تختلي به وحيدًا تحت ليلٍ مُقْمِر أو في موعدٍ على ورقٍ أبيض مضَمَّخ بحبر لا تراه العيون. أنت الظنون وقد تواعَدَتْ على الاحتفال في رأسك حين تنسدل الجفون. أنت لا تصدّق ما يجول في نفسك من صورٍ مهرَّبة عمّا كان وعمّا سيكون؛ وأنت لا تصدّق أن الطبيعة تملك أن تَخُون حَدْسَك. لكنك تبدو لغيركَ مختلفًا: واثقًا مما تقول، تمامًا كما ألِفُوك، حازمًا في التماسكِ ولو عبثًا جرَّبوك. وتبدو سعيدًا بما علِمْتَ غير ضنين، وناظرًا لما قد تحبل به دنياك من جنين. لكنك وحدكَ في الليل حيث تَفُضُّ سرَّكَ الذي أنقض ظَهْرَكْ، تقول في نفسك: ارحمني من التِّيه أيها اليقين.

***

لولا **السِّرُّ**، لكان العَلَنُ جحيمًا كزواجٍ فَقَدَ نَضارتَهُ وتَهَدَّلْ. ما كان أجْمَلْ لو طابَ الكلامُ في العلن لولا أن المسافةَ بين المخاطِبِ والمخاطَبِ أَطْوَلْ، و لولا أن اللسان يقولُ ما يقول لقلبٍ تَعَوَّد أن يتأوَّلْ. الإنسانُ ما أضْمَرْ من معنًى يهيمُ بالخصوصيّ ويخشى المِجْهَر. والسِّرُّ ما أَنْضَرَ حسًّا للفرديَّةِ عَفَويًّا ودَغْدَغَهُ أكثرْ. والسِّرُّ في النَّفْسِ منطقةٌ أكبرْ ممّا يحْدسُ العقلُ وطريقةٌ في الإفصاحِ أَبْهَرْ. لولا السِّرُّ ما كانتِ الحضارةُ، ولا كانتِ الثورة، ولا التَّقِيَّةُ حَمَتْ نَفْسَها من وحشتها، ولا الأصواتُ كانت دُوَلاً على المنبرْ.

***

للأسرارِ مملكةٌ تَرْفُلُ فيها. لها وحدها أن تَهْجُرَهَا إذا شاءتْ، ولها إنْ شاءت أن تَحْرُسها. وليس في المملكةِ جُنْدٌ وأميرٌ وكاتِمُ سِرٍّ، ولكنَّ فيها ما يُقْرَأ: غموضُها الذي يبدّد البداهةَ وصَمتُها الغارقُ في الأزرقْ. إنِ اقتربْتَ منها جَفلَتْ ورمتْكَ مصدودًا، وإنْ ابْتَعَدْتَ أغرَتْك أكثر بالذهاب إلى المتاهةِ؛ وأنتَ بين الإغراءِ والصَّدِّ تتقلَّبُ، وتعلو وتهبط فيك إشاراتُ البَلَاهةِ. لا سبيل، إذن، إلى فتح القلعةِ إلّا بالفراسةِ والاحتمالْ. أرسُمْ في رأسكَ تفسيرًا للغامضِ وأَتْبِعْهُ بالسؤالْ، وتخيَّلْ أنكَ تَعْرِف المحجوبَ وتروِّضُ المُحَالْ. حينها ستُدْرِكُ، صدِّقني، أن الأسرار أشجارٌ بلا ظلال.

* * *

تفكِّرُ وتتكلَّمُ سرًّا؛ تَشْقى وتتألَّم سرًّا. تجرِّدُها من لباسِ النوم سرًّا، وتمارسُ السياسةَ سرًّا. تقتني الكتب سرًّا، تقرأها سرًّا وتوزّعها سرًّا. تأكلُ سرًّا، وتنامُ سرًّا، وتقتني الدواءَ من الصيدليةِ سرًّا. تفعل كل ما تريد وما لا تريدُ سرًّا. أمَا آنَ لهذه السِّرِّيَّةْ أن تنتهي كي تبدأ الحياة عاديًا مثل «الشعوب البدائيَّةْ»؟!

ـ ١٨٢ ـ

الوفاءُ للأقوياء. وحدهم يتذكرون، ويحفظون للذكرى ذكراها؛ تمرُّ القوافل على طريق الحياة فتبدِّلُ الأيام أسماءَها ولا يتبدَّلون. هُمْ مثلما كانوا: يحملون صمتهم وحكمتهم وإلى هفوةٍ

أو جفوة قلّما يلتفتون. الأوفياء أقوياء حين تَعِزُّ البطولةُ ويتناقص الرذاذ عن عطش الرُّحَّل، ويَكيدُ الزمان لِمَن وزَّعَتْهُ جهاتُ الريح على منافي الغرباء. الأوفياءُ نجومٌ تُلْألِئُ سماء ليلك حين تبحث عنهم، والأوفياءُ جُنُدٌ للمحبَّةِ في حروب الضرّاء.

* * *

الوفاءُ سمعةٌ قديمة، وشمعةٌ تُبطِئُ نهايتَها من أجل أن تضيء لَيْلَكْ. الوفاء امرأةٌ لا تنسى أَوَّلَ الغزلِ في عينيْها، ومرآةٌ لا تغيِّر ملامحَ وجهكْ. الوفاءُ طريقةُ الفلَّاحِ في قراءةِ عاداتِ الأرض وساعةُ حائِطٍ لا تُخْطِئُ الموعِدْ. لا يَقِلُّ الوفاءُ إلّا قليلاً: في مساحةٍ ضيّقةٍ بين سَهْوٍ عارض ولَيْلٍ كآبةٍ مؤرقة. وحين يَقِلُّ، لا يَضلُّ طريقَهُ ولا يستعيدكَ مُرْغمًا كواجباتٍ مُرْهِقَة. ولأن الوفاءَ امرأةٌ مُشْرِقَهْ، يعلِّمك كيف تنام في هدوءٍ وتصحو بلا خمولٍ، وكيف تنظِّمُ فوضى العواطفِ في شرْنَقَهْ.

* * *

الوفاءُ للطبيعةِ، وللناسِ أن يضارعوها إن أرادوا، ولهم في النصيب حقُّ المُخالَفَة. لا تُخْطِئ الطبيعةُ مواعيدَها مع رعاياها؛ قد تتأخّر، قد تَشْطَطُّ وتقسو، وقد تُفَاجِئُ المَحْزُونَ بالأَهْوَل، لكنها في النهايةِ لا تَبْخَلْ. لا سبيلَ في الطبيعةِ إلى حكمِ المصادفَهْ، هي دقيقةٌ في التصرف كامرأةٍ بواجبها عارفَهْ. كل شيءٍ فيها بميزانْ: الليلُ والنهارُ، والريحُ والإنسانْ. تأخذُ وتُعْطي وعلى الرَّعيَّةِ تُلْقِي درساً في أبجديات المناصفَهْ. لعلَّك تُدْرِكُ الآن

أنك عن مثالها في الوفاء لا تَسْتغْني وإن أَخَذَكَ تيَّار التشبّه إلى الإِبْحَارِ في المجازفَهْ.

❊ ❊ ❊

حين تَحْزَنُ أو تَبكي أو تَفْرَح، فتلك علامةُ الوفاءْ. تستطيع أن تستعيرَ ما يُسْتَعَار، لكن المشاعرَ لعبةٌ عسيرهْ. لكَ أن تصطنع المزاحَ والظَّرْفَ والغضبَ والأسى ومُحَيًّا رجُلٍ شديدِ الوقار؛ غير أن دمعتَيْن منكَ لا تُسْكَبَانِ عبثًا على فِقْرةٍ فقيرَهْ. ولو حزنتَ كَرْهًا لَبَانَ التكلّف وفَضَحَتْ أَسَارِيرَكَ ومْضةُ العين وحسرةٌ في النفس جهيرَهْ. حين تصدِّق ما تراهُ، فذلك خَتْمُ الوفاء في نفسِكْ. حين يُحَاصِرُكَ الرياء وتَطْرُدُهُ، تَصْرَع شيطانًا وَسْوَسَ في رأسِكْ. حين تُحَدِّق في المرآةِ طويلاً، تتمرن على مواعيدِ يأسك. حين لا تغيّر أعرافَ قلبك، تُصَالِحُ يومَكَ مع أَمْسِكْ. وحين لا تجد في مسائِكَ من تحدّثها تقول: سلامي إلى امرأتي الأولى.

❊ ❊ ❊

لولا المَلَل، كان الحبُّ وفاءً أبديًّا. لولا الرجل، كان العشق نداء نَسَويًّا. لولا البطل، كان نصُّ الرواية عبثيًّا. وأنت لستَ بطلاً، لكنك رجلٌ أصابَهُ المَلَلُ فاختار من النساء أخرى كي لا ينتهي للقلب أجَلُ.

ـ ١٨٣ ـ

كن وفيًّا كي تَذُوق سُمَّ **الخيانَهْ**. لا يعرفُها مَن تراهُمْ يتقلبون بين المواسم والخَابِيات ويَغْرفون. الخيانةُ لسعةٌ ريحٍ مفاجئة تَهُبُّ

على خيام القلب، امرأةٌ ترميك في منتصف الطريق كي تجدّد شهوتها في الإغراء، رجلٌ يُغازِلُ ثانيةً من وراء وجْهِ حبيبته المدفون في سرِّهِ. الخيانة فكرةٌ غجريةٌ تُتْقِنُ الإلهاء ومأساةُ شاعرٍ غارق في نبيذ عصره. الخيانة أن تكُوَن كما لم تكن تريد: أن تَشْطُبَ اسْمَكَ مِنْك، وأن تَجِدَّ في التنكُّرِ وتَطْلُبَ المزيد.

❋ ❋ ❋

أن تخون، أن تشعر بلذة الانتقام من نفسك. كُنْ نَرجسيًّا، إذن، حتى تحميَ غدكَ ممّا يتعقَّبُهُ، وتُسْدِل على نومكَ رداءَ اليقين. كُنْ خفيرًا يَحْرُسُ أمْسَه من انقلابِ الزمن عليه ومِن هربٍ إلى تيهٍ يبدِّدُ الحنين. كن ما يشتهي لَيْلُك غير أن تبيعَ رأسمالَ البداية في سوق المُتْعَبين. كُنْ طوْعَ رأسِكَ وجارَهُ في التمرُّدِ، ولكن لا تَدَعْهُ يُقَطِّع الذكرى كما تُقَطَّع حلوى الميلاد. كُنْ ما يستحقُّ النداءُ فيك أن تكون: عبدَ نفسِك وسَيِّدَ الأسياد؛ ولقد تخسر المعنى من الوجود إن وضَعْتَ على مِعْصَم قلبك شيئًا يُشبه الأصفاد.

❋ ❋ ❋

تشيح عنهم جميعًا: هي، وأبي العباس، وبعضِ شعرٍ قديم، وجبران والعقاد، وبقيةٍ من الناس. هي الخيانةُ، إذن، تقول في نفسك فينقبض المزاج. هي الحِجاج الذي لا يستدلّ على قضية ولا ينفع في دواءِ يأسِكْ؛ هي انقلابُ يومِك على أَمْسِكَ؛ هي المزلاج يُغْلَقُ على سرِّكْ. هل كنتَ تَعْلَم إلى أيةِ عزلةٍ تؤول إنْ

أفْحَمْتَ رأسَكَ بنسبيّةِ الحقائقِ والأشياءِ والأصول؟ لا القَلْبُ قلبٌ ولا الحرفُ مقدَّسٌ ولا أنتَ صوفيٌّ كَلِفٌ بالحُلُول. شِئتَ أن تبدِّلَ وتُعَدِّلَ والشائِنَ تُجمِّلْ وأن تَلْبَسَ وجهًا لكلّ الفصولْ. شِئتَ أن تَخُونَ أوّلَكْ: تَذُمَّهُ أو تمدحَهُ أو تُبَدِّدَهُ ما عَنَّ لَكْ. شِئتَ الذي لم تَكُنْ تشاء وما شَاءَتْ لَكَ الأقدارُ إلّا ما شِئْتَ لك. ما أجْهَلَكْ يا قريني في مرآةِ الصّباح وما أخْذَلَكْ؛ ليتني كُنْتُنِي غيرَ ما كُنْتُ لَكْ: طفلاً بريئًا من وَهْمٍ متأخِّرٍ خاتَلَكْ.

❋ ❋ ❋

عَشِقْتَها وخُنْتَهَا؛ وعَشِقَتْكَ وخانَتْك. تقول لها: للقَلْبِ عُمرٌ لا يزيد عن حدِّهِ؛ تقولُ لكْ: للحُبِّ كرامةٌ تَأْبى المَهَانَهْ. تُحَاوِل عبثًا، وبعُسْرٍ، أن تشرح لها معنى الخيانهْ؛ تَهْزَأُ من فصاحتِك الرديئَهْ وتذكُّرِكَ بما كنتَ ترنو إليه ذاتَ عصرٍ مضى من حنينٍ إلى الكلمات البريئَهْ. كَشَفَتْ رسائِلَكَ السرّيةَ في عينيك اللتيْن لا تُخْفيانْ، وكَشَفْتَ شَغَفَ التملُّكِ الجنونيِّ لديْها من زمانْ. تجرِّبُ يائِسًا أن تُقْنِعها بأنّ الحبَّ ليس مِلْكيةً عقاريَّهْ، تردُّ عليك بأنك لست أهلاً لتُرْوَى بدموعها الغجريَّة تَغْفِرُ لها خطيئتَها في قلبك؛ أما هي، فتلْعَنُ حظَّها مع رجُلٍ أتاها من المجهول: هكذا تقولْ؛ وفي رأسك ألْفُ سؤالٍ يَجُولْ وسؤالٌ آخر مؤجَّلٌ عن معنى الأبديَّهْ.

ـ ١٨٤ ـ

يَقِلُّ الأصدقاءُ أو يتكاثرون. لا عَيْبَ في أن تسألَهُمْ إن كانوا يُدْرِكون غَيْبَكْ؛ فأنتَ الآن وحْدَكْ، وليس بينهم من يَجْحَدُ

قُرْبَكَ. يتسامرون وأنتَ في مُعْتَكَفٍ تسْكُنُ رَوْضَكَ، وتبني بيديك في حدائقِهِ الصغيرةِ «مَجْدَكَ». وأنتَ وحْدَكَ تقولُ في نفسك للدنيا ما تقولْ وتلْعَنُ في السّرِّ عالَمًا لا يُدْرِكُ قصْدَكَ. أيها القابعُ في كهفِ صورتِهِ، أُخْرُج قليلاً إليهم لِتَجْلُوَ قناعًا عن الصداقةِ صَدَّكْ.

* * *

الصداقةُ روحُ مملكةٍ تتحرَّر من وحشةِ الأمير وخلوتِهِ؛ امرأةٌ تتجلى في حلْكَةِ السكون لِتُطْفِئَ الفراغَ المُشْتَعِلْ؛ قمرٌ يؤْنِسُ ليلَكَ الطويل في الصحراء؛ كرسيُّ اعترافٍ في كنيسةٍ مهجورةٍ، أُذْنٌ تراكَ ومرآةٌ تَسْمَعُك، وحديقةٌ لترويضِ العين على التَّنَفُّس. كلُّ شيء في الصداقةِ يبدأ منك، كُنْ جاهزًا كي يكون لكَ القرين: آخَرًا منكَ وفيه أناكَ دفينْ. كن في نفسك اثنين أو ثلاثة أو أكثر كي لا تكون وحدك مسكونًا بالخواء. ما عزَّ الصديق إن طَلَبْتَهُ ولا فاضَ عن الطلب الأصدقاء. ضَعْ عنك بعض الخلوة قليلاً كي تُودّع فيك عادات الغرباء.

* * *

هُنَّ في المبنى قوائم: الصداقةُ والصِّدق والصدقةُ وصَدَاقُ امرأةٍ في القلب تَهْوَى السلالم. هُنّ في المعنى توائم: الصداقةُ صداقُ صادقٍ يتصدَّقها في سخاء؛ هُنَّ في المَجْرَى والمرْسى سواءٌ كِقرانٍ لا ينطفئ بين جسديْن ملتهبيْن؛ هُنَّ نداء الروح في وحشةٍ صمتٍ يدفنُها شاعرٌ في قصيدتيْن. تَصْدُق حين تُصادِقُ

وتتصدَّق على قَلْبٍ مُتْعَبٍ بصداقٍ من شعر بن أبي ربيعة أو من مال الله، لا فرق. ولا فرق بين صدق وقَصْدٍ إنْ قصدْتَ صدقًا أو صَدَقْتَ قَصْدا، لا فرق. ولا بين الصداقة والصداقةِ فرق إن كانتَا من نفس السلالة والخلق.

* * *

أجمل الأصدقاء امرأةٌ لا تعذّبك، وقلبٌ لا يؤنِّبُك، وضيف لا يطيل المكوث على مساحةِ صبرك. أسوأ الأصدقاء مَن يطيل الغياب فيسْلُبُك حقَّ الحنين إلى الضجيج على حافة قَبْرِك.

باب الغيوم

تستهويه المدينة، ويستهويه أن يذْرعها وحيدًا في المساءات. طليقًا تَعْوي قدماهُ في الفضاء، والعينان تَمْسَحْان الناسَ والواجهاتْ. من شارعٍ إلى زقاقٍ وزَارُوبٍ وعَطْفةٍ. . .، إلى فاكهةِ التوقُّف حينًا على قارعةِ السَّابلةِ لاستنشاقِ الهواء أكثر، ونَقَاهةٍ سريعةٍ لقدميْن هَدَّهُمَا الصعود. أحبَّها مُذِ اكتشف سِحْرَهَا الخرافيَّ، وحبُّها فيه الآن أكبر. كأنه يودِّعُها في الهزيع الأخير من الجامعهْ؛ كأنها تُثنِيهِ عن الرحيلِ وتمسح عن صدره غيمةَ الفاجعهْ. يقول لها: «هل تذكرين حين جئتُكِ على صهْوةِ حُلْميَ المبَلَّلِ برذاذ الخيبَةِ القاتمهْ؟». تقول له: «كم من آخرين قبْلَكَ مَرُّوا فعَلَّمْتُهُم أبجديةَ سرِّيَ الدائمَهْ؟». «هل كانتْ وصاياكِ لي غيرَ تعاليمَ تأخذُني إلى النهايات الكالحهْ؟»، يقولُ. «كنتُ لعِشْقِكَ الخرافيِّ الصَّغيرِ كالضَّرَّةِ الصالحَهْ» تَضْحَك. ويَعْبِسُ حين تقولُ ما تقولُ، وفكرةٌ في رأسهِ تجولُ عن حكمةِ جدَّةٍ دَالتْ ومدينةٍ صَالَتْ كي تَرِثَ الوصيَّةَ عنها في لحظَةٍ جارحَهْ.

لم يتخيَّل بعدُ كيف لِفَاسَ أن تُمْسِيَ محضَ ذكرى عابِرَهْ. يتحايَلُ في خيالِهِ على سؤالِهِ ما استطاعَ ويؤجِّلُ الخاطِرَهْ. يَعْرف أن نِدَاءَ الحمراءِ أصْرَخْ، ومكانَ القلب فيها أشْرَحْ؛ لكنَّ رُقَيَّةَ/

الياقوتَ رَحَلتْ وتركَتْ على مَلَاءَةِ سريرِها أَلْفَ أحْجِيَّةٍ يتيمهْ، ولم تَتْرُكْ في مُرَّاكُشَ مَنْ يُولِمُ للنفسِ بعدَها وليمَهْ. أمَّا أبو العبّاس، سيِّدُ حرَّاسِ الحنينِ إلى الطفولةِ، فماتَ في القلبِ من زمنٍ وأَسْدَلَ على الحيِّ رَميمَهْ. وقليلٌ من الأصدقاء تبقّى في الحمراء، وأضعافُهُمْ عرَفْتَهُمْ في فاسَ ورافقُوكَ في القافلَهْ، وفيهم مَنْ قاسَمُوكَ العَطَشَ والرُّعْبَ والرَّغيف والضَّرَّاءَ والاختفاء عند الضرورةِ بين السَّابِلَهْ. فماذا أنتَ فاعِلٌ مع الذي يقضُّك؛ وماذا أنتَ تَمْلك أمام النَّازِلَهْ؟ لم يتخيَّلْ بَعْدُ كيف يُغْمِدُ النسيانَ في أَمْسِه وكيف يُسْرِجُ للبعيدِ الرَّاحِلَه!

كثيرًا ما يَسْأَلُ نفسَه: مادامَ المكانُ مُطْلَقًا ومَقُولَهْ، لماذا لا تجتمِعُ المدينتان في واحدٍ وتَخِفُّ الحمُولَهْ؟ لو كانَ للمدينتينِ أن تَتَّحِدَا لَكُنْتَ آخرَ فارسٍ من بين ربيعَة، لكنك من عُشّاق بني عامر تَعْشَقُ المرأة وتَهْوى الطبيعة. ويقول في نفسِه: سلامًا أيها الزمان شريفًا كنتَ أم وضيعًا. يتذكَّرُ فجأةً أنه لا يَهْوى الخديعَهْ وأن المدينتين منفصلتان في قَدَرِ المكان وإنْ وحَدَّتْهُما فيها ـ لبُرهةٍ ـ خاطرةٌ سريعَه. ربَّما تأخَّرَ الرحيلُ قليلاً، ربَّما أَمْهَلْ، لكنه آزِفٌ يومًا: أخْلَفَ موعدهُ وما أهْمَلْ.

***

هُنَّ العاشقات: بين حبّات الرَّذاذ يُلْقين التحيةَ أو يرتجلن الوداعًا. هُنّ الأغنيات: ينتحِرْنَ على شرفةِ وَتَرٍ تنقُرُهُ الأصابعُ في جنونْ. هُنَّ الظُّنونْ وقد أفرجَتْ عن شكِّ السماءِ في تحتها الأرضيِّ. هُنَّ الحصونْ تَحْرُسُ داخلاً يتهتَّك، وهُنَّ ياسمينُ المساءِ واللَّيْلَك. هُنَّ يرْفَعْنَ الشِّراعًا: رايةً تَمْخُرُ العُبابَ وتمسح السحابَ عن ظفائرِ

شمسٍ تُجْدَلْ. هُنَّ الأجْمَلْ في عُرْسِ بَيْدَرٍ تزُفُّ سنابِلَهُ كَمَنْجَاتُ أيار للمنجِلْ. هُنَّ الحاسراتِ يَخْتَصرن طريق الرحيل إلى وداعِ خُصْلةِ رأسٍ تَدَاعَى. هُنَّ يُشْعِلْنَ الصِّراعَا بين قبيلةِ حبٍّ قديمةٍ وأخرى تَلْتَحِفُ القِنَاعَا. هنَّ النائحات في لَيْلِ قلبٍ يعذِّبُهُ الرحيلْ؛ هُنَّ الضاحكات على مَوَّالٍ يَهُزُّهُ صوتُ الصهيلْ. هُنَّ العويلْ يُجَنِّد دَمْعَهُ لمهرجان الحِدَادِ في الحزن الطويلْ. هُنَّ الذاهبات في شاطئِ ذكراك البعيدِ يَخْتَلْنَ عصرًا أو يتجرَّدْنَ ظُهْرًا عارياتٍ تحت جدائل شمسِ المستحيلْ. هُنَّ اللَّائي كنتَ تَعُدُّهُنَّ على الأصابعِ يومًا قبل أن يَفيضَ العَدُّ عن الآحادْ؛ هنَّ اللَّائي تُصادِفُهُنَّ مساءً في الشوارعِ أو قليلاً في إغْماضةِ الأعيادْ. هنَّ البلادْ وقد أَخَذَتْ زينَتَها في فاسَ ومَشَتْ؛ هُنَّ الحِدَادْ يُؤَدّي للقَرْحِ تحيَّةَ السَّوَادْ ويذكُرُ نسيانَ الطبيعةِ بما وَعَدَتْ به الطبيعةُ وَوَشَتْ. هُنَّ السائحات على «البَطْحَاءِ» يَهِمْن وبين «القَرْوِيِّين» و«النجَّارين» يَنْتَقِمْن. هُنَّ الفاسيات القاسيات الناسيات الحابسات أنفاسًا فيك لا ولَنْ تَسْتَكِنْ.

***

تَسْكُنُك الشامُ والأندلس، وأمْصَارُهُمَا إلى بلادها أَتَيْن، ووَرِثتْ منهما ما يستحقُّ أن يُورَثْ: رَاءً عسيرَةَ النُّطْقِ، وقَافًا متوحِّلَةً في أوَّل حَرْفٍ، وعيونًا تُوشِكُ أن تتكلَّم. عليكَ، إذن، أن تتعلَّمْ كيف تتقشَّف في التحديقِ فلا تُطِيلُ النَّظرْ. وعليكَ أن تُرَوِّضَ صوتَكَ على الوداعةِ كي يُحْسِن نُطْقَ حروفِ النداءْ، فلا تَنْسَ أنَّك بين الظباء، إنْ يَحْرنْ صوتُك جَفَلْنَ وضِعْتَ في الهَباءْ. أنتَ لا تَطْلُبُ شيئًا كثيرًا لِنفسكَ غيرَ انتباهةٍ تشدُّ أَزْرَكْ، وتُغْنيكَ عن وجْبَةِ سَهْوٍ حين تكونُ في الليلِ الموحِشِ وحدكْ. لا أنتَ

راهبٌ ولا زِيرُ نساء ولا شاعرٌ أضَاعَ حبيبَتَهُ في الزِّحَامْ، ولكنَّ شيئًا خرافيًّا يكبُرُ فيكَ وفي داخِلِكَ يُطْلِق ريحًا في الغَمَامْ.

***

لعلَّهُ الرحيلُ يُؤْذِنُ أو يُعْلِنُ موعدًا للنهايةِ أزفت. لعلَّهُ القَرَفْ من صورةِ المَجْبُولِ على نُسْكٍ مثاليٍّ يُعَذِّبُكْ. لعلَّهُ شيءٌ جديدٌ يُولَدُ فيكَ وعن مألوفٍ قديمٍ قد يُشرِّدُكْ. لعلَّهُ ما لا يُوصَفُ من طقوسِ أمرٍ سماويٍّ يصطفيكَ ويجرِّبُكْ. لعلَّهُ أيُّ شيءٍ من الماضي لا تعرِفُهُ، أيُّ لغزٍ جديدٍ تقاسِمُهُ سؤال اليقينِ الضائع بين الشوارع. لعلَّهُ قصَّةٌ أخرى تُرْهِصُ بامرأةٍ تنمو خُفْيَةً في أحشاءِ المَوَاجِع.

***

ما أسرع المَلَلَ يتسلَّلُ إلى عاداتٍ تَأْلَفُهَا: سَهَرٌ على وقْعِ وتَرٍ أو دمعةٌ في العتمةِ تَذْرفُها. تَحْتَار في أيّ شيءٍ تَخْتَار: ما يَجِدُّ أو ما يَلِدُّ، وتُسَلِّم السؤالَ المعلَّقَ إلى غدٍ يُقْرِفُهُ ميراثُ الأمس فَيُلْقي بهِ على قارعةِ الانتظارْ. ما الذي تغيَّرَ، إذن، حتى تنتصِرَ المصادفة ويعلنَ المألوفْ استسلامًا غيرَ مشرِّف؟ أنتَ تعرف أنَّ ما من شيءٍ كان أصعب من أن تكسر القاعدهْ، وأن تُصْغِيَ لصوتٍ جَهْوَرِيٍّ يَدْهَمُ نِظامَكَ المحروسَ مِن خلفِ النافذَهْ. وأنتَ تعرف أن للفوضى طريقتَها في تنظيم المتاهةِ أو في نسْفِ اليقينِ الطَّهوريِّ بفكرةٍ فاسدهْ. تقرأ مرةً أخرى ما تشاء من الماضي وتسْتظهِر إلّا قليلاً سورةَ المائدهْ. وما الفائدهْ في أن تفقد الدليلَ إليك ويضيعُ منك الطريق إلى قَدَميْك. ما الفائدهْ في أن تُعَمِّرَ قلعةً من سديمٍ يجلو الفراغَ المُرَّ بين فِقْرتيْن لا تَقُولانِ الحقيقَهْ؟ ما الحقيقَهْ إنْ كنتَ

لستَ تُؤْمِن بأنَّ ما سَقَطَ سهْوًا في الماضي تَجَلَّى ورماكَ في الغياب؟ وماذا تصدِّق إن كنتَ لا تُدْرِكُ أنّ كلَّ شيءٍ تبدَّلَ، وأن جَمْرَكَ مؤذِنٌ بنهايةٍ قريبَةٍ: لا يؤجِّلُها نسيانٌ ولا يستعجلها كِتابْ؟ ما أسرعَ المَلَل يتسلَّل إلى عاداتٍ قديمهْ: امرأةٍ تخاطِبُها شعرًا، وثورَةٍ تشرب نخبْها خمرًا، وذاكرةٍ تقاسِمُك الاعتذارَ عن ذكرى أليمَهْ.

كلُّ شيءٍ إلى غدِهِ الباردِ يتسلَّلْ: القلقُ، والشّكُّ، والسؤالُ، والغبارُ، والديارْ، وبقيةُ خيوطِ ضوءٍ عالقةٍ في ذيْل النهارْ. كلُّ شيءٍ ينهارْ في معمارٍ أذْهَلَهُ وأورثَهُ الشعور بالانبهارْ: بندقيةٌ يعبِّئ صدرَهُ برائحة البارود فيها من بعيدْ، وكوفيةٌ يُلَفِّعُ بها حزنًا أو يمسحُ بها دمعًا حارقًا كالصَّديدْ. لا شيء يُشْبه يومَهُ، لا أَمْسُهُ ولا غدُهُ ولا مِن جَهْرٍ سماويٍّ يَمْسَح همَّهُ. هو الآن وحدُه، يَعْرفُ حَدَّهُ ويعرف أنه في النسيان يُخْمِد «مجدَهُ». يا وَحْدَهُ: في الفضاء الموحِشِ يكشف سرَّهُ ويُسَلّي السؤالَ بلعبة المُحَال ويجرِّبُ حَظَّهُ. قد يُفْلِحُ ثانيةً في الهروبِ، وقد يَهِيمُ على رُشْدِهِ في اللانهائيِّ الصّغيرِ. قد يبدأ من صفر البدايةِ بعشقٍ بطوليٍّ أو بِنَفَسٍ قيصرْ. قد يُعيد كَرَّةَ التجربة وينسى الذي فَطِنَ له وألهمَتْهُ الموهبة. ربّما يَفْعل أيَّ شيءٍ كي لا ينتهي في زاويةِ نسيانٍ مُظْلِمَهْ. وربَّما ينسى نفسَهُ في زحمةِ غدٍ كي يتذكَّر بعدَهُ أبطالَ المحلمَهْ. وما أَقْدَمَهْ من مَيْلٍ غريزيٍّ فيه إلى طَلَبِ القيامَهْ، بعدَ حُطامٍ يُسوّي الماضي في لفافةِ ورقِ تَبْغٍ أو مَنامَهْ. لكنه لمْ يتعوَّدْ أنْ يحسب ذلك علامَهْ على عصرهِ الذي انصرمْ. يتصرَّفُ كالسيّدِ المحترمْ ويستأنِفُ بدءًا كأنه يَهْدِمُ العدمْ.

***

يُشْعِرُهُ القطارُ بالفِرَارْ، بوداعٍ سريعٍ لذكرى زائِلَة. ما أَرْحَمَ

الحافِلَهْ لجَسَدٍ يُرْهقُهُ الحنينُ إلى نفسِهِ فيختارُ أن يرتاحَ من تَعَب أسئِلةٍ قاحلة. القطارُ لِلَّيْل كي لا يُدَاهِمَ اليأسُ نَوْمَكْ. والحافلةُ للضوءِ كي ترى بعينيْك فروسيةَ الطبيعة. تَمُرُّ بكَ خاطِرَهْ: «ما أشْبَهَ الحافِلَةَ بالقافِلَهْ، تَخِبُّ في الطريقِ وتُسْلِمُكَ للتأمُّل. «قُلتَ ذلك ـ تَذْكُر؟!» ـ أوَّلَ مرة وعيناكَ تَقْطَعانِ الأطلسَ ورأسُكَ على الذكرى يُطِلُّ من علٍ تُحْنِيهِ طَلْعَةُ جَدَّةٍ تَسْكُنُكْ. لكنَّك حينَها لم تتأمَّلْ فوقَ المعدَّلْ، بلْ حَدَّقْتَ، وفي الأشياءِ البَصَرَ أدَرْتَ باحثًا عن بصماتِ جدِّكَ عَلَّكَ منه تَثأَرْ. أمَّا غدًا، حين ترحَلْ، فعَلَيْك قطعًا أن تتأمَّلْ: ماذا فَعَلْتَ في الأمس وماذا ستَفْعَلْ. وعليكَ أيضًا أن تَجْهَلْ أنَّكَ كنتَ يومًا شَيْخَ قبيلةٍ من العشَّاقِ في ساحةِ هوشي مِنْه: تُحيِّيهِ العيون وتُطْرِيه الألْسِنَهْ، فلقد وَلَّى زمنُ الخطابةِ والتَّفَصْحُنِ وستأتيكَ بأخبارِ غدِكَ الأزمنَهْ. سافِرْ إلى غدِكَ بالحافِلَهْ وتَجَشَّمْ ليومٍ واحدٍ، إذن، عناءَ أسئلةٍ مُزمنَهْ.

ولقد سافر أخيرًا وأَوْدَعَ الذي خَلْفَهُ للصمتِ والحنين ولذكْرى أشْهَدَ عليها قلبًا تَقَرَّح. ألْقَى بنفسِهِ في الحافلهْ كمنديلٍ مُبَلَّل بِنَدَى تَنَهُّدِ دمعتيْن وأَسْلَمَ العينيْنْ لِطَيْفِ امرأتيْن تتبادلان الحديثَ مَعَهُ وتَعْدُوانِ في البعيدْ، وعلى وقْعِ النشيدْ تُسْدِلانِ على صورتِهِ رمشَيْن مُرْهَقَيْن. ساعتانِ تَكْفيانْ كي يتذكَّر ما ينبغي أن يُخْفِيَهُ عن النسيان حين يَتَفَقَّد النسيانُ ممالِكَهُ فيحفظُ ما يشاء ويفرِّط في الباقي بلا حسبانْ. ساعتانِ تكفيانْ ليرتفع النشيدُ فوق ساحة المقبرهْ، وتكفيان كي يوزِّعَ الفائِضَ على فضولٍ بصريٍّ أَسْهَبَ في الفراغِ كالثَّرْثَرَهْ. يَسْرق المكان انتباهَهُ قليلاً؛ هي ذي بَلْدَاتُ الأطلسِ تردِّدُ في الأُفُقِ أغْنيةً جبليَّهْ، يشرِّدُها الغيابُ، يَغْسِلُها

السحابُ، وتَزُفُّها امرأةٌ لِلَيْلٍ ينامُ بين هُدْنتيْن. هي ذي المسافَةُ بين جُملتيْن في نصٍّ يُقَطِّعُهُ الرَّبَابُ وتُطَوِّبُهُ زُغْرودةٌ ترقِّصُ الغِزلانْ. هي ذي مِزْودةُ الوديانْ تُرْسِلُ سِرَّها في أمِّ الربيعِ وتَمْلأُ الشِّرْيانْ. هي ذي غاباتُ الأَرْزِ تُطْلق ظفائِرَها في جنونِ الطبيعةِ وتروِّضُ النسيانْ. هُوْ ذا «الحَايْك»، مِلَاءةُ النسوان، يتلفَّعْن به ويَمْشين في عنفوانْ. . . ؛ والحافِلةُ لا تقف إلّا لمامًا كي تَقْطَعَ حَبْلَ التأمُّل وتَرْدَعَكْ. وما مَعَكْ إلّا ما غَنِمْتَ من ماضٍ دَسِمٍ في الماضي أَشْبَعَكْ. وفي نفسِكَ جوعٌ للبعيدِ ونصُّ قصيدةٍ مُبْهَمٌ لم تَكْتُبْهُ في خلوةِ الأمس وشريطُ ذكرياتٍ قديمة أمْتَعَكْ. وكانت فاسُ عن ناظريْكَ تبتعدْ، والجبالُ الشاهقاتُ تَنْهَضِب وتُنْبِئُكَ بسهْلٍ قريب. وكنتَ ترتعدْ من لقاءٍ لا تدري كيف يكون.

❋ ❋ ❋

يتخطَّى عتبة المقبرة، بعد شبهِ تردُّدٍ، ويدلف. لا بدَّ أنها تنتظر أن يرويَ لها شيئًا ممّا رأى. تلك كانت عادتُهُ معها كلَّما التقاها بعد غياب. حين أهَالُوا عليها الترابَ، قبلَ عامٍ، بَكَى مثلما كان ـ طفلاً ـ يبكي بين ذراعيْها واختنقت فيه الكلماتُ. لكنه عاد، بعد شهريْن، ووعَدَ أن يناجيها كلّما زار المقبرهْ. الآن يقف بين يديْها، ويقرأ شاهدَ قبْرها، يستغرق في تهجيةِ الحروف ولا يتكلم أو يُهَمْهِم. لا يُحَرِّكُ شفتَيْن، لا يَرْفَعُ كفَّيْن، لا يُغْمِض عينيْن. فقط يَسْكبُ دمعتيْن ويَرْسُمُ على سبّورةِ داخِلِهِ جملتَهُ الأثيرهْ: جدَّتي. . . كم أحبُّكِ.

بيروت

حزيران/ يونيو ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨

صَدَر للمؤلّف

١ ـ **الأمن القومي العربي** (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨).

٢ ـ **القومية والعلمانية: الايديولوجيا والتاريخ** (دار الكلام، الرباط، ١٩٨٩).

٣ ـ **المسألة الوطنية الفلسطينية** (دار البيادر، الدار البيضاء، ١٩٨٩).

٤ ـ **أزمة الخليج: العرب بعد نهاية الحرب الباردة** (دار الكلام، الرباط، ١٩٩١).

٥ ـ **إشكالية الوحدة العربية: خطاب الرغبة، خطاب الممكن** (دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١).

٦ ـ **إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر** (دار المنتخب، بيروت، ١٩٩٢).

٧ ـ **حرب الخليج والنظام الدولي الجديد** (دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣).

٨ ـ **الخطاب الإصلاحي في المغرب: التكوين والمصادر ١٨٤٤ ـ ١٩١٨** (دار المنتخب، بيروت، ١٩٩٦).

٩ ـ **في البدء كانت الثقافة: نحو وعي عربي متجدّد بالمسألة الثقافية** (دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ بيروت، ١٩٩٨).

١٠ ـ **عرس الدم في الجزائر** (منشورات «شراع»، طنجة، ١٩٩٨).

١١ ـ **العولمة والممانعة** (دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٢).

١٢ ـ **العنف والديمقراطية** (منشورات «الزمن»، الرباط، ١٩٩٩/ دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٠).

١٣ ـ **ماذا تبقى من الأمم المتحدة؟!** (دار إفريقيا الشرق، بيروت/ الدار البيضاء، ١٩٩٩).

١٤ ـ **الأنفاق والآفاق: رؤية مستقبلية للصراع العربي ـ الإسرائيلي** (دار إفريقيا الشرق، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠٠).

١٥ ـ **«حزب الله» اللبناني: من الحوزة العلمية في الجبهة** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠).

١٦ ـ **في الديمقراطية والمجتمع المدني** (دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٠).

١٧ ـ **زمن الانتفاضة** (منشورات «الزمن»، الرباط، ٢٠٠١).

١٨ ـ **أسئلة الفكر العربي المعاصر** (دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠١).

١٩ ـ **الإسلام والسياسة** (المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠١، ط ٢، ٢٠٠٨).

٢٠ ـ **الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢، ط ٢، ٢٠٠٤).

٢١ ـ **من العروبة إلى العروبة ـ أفكار في المراجعة** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٣).

٢٢ ـ **العرب وإسرائيل** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٤).

٢٣ ـ **تكوين المجال السياسي الإسلامي ـ النبوّة والسياسة** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥).

٢٤ ـ **أزمة المشروع الوطني الفلسطيني ـ من «فتح» إلى «حماس»** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧).

٢٥ ـ **العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧).

٢٦ ـ **حالة الحصار** (دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٧).

٢٧ ـ **المعارضة والسلطة ـ المجال السياسي العربي المعاصر** (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٧).

٢٨ ـ **في الإصلاح السياسي والديمقراطية** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ٢٠٠٧).

٢٩ ـ **الدولة والمجتمع ـ جدليات التوحيد والانقسام في المجتمع العربي المعاصر** (الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠٠٨).

٣٠ ـ **العرب والحداثة (٢) ـ من النهضة إلى الحداثة** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩).

٣١ ـ **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين** (ط ٢، مزيدة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٠).

٣٢ ـ **رائحة المكان: نص** (منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٠).